هذا الكتاب حاصل على جائزة سيمون بوليفار الدولية
من منظمة اليونسكو العالمية

الأعمدة السبعة للشخصية المصرية

د. ميلاد حنا



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



د. ميلاد حنا

الأعمدة السبعة للشخصية المصرية



اسم الكتاب: الأعمدة السبعة للشخصية المصرية

اسم المؤلف: د. ميلاد حنا

تاريخ النشر: فبراير ١٩٩٩م .

رقم الإيداع: ٢٦١٦ / ١٩٩٩م .

الترقيم الدولي: I . S . B . N 977 - 14 - 0912 - 3

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة .

مدينة السادس من أكتوبر .

ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط)

فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة .

ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥

فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ **ص.ب:** ٩٦ الفجالة .

إدارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة .

ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤

فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ **ص.ب:** ٢٠ إمبابة .

إهــــداء

إليها . . . .

● إلى التى أخرجتنى من إطار الخطوط الهندسية الجامدة إلى رحابة القدرة على التعبير بالكلمة .

● إلى التى تحاورت معها خلال السنوات الخصبة من العمر فأدركنا سوياً قوانين العلاقات الإنسانية بين البشر .

● إلى التى قدمت لى - عن حب - راحة البال فكرست وقتاً أطول للعمل العام .

● إلى زوجتى وصديقتى وحبيبتى الكاتبة الصحفية **إيفلين رياض** أهدى هذا الكتاب .

منها وإليها . . . .

ثم . . . .

إلى ابنى هانى

الذى آثر الحياة فى مصر لإدراكه الكنوز داخلها وما تتسم به من علاقات إنسانية ودفء اجتماعى يعطى الأمان ، وفضّل ذلك على مستوى المعيشة المرتفع والتقدم التكنولوجى المبهر ، والحريات فى الاختلاط الموجود فى أوروبا وأمريكا وحيث تعيش شقيقتاه مشيرة ومارى وفضل عليها مصر بأعمدتها السبعة . .

ميلاد حنا

«الحكمه بنت لها بيتاً . . شيدته على أعمدة سبعة »

سفر أمثال ٩ : ١



من أجل

مصر وطننا موحداً كالصخر

اللوحة بريشة الفنان حسين بيكار

هذا الكتاب

- **هذا الكتاب عن مصر :**

فهى هناك من أول كلمة إلى آخر كلمة وبين السطور .

- **هذا الكتاب موجه إلى العقل :**

ولكن العقل وحده لا يكون حب الوطن ولذا فالكتاب موجه للعقل والوجدان معا .

- **هذا الكتاب ينمى الوطنية :**

والوطنية ليست تاريخاً مشتركاً فحسب ولكنها مستقبل مشترك أيضاً .

- **هذا ليس كتاب تاريخ :**

فأنا لست متخصصاً فى التاريخ ولكننى ذكرت من التاريخ ما يخدم الوطن ويبنى الإنسان .

- **هذا ليس كتاب سياسة :**

ولكن فى النهاية ما هى السياسة ، أليست موقفاً وفكراً ومحاولات واجتهادات تهدف لسعادة الإنسان واكتشاف انفعالاته وطموحاته من أجل رؤية أفضل للمستقبل .

- **هذا ليس كتاباً فى علم الاجتماع :**

وإن كان الإنسان بالضرورة كائناً اجتماعياً يعمل مع آخرين وإلا تحول إلى تائه فى بيداء .

- **هذا ليس كتاباً فى علم النفس :**

ولكن علم النفس يغوص داخل نفوس الأفراد والجماعات معاً ، لكى يكتشف الإنسان ذاته فيسعد بنفسه ومع الآخرين ، وهذا ما يسمونه علم النفس الاجتماعى أو الجماعى وملامحهما فى سياق هذا الكتاب .

- **هذا ليس كتاب «سيرة ذاتية» :**

فالحديث عن الذات لا يهم إلا الذات ، ولكن أليست الكتابة تحقيقاً للذات وبالتالى لا تخلو من قصص وأحاديث عن الذات .

- **هذا ليس كتاب فلسفة :**

ولو عاد بى الزمن للوراء لأثرت أن أكون دارساً للفلسفة ، أى مُحباً للحكمة . . لأنها تتجاوز السياسة والواقع .

- **هذا ليس كتاباً عن الديمقراطية :**

ولكنه يخدم الديمقراطية ، فكلما فهم الإنسان ذاته وفهم زميله وجاره وإخوته ، قَبِل أن يفتح معهم حواراً حتى وإن اختلفوا معه فهذا هو جوهر الديمقراطية أى قبول مبدأ الاختلاف .

- **هذا ليس كتاباً عن حقوق الإنسان :**

وحقوق الإنسان فى الغرب تحمى الحرية الفردية ، أما حقوق الإنسان فى بلادنا فينبغى أن تركز على حقوق الجماعات والانتماءات المختلفة ، ولذا فهو يخدم قضايا حقوق الإنسان .

- **هذا الكتاب يهدف للوحدة الوطنية فى مصر :**

وهى قضية كرست لها حياتى وسأستمر بإذن الله .

من أجل كل هذا . . .

أقدم لك ـ أيها القارئ الكريم ـ هذا الكتاب .

ميلاد حنا

٧ يناير ١٩٨٩

مقدمة الطبعة الخامسة

لجنة التحكيم لجائزة سيمون بوليفار الدولية اعتبرت هذا الكتاب أحد الأعمال الثقافية التى تدعم التعددية فى مصر، ومن ثم جاء أهمية أن تصدر طبعة خامسة بها اضافات هامة.

فى تاريخ الأمم والأفراد تواريخ وسنوات لاتنسى ، لأنها أيام أو سنوات فاصلة ، أى تفصل بين حقبة وأخرى ومن ثم تصبح تاريخه ، فقد جاء عام ١٩٩٨ ليكون بالنسبة لى «عام جنى الثمار» ففى ٦ مارس ١٩٩٨ ، أصدر جلالة الملك كارل جوستاف ملك السويد ، براءة منحى وسام «النجم القطبى» ـ الذى لايغرب ـ بدرجة «كوماندور» ، وهو وسام رفيع المستوى لايتفوق عليه ـ حسبما جاء فى نشرة إصداره ـ إلا الوسام الذى يمنح لرؤساء الدول وحدهم فكان ذاك التقدير من دولة السويد بداية لثمرات وتقديرات أخرى ، فقد جاء أهمها ـ وأعظمها رفعة ـ جائزة «سيمون بوليفار الدولية» ، والتى تمنحها منظمة اليونسكو كل عامين منذ عام ١٩٨٣ حيث كان أول من فازا بها هما نيلسون مانديلا محرر جنوب أفريقيا وخوان كارلوس أول ملك ديمقراطى يحكم أسبانيا بعد تحريرها من نظام فرانكو الفاشى .

وقد تسلمت الجائزة فى احتفال خاص مهيب يوم الاثنين ١٩ أكتوبر ١٩٩٨ بالقاعة الكبرى لمبنى اليونسكو فى باريس ، حيث كان قرار لجنة التحكيم الدولية بالإجماع بأن تكون جائزة سيمون بوليفار لعام ١٩٩٨ مناصفة بينى وبين زعيم ومحرر البرتغال من الفاشية «ماريو سوارش» والذى انتخب أول رئيس جمهورية مدنى للبرتغال عام ١٩٨٦ ثم أعيد انتخابه لفترة ثانية عام ١٩٩١ ، ولولا أن الدستور البرتغالى ـ كما فى دساتير دول ديمقراطية أخرى كثيرة ـ يقصر انتخابات أى رئيس على مدتين غير قابلتين للتجديد ، لكان ماريو سوارش رئيسا لجمهورية البرتغال حتى الآن .

ولأن الاحتفال بتسليم الجائزة كان مهيبا ، ولأن منظمة اليونسكو قد اختصتنى بمجموعة فريدة من الصور الملونة التى التقطها مصورون محترفون ، ولأن كثرة من الصحف ووسائل الإعلام قد رغبت فى الحصول على بعض هذه الصور ، لذلك رغبت فى أن أضم إلى هذه الطبعة الخامسة من كتابى «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» بعضا من هذه الصور ، كما تتضمن صورة الوثيقة التى تسجل منحى

الجائزة ، وبعض الوثائق الأخرى الخاصة بأهداف منح الجائزة لتكون متاحة لقراء العربية والإنجليزية .

أما السبب فى حماسى لإصدار طبعة خامسة « باضافة فصول جديدة» ، فهو أن هيئة التحكيم قد أشارت - فيما أشارت فى حيثياتها - إلى هذا الكتاب تحديدا ، واعتبرته عملا فكريا متميزا ، يدعو إلى الوفاق والوئام فى مجتمع «متعدد الأديان» ، ومن هنا رغبت دار «نهضة مصر» فى أن تجعل الكتاب متاحا على نطاق واسع باللغة العربية ، توطئة لأن يعاد نشره مترجما باللغة الإنجليزية ، وفى اتجاه التفكير لأن ينشر مترجما باللغة الأسبانية ، ذلك أن سيمون بوليفار (١٧٨٣-١٨٣٠م) هو الذى ناضل من أجل استقلال معظم دول أمريكا اللاتينية ، والتى يتحدث أهلها ومواطنوها الأسبانية كلفتهم الأساسية ، ومن ثم فإن بعض المثقفين فى هذه القارة ، قد يكونوا راغبين فى التعرف على الإنتاج الفكرى لمن حصلوا على الجائزة التى تحمل اسم محرر بلادهم «سيمون بوليفار» والذى تدين له تحديدا دول أمريكا الوسطى الستة بالتحرر من الاستعمار الأسبانى وذلك فى الأحقاب الأولى من القرن التاسع عشر ، وذلك كتأثير مباشر لموجة التحرر والشعارات التى رفعتها الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر .

وعلى الرغم من أن سيمون بوليفار قد ولد فى مدينة كراكاس عاصمة فينزويلا فى ٢٤ يوليو عام ١٧٨٣ ، وعلى الرغم من أن جذوره تمتد إلى منطقة الباسك التى تقع فى شمال أسبانيا ، وعلى الرغم من ثرائه الواسع ، فإن مسار حياته قد ولّد لديه الطاقة والتجهيز لمسلسل من النضال وصل إلى حد الحرب الداخلية التحريرية ضد كافة أشكال الاستبداد والرق الذى ساد مع سيطرة الاستعمار الأسبانى ، بحيث جعلت منه رمزا نادر المثال ، عششت قصة كفاحه وكأنها أسطورة فى ضمير شعوب ست دول اعتبرته «المحرر» واستمرت العواطف الجياشة تجاهه متوهجة متجددة أى لم تضمر أو تموت رغم مضى سنوات طويلة امتدت لنحو قرن ونصف من الزمان أى من عام ١٨٣٠ حتى ١٩٧٨ عندما رغبت دولة فينزويلا الثرية بالبترول فى أن تخلد اسمه عالميا ، فتقدمت بطلب إلى منظمة اليونسكو مقترحة أن ينشئ اليونسكو جائزة دولية تحمل اسمه واقترحت أن تمنح الجائزة مرة كل عامين لفرد (أو فردين على الأكثر) أو تمنح لمنظمة أهلية أى غير حكومية ، قامت بأعمال متميزة فى ذات الأهداف التى عاش وناضل من أجلها سيمون بوليفار مثل المساهمة فى إنهاء نزاع

أو حرب أهلية أو مصالحة داخلية أو إقلال القهر وزيادة فاعلية حقوق الإنسان أو غيرها .

ولقد وافق المجلس التنفيذى لمنظمة اليونسكو على اقتراح دولة فينزويلا عام ١٩٧٨ ، وقبل المنحة المالية المقدمة منها وشكل مجلس أمناء يستثمر هذا المبلغ ومن حصيلة استثماره يمنح الجائزة كل عامين ، ووضع لذلك لوائح وقواعد منظمة لإجراءات الترشيح ، والذى يتم من خلال كل دولة عضو فى المنظمة حيث من حق كل دولة عضو أن ترشح شخصا أو هيئة واحدة كل مرة يعلن فيها عن فتح الباب للترشيح لهذه الجائزة والتى أخذت صيتا عالميا ، وكان من نصيبى أن أكون أول من يحصل عليها كمصرى وكعربى .

ولقد جاء فى لائحة الجائزة أنها «تمنح لكل من ساهم فى حرية واستقلال وكرامة الشعوب كما عمل على تقوية وتضامن الدول ، وعلى تنمية وإنشاء نظام عالمى ودولى جديد يدعم العلاقات بين الشعوب فى القضايا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ويأخذ هذا النشاط شكل عمل إبداعى فكرى أو فنى ، أو إنجاز اجتماعى أو تعبئة الرأى العام ، وكل ذلك فى إطار القيم والمبادئ التى طرحها وعاش من أجلها سيمون بوليفار» .

أما الدول الست التى لا تعترف بغير سيمون بوليفار «محررا» فهى : فنزويلا - كولومبيا - إكوادور - بوليفيا - بنما - بيرو . ولذلك تفاصيل شيقة ، لاتتسع لها هذه المقدمة فالهدف منها هو الربط بين الأسباب التى منحت من أجلها الجائزة وحماس المؤلف والناشر لطرح طبعة جديدة لهذا الكتاب ، فقد جاء فى وثيقة الجائزة - ملخصا لما جاء فى تقرير وحيثيات لجنة التحكيم ما ترجمته : «أن الجائزة قد منحت اعترافا بدور الفائز (د . ميلاد حنا) بإسهاماته الفائقة القيمة فى تنمية وترقية مفاهيم التسامح وقبول الآخر فى مجتمع تعددى (للأديان) Pluralistic Society والعمل على تقوية أوصال المواطَنة الطيبة ، وكل ذلك فى إطار المحافظة على المثل والرسالة التى أرسى قواعدها سيمون بوليفار» وسيجد القارئ تفاصيل أخرى عن هذا الموضوع فى الفصل السابع الجديد .

□ □ □

إن كتابى هذا «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» هو ثمرة جهد فكرى عبر

سنوات طويلة ظلت تنمو تدريجيا ، وربما كانت الفكرة قد تشكلت فى لحظات الخلوة مع النفس خلال فترة الاعتقال فى سبتمبر ١٩٨١ إلى أن نشر لأول مرة كأحد كتب دار الهلال الشهرية ـ عدد يناير ١٩٨٩ (العدد رقم ٤٥٧ من سلسلة ـ كتاب الهلال) ولما نفد فى مدة وجيزة أعادت دار الهلال نشره كأحد إصدارتها فى طبعة ثانية بعد تنقيحها وزيادتها وتغيير قطعها وغلافها فى يناير ١٩٩٠ ثم طبعة ثالثة فى ديسمبر ١٩٩٢ واستمر الطلب على الكتاب مما دفع الدار لإصدار طبعة رابعة عام ١٩٩٧ كما قامت الهيئة العامة للكتاب بطبع ونشر طبعتين باللغة الإنجليزية عامى ١٩٩٤ ، ١٩٩٧ .

وتدور الفكرة المحورية ـ والتى يبدو أنها لاقت استحسانا على كل من الصعيد الوطنى والعربى والعالمى ـ على أن الهوية Identity أو الشخصية المصرية غنية بالانتماءات التى تراكمت لدى كل مصرى عبر الزمان وبتأثير المكان ، فعبر الزمان أى مع تتالى الأزمة من فجر التاريخ تأثر المصرى برقائق الحضارات المختلفة التى مرت عليها مصر ، ومن ثم فإن ما من مصرى إلا ويعتز بانتمائه إلى حضارة الفراعنة أى جدوده من المصريين القدماء والذين قدموا تراثا إنسانيا رائعا وعظيما وفريدا من نوعه ، فمن غير الممكن لأى مصرى ـ مهما كان اعتزازه بأى انتماء آخر ـ أن يتنكر لجذوره القديمة بل يعلن فى إصرار وقوة اعتزازه بأنه كفرد وإنسان من أحفاد وسلالة الفراعنة العظماء الذين شيدوا أول دولة وحكومة مركزية فى التاريخ وكان ذلك فى عصر الدولة العتيقة (٣١٠٠ ـ ٢٧٧٨ق .م) والتى تبدأ من الملك نارمر المعروف بالملك «مينا موحد القطرين» ومؤسس الأسرة الأولى أى بداية التاريخ المسجل المدون وتليها الأسرة الثانية ، ثم رقيقة أخرى بعدها وفى إطار العصر الفرعونى ولكنها أكثر شهرة وتعرف بعصر «الدولة القديمة» أو حقبة بناة الأهرامات ، وتمتد لنحو ٥٠٠ عام (من حوالى ٢٧٧٨ق .م إلى ٢٢٦٣ق .م) وتشمل الأسرات من الثالثة إلى السادسة ، وحيث تقف أهرامات كثيرة متباينة الشكل والحجم ، شامخة تتحدى الزمن ، من أهرامات الجيزة الثلاثة فى الشمال وهى أكثرها شهرة على مستوى العالم كله إلى هرم دهشور جنوبا على الجانب الغربى لمحافظة الجيزة مرورا بأكثرها قدما وهو هرم زوسر المدرج فى سقارة وقرب مدينة منف (قرب البدرشين) من أقدم وأشهر عواصم مصر الفرعونية .

وتتوالى عصور ورقائق الأسر المختلفة بتصنيفاتها ـ والتى سيتعرف عليها القارئ

تفصيلا - خلال دراسة للعمود الأول للشخصية المصرية وهو العمود الفرعونى ، حيث يزهو ويفخر به أى مصرى ولذا فإننى أعتبره الركيزة الثقافية أى «الأساسات» التى يقف عليها أى مصرى - كل مصرى - بصرف النظر عن انتمائه الدينى أو أى من الأعمدة السبعة الأخرى - وهذا هو أحد أسرار التماسك الوطنى الذى يعيشه شعب مصر حاليا فمن خلال هذه الأساسات «المتينة» والممتدة الجذور فى التاريخ استطاع شعب مصر - فى إطار خصوصيته الثقافية هذه - أن يقاوم كافة الأخطار والرياح والأعاصير التى تهب على المنطقة بل وتثير الحروب والكراهية فى مواقع كثيرة من العالم واستمرت مصر شعبا موحدا كالصخر ، وهو الشعار الذى عبرت به فى صدر الكتاب تحت لوحة بسيطة تعبر عن مصر وقد احتضنت بيديها ولديها المسلم والقبطى ، وهى لوحة مهداة من فنان مصر العظيم - أمد الله فى عمره - الفنان حسين بيكار ، فله منى كل الشكر .

□ □ □

ويسترسل الفصل الثالث فى طرح باقى الأحقاب والرقائق التاريخية التى تراكمت لدى مصر وتركت آثارها على الهوية أو التركيبة أو الشخصية المصرية فالرقيقة التى تلت الحقبة الفرعونية طويلة المدة لآلاف السنين عميقة الأثر على مصر وعلى كل العالم ، برقيقة أخرى قصيرة الزمن ولكنها تركت بصمتها التاريخية وهى الحقبة المسماه «اليونانية - الرومانية» وهى فى واقع الأمر حقبتين قصيرتين متداخلتين فى مرحلة انتقالية هامة ، تفصل بين المرحلة الفرعونية وصولا إلى حقبة الأديان السماوية أى المسيحية القبطية والإسلام المصرى .

ويؤرخ خبراء الآثار كبداية لهذه الحقبة بعام ٣٣٢ق .م وهى السنة التى دخل فيها الإسكندر الأكبر مصر وخلّص شعب مصر من حكم الفرس ، فبدأت الحقبة اليونانية والتى استمرت لنحو ٣٠٠ عام ثرية بحكم البطالمة المتعاقبين إلى أن حكمت مصر كليوباطرة وتم غزو مصر بواسطة أوكتافيوس الذى انتصر على أنطونيو عشيق كليوباطرة ، وكان الهزيمة فى موقعة أكتيوم عام ٣١ق .م وعندما انتهت الحقبة اليونانية وصارت مصر ولاية للدولة الرومانية القديمة لسنوات طويلة وهى الفترة التى تداخلت فيها الحقبة الرومانية مع الحقبة القبطية المسيحية ، ولذلك تفاصيل موضع جدل وحوار - وربما خلاف - بين المؤرخين ، ولكن المهم هو أن حقبة الحضارة اليونانية - الرومانية تركت بصمتها على تاريخ مصر وصارت بالفعل أحد أعمدتها الثقافية -

وربما اعتبرها «البعض» أضعف الأعمدة المصرية بمقاييس عصرنا الحالى ـ ولكن من منظور الرقائق الحضارية التى تأثرت بها مصر ، لايمكن إغفال تلك الحقبة الانتقالية الهامة ، وسيكون لمكتبة الإسكندرية التى يتم إنشاؤها حاليا على كورنيش البحر بالإسكندرية قرب حى سوتر ومحطة الرمل .

ويجىء بعدها العمود القبطى ـ وهو متداخل فى بدايته مع الحقبة اليونانية ـ الرومانية ـ كما سبق القول ـ ثم هو متداخل فى نهاية مع العمود أو الرقيقة العليا وهى الحقبة الإسلامية ، فمن المؤكد أن استمرار المسيحية القبطية حتى الآن ، يعطى الشرعية ـ الموضوعية والشكلية ـ للعمود القبطى ليكون متواجدا ومستمرا ومؤثرا فى التركيبة المصرية حتى الآن . وإن كان المؤرخون يفضلون أن ينتهى عصر الحقبة القبطية مع دخول العرب مصر عام ٦٤١م . وفى ذلك إجحاف علمى وثقافى ووجدانى ، ذلك أن غالبية مصر استمرت مسيحية عدة قرون بعد دخول العرب لمصر ، كما أن اللغة القبطية استمرت هى اللغة الشعبية السائدة فى مصر طوال القرن السابع والثامن ، ثم كانت مشاركة ـ فى الحياة اليومية ـ مع اللغة العربية طوال القرنين التاسع والعاشر إلى دخول الفاطميين مصر عام ٩٦٩م ، ولأن الفاطميين كانوا راغبين فى إنشاء خلافة شيعية فى مواجهة خلافة العباسيين السنية فى بغداد ، لذلك ـ عقب غزو الفاطميين ـ كان التحول السريع إلى الإسلام ، ثم كان تقهقر اللغة القبطية إلى الأديرة فى القرن الثانى عشر على يد البطريرك الرائد غبريال بن تريك ، وهى أمور سوف يتعرف القارئ على تفاصيلها من ثنايا القراءة .

ثم تجىء الرقيقة الرابعة والأخيرة وهى حقبة الحضارة الإسلامية ، وكما أن مصر قد ساهمت فى صياغة الفكر المسيحى فى العالم لأنها كانت من أوائل الدول والشعوب التى اعتنقت المسيحية فى القرن الأول الميلادى ، كذلك كان لمصر أسهاماتها فى الحضارة والفكر ـ وحتى الفقه ـ الإسلامى ، ليس فقط لأنها قبلت الفتح الإسلامى فى القرن الأول الهجرى ، ولكن لأنها أنشأت مع دخول الفاطميين فى القرن العاشر أول صرح فكرى إسلامى فى عصره وحتى الآن ، ومن ثم فإن مصر تتميز على باقى الدول الإسلامية ، بأن بها إسلاما واحدا يتميز بخصائص ثقافية فريدة فى الواقع اليومى المعاش فلا هو بالسنى المصفى ولا هو بالشيعى الزاعق ، فقد بدأ الإسلام فى مصر سنيا فى القرون الأولى للهجرة ، ثم صار شيعيا مع دخول الفاطميين فى القرن العاشر وأنشاءوا الجامع الأزهر نسبة إلى فاطمة

الزهراء ، وكان مركز فكر شيعى لنحو قرنين من الزمان ، وعندما دخل صلاح الدين مصر أمر بأن يتحول الجامع الأزهر لينشر الفكر السنى ، وهكذا احتوى الأزهر الإسلام فى مجمله دون تحيز أو تعصب ، فسماحته توفر الدراسة والفحص - بل والفقه - لكل المذاهب والاتجاهات . وهذه ظاهرة يلمسها كل منصف ، وهى أن التركيبة الشخصية للمسلم المصرى تختلف عن نظيره فى معظم الدول الإسلامية .

ومرت مصر برقائق جزيئة معاقبة فى إطار الحقبة الإسلامية ، فشاهدت عصر الخلفاء الراشدين فى البداية ولها مؤرخوها وأحداثها وقصصها ثم العصر الأموى حيث صار الإسلام خلافة وإمبراطورية معا ثم عصر العباسيين حيث الترجمة والفلسفة والعلم مع الشعر واللهو ، ثم تتالت العصور بما فيها الحروب الصليبية والتى انحاز فيها الأقباط إلى المسلمين فى مصر لأنهم رأوا فيها غزو «فرنجة» على الرغم من أنها تحتمى تحت راية الصليب الذى رفعته المسيحية الغربية الكاثوليكية ، ويحتاج الأمر إلى فحص أوسع مما جاء فى هذا الكتاب لنشرح الرقائق الجزئية للحقبة الإسلامية وصولا إلى الحقبة العثمانة التى سادت عدة قرون من القهر (الدينى وغير الدينى) والظلام (الحضارى على كافة صوره) فتركت بصماتها على الشخصية المصرية فى وقت دخلت فيه أوروبا عصر النهضة والتنوير والعلم وتداخلت الحقبة العثمانية مع فترة حكم محمد على وإسماعيل إلى أن انتهت الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤ وأعلن مصطفى كمال أتاتورك أن تركيا قد صارت دولة علمانية وأعلن انتهاء حكم الدولة العثمانية على أساس دينى . ولكن الآثار الثقافية لحقبة العثمانيين لازالت متغلغلة فى وجدان المصرى حتى الآن ، ويخف تأثيرها تدريجيا مع الزمن .

على أن أهم ما يبرزه هذا الكتاب هو أن هذه الرقائق من الحضارات الأربعة ، متصلة ومتداخلة ، كما أنها رقائق شفافة غير معتمة ، تركت بصماتها على الهوية المصرية وأعطت للشخصية المصرية هذه النكهة الخاصة بل هذا التفرد غير المتكرر والذى وفر للمصرى السماحة وقبول الآخر باستمرار المسيحية القبطية متعايشة حتى الآن مع الإسلام المصرى .

□□□

أعود إلى طرح الأعمدة الثلاثة الباقية - كما جاءت فى الفصل الرابع والتى أثرت فى الهوية المصرية المعاصرة بحكم الجغرافيا أى المكان ، وسيجد القارئ

تداخلا بينها وبين الأعمدة الأربعة التاريخية ، فالانتماء إلى العمود الثانى وهو اليونانى - الرومانى يتداخل مع الانتماء الجغرافى إلى حضارة البحر المتوسط وهو العمود السادس كما فى الفصل الرابع كما وأن الانتماء إلى الحضارة الإسلامية وهو العمود الرابع التاريخى كما فى الفصل الثالث يتداخل ومرتبط بالعمود الخامس وهو الانتماء جغرافيا إلى العالم العربى (فصل ٤) وهذا الأمر الأخير محل خلاف ، عند مناقشة انتماءات مصر إلى جيرانها ، فالعرب ليس كلهم مسلمين ، كما أن الدول الإسلامية تعنى كيانا واسعا فضفاضا لاتحتل فيه مصر موقع الصدارة فهناك منافسون أشداء فى إيران وتركيا - وحتى أندونيسيا - بينما مجمل الدول العربية مسلمة التوجه الثقافى (على الرغم من وجود مجمعات مسيحية بمذاهب وملل مختلفة ، ولكى كلها مؤمنة بقيادة وزعامة مصر .

وتستكمل الأعمدة السبعة بالانتماء الأفريقى لمصر ، وهو أمر يخص العلاقة الخاصة بين مصر والسودان ولذلك حديث طويل آخر .

□ □ □

إن الغرض الرئيسى من الكتاب ليس فقط هو عرض الأوجه الأساسية لانتماءات المصرى التاريخية والجغرافية ، بقدر ما هو تحليل للتركيبة الثقافية للمصرى فى العصور الحديثة ، وكيف أنه متأثر بتاريخه وموقعه ، ومن ثم فالكتاب لايتعرض بشكل مباشر لـ «صراع الحضارات» ، لأنه قد كتب قبل أن يتفكك الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩١ ، وقبل أن يسجل صموئيل هانجتون رؤيته الخاصة بـ«صراع الحضارات» ، التى نشرت لأول مرة فى مجلة «فورن أفيرز» فى صيف عام ١٩٩٣ ، ولكن يبدو أننى كنت مستلهما أو متوقعا أن يدخل العالم عصر «الحروب الأهلية» بسبب اختلاف السلالات أو الأديان أو المذاهب ، وتصادف أن بادرت بكتابة هذا المؤلف والذى تعرض لقضية الهوية فى مصر واشتهر بعنوانه «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» وكان ذلك فى بدارى الوقت - فى أواخر الثمانينيات - مما جعله - على نطاق ثقافى غير مباشر - يساهم فى أن تتجنب مصر رياح «الطائفية» التى اجتاحت دولا مجاورة أخرى ، وربما كان ذلك فى الاعتبار عند منحى جائزة سيمون بوليفار وسيلاحظ القارئ أن الفصل الثانى من الكتاب جاء بعنوان «لن تتلبنن مصر» فقد سادت لبنان الشقيق حربا أهلية ضروس من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٩٢ ، ولذا فقد كان تخوفى أن تمتد «نار» الطائفية لمصر .

خصوصا وقد شاهدت مصر أحداثا «طائفية» بدأت بحريق كنيسة الخانكة فى شمال القاهرة فى نوفمبر ١٩٧٢ ، وتصاعدت أحداث أخرى كثيرة طوال حقبة حكم الرئيس السادات ، وكانت الذروة فى صراع دموى غير مسبوق فى حى الزاوية الحمراء قرب منطقة شبرا بالقاهرة وحيث تجمعات كبيرة من الأقباط والمسلمين ، وكان ذلك فى يونيو ١٩٨١ ، وتصاعدت المشاعر الغاضبة فى هذه الأحياء الشعبية المتجاورة ، وكان من الممكن أن يحدث ما لاتحمد عقباه ، مما اضطر السادات إلى اعتقال نحو ١٥٠٠ شخص من جميع ألوان الطيف السياسى وجميع الأديان والملل فى سبتمبر ١٩٨١ ، ووصلت قمة المأساة إلى اغتيال السادات ذاته فى يوم عرسه ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، وكتبت بعد ذلك مقالات بعنوان «أخذ الشر معه وراح» .

وتتالت الأحداث طوال حقبة الثمانينيات والتسعينيات ، وكان آخرها واقعة تافهة سازجة تصل إلى حد «العبط» أو الغباء ، فى قرية بسيطة اسمها الكُشح بمحافظة سوهاج قرب مدينة البلينا ، عندما وجد قبطيان مقتولان يوم ١٤ أغسطس عام ١٩٩٨ ، كان من الممكن أن تقيد الجريمة ضد مجهول ، أو يتم التحقيق فيها مثل أى واقعة قتل عادية لأنه بالفعل لا علاقة لها بالصراع الطائفى ، ولكن تعامل الشرطة بريبة وخوف وتعتيم لتحاشى الفتنة ، وتوهمهم بأن القاتل لابد أن يكون أيضا قبطيا ، فقد أوقعهم هذا الوهم أو الافتراض فى خطأ أكبر وهو الحصول على اعترافات (للأقباط والمسلمين) من خلال «التعذيب» ، فكان أن تضخم الحادث وصار له دوى عالمى ، أوصلها إلى أزمة سياسية بين الكونجرس وجمعيات حقوق الإنسان عالميا ومصريا من جانب وبين السلطات المصرية من جانب آخر فوقعت الحكومة فى حرج إعلامى عالمى ، جعلها تدافع عن نفسها بإنكار «التعذيب» أصلا على الرغم من قرار «تحريك» بعض ضباط الأمن ، فأوجد ذلك بلبلة استغلها من لايودون الخير لمصر وللنظام ، مما فرض علينا أن نفتح مرة أخرى ـ الملف الثقافى للخصوصية المصرية ، فلم تعد نظريات «الأعمدة السبعة» وحدها كافية لمعالجة وتجاوز الأزمات التى ستأتى فى المستقبل .

ومن هنا كان اهتمامى ، عقب حصولى على جائزة سيمون بوليفار ، أن أتعمق فى دراسة أسباب هذه المودة التاريخية بين الأقباط والمسلمين ، ذلك أن الشعارات التى طرحتها ثورة عام ١٩١٩ من أن «الدين لله والوطن للجميع» وهتفوا جميعا ـ وقتها ـ «عاش الهلال مع الصليب» ولم يعد كافية لضمان عدم تكرار الأحداث ، كما لم تعد الآلية الحالية التى تعالج المصادمات عندما تحدث ، قادرة أو متفهمة طرق معالجة

الأزمات ، بل لعلها ـ فى الواقعة الأخيرة الخاصة بقرية الكشح ـ قد ثبت أنها السبب فى تفاقم الوضع ، وحولته من واقعة جناية عادية لا علاقة لها بأى فتنة طائفية ، لأن تصبح حدثا اوضع الدولة فى حرج ، أمكن معالجته بصعوبة شديدة ، مما يستلزم النظر فى إنشاء آلية جديدة «حكومية ـ أهلية» كأن تنشأ إدارة فى «الرئاسة» ، مكونة من شخصيات سياسية وثقافية لها مصداقيتها ، تدير الأزمة بحنكة سياسية ثقافية مجتمعة ، ولها أن تستعين بأجهزة الأمن أو المؤسسات الدينية لتكون مداخلها للمعلومات وتقصى الحقائق ، كما يمكن لهذه الآلية أن تقترح ـ إذا رأت ظواهر متكررة لأسباب مختلفة ـ تشريعات أو قرارات تؤدى إلى تطور المجتمع وتقدمه فى الاتجاه المتحضر الذى يمنع أو يقلل أسباب التوتر ، ذلك أن النموذج المصرى فى المعايشة بين المسيحية القبطية (أى المصرية) والإسلام المصرى السمح ، ينبغى الحرص عليه والعمل على دعمه واستقراره ، وهو أمر لن يتم الإجراءات الأمنية وحدها ، وإنما بتوجهات ثقافية تساعد على استمرار الوجدان المصرى الذى ابتكر قواعد هذه الوحدة الوطنية ، ولدى أغلبية شعب مصر كل الاستعداد والرغبة لاستمرار المحافظة عليها .

□ □ □

فى هذا الإطار ، ولأن المطبعة تدور كى تكون هذه الطبعة الخامسة جاهزة للقراء مع مقدم معرض الكتاب القادم فى أواخر يناير ١٩٩٩ فقد رغبت فى أن أضيف فصلا جديد فى آخر هذا الكتاب (فصل ٦) بعنوان « مخاطرضمورالخصوصية الثقافية القبطية توسيع الأرضية المشتركة وطنيا» ، فضلاً عن الفصلين ٧ ، ٨ حيث طرحت فيهما معلومات وصور حول سيمون بوليفار والجائزة الدولية التى تحمل اسمه فقد كان حصولى عليها عام ١٩٩٨ كأول مصرى وعربى يحصل على هذه الجائزة رفيعة المستوى مناسبة لأن يتعرف عليها المثقف المصرى ، لكى تلحق بالشهرة والأهمية التى تتمتع بها جائزة نوبل .

لعل فى ذلك إضافة للنص القديم الذى لم يتغير كثيرا منذ صدور الطبعة الثانية عام ١٩٩٢ فلازالت فكرة «الأعمدة السبعة» بثراء الانتماءات للمصرى ، وتداخل الانتماء القبطى مع الانتماء الإسلامى على أرضية فرعونية مشتركة هى الركيزة الأساسية للمحافظة على نموذج «قبول الآخر» ، وهو أمر وجد ترحيبا مصريا وعالميا ، وكان أحد الأسباب التى منحت بسببها جائزة سيمون بوليفار .

ميلاد حنا

الغردقة أول يناير ١٩٩٩

الفصل الأول

مصر
رقائق من الحضارات

- فى السويد عرفت أن مصر رقائق من الحضارات .
- فى الصين لغة واحدة وديانة واحدة عبر ستة آلاف سنة .
- هل توجد علاقة بين الفراعنة وحضارة الصين القديمة؟
- مصر غيرت الدين واللغة ثلاث مرات .
- مصر تتحول إلى العربية والإسلام خلال قرون .
- السود فى أمريكا يزعمون أنهم صناع حضارة الفراعنة!

١

مصر رقائق من الحضارات

منذ أكثر من عشر سنوات ، كنت فى زيارة شبه رسمية إلى السويد كرئيس لجمعية الصداقة المصرية السويدية ، وبدعوة من الجمعية الشقيقة المقابلة فى أستكهولم .

وفى اجتماع ودى للجمعيتين تبادلنا الكلمات توطيداً للصداقة بين البلدين ، فوجدتها فرصة جيدة لأن أبدى إعجابى بما قامت به بلدية أستكهولم ، عندما قررت أن تخصص إحدى جزرها (واسمها أسكانسن) لكى تكون فى جملتها تصويراً ومتحفاً حياً ومفتوحاً ، يصور نمط الحياة فى السويد في القرن التاسع عشر وما قبلها بقليل ، وخصصوا لذلك اعتمادات مالية وكونوا لجاناً فنية متخصصة طافت أنحاء البلاد لكى تشترى وتجمع ما تبقى من مبان خشبية قابلة للنقل وتصلح لأن تُجمع وتُنسق بعضها بجوار بعض ، بحيث تتصور بالفعل وأنت تجوبها وكأنك قد انتقلت إلى قرن مضى وتعيش حياتك داخل قرية سويدية تقليدية .

سوف تلمس بنفسك الشوارع الضيقة ، وكيف أن أرضيتها مرصوفة بالبلاط من كتل البازلت لكى يقاوم حوافر الخيل والإطارات الحديدية لعجلات المركبات المحملة بالمحاصيل الزراعية ، وكيف أن هذه الأزقة مضاءة بمصابيح الغاز ، وتذكرت المصابيح التى كانت تضىء القاهرة وأزقتها قبل الحرب العالمية الثانية وكيف كان هناك رجل يجرى حاملاً قصبة فى نهايتها لهب ويوقد مصابيح الغاز واحداً واحداً .

ويستوقفنى بيت العمدة (عمدة القرية السويدية) فإذا به متسع وجميل وقد زود بقطع من الأثاث الكلاسيك تشبه ما فى بيوت العائلات العريقة من الأثرياء المصريين ، وهى قطع أثاث جمعت بالفعل من صالونات لعمد وأثرياء فى السويد قبل أن يتحولوا إلى الأثاث البسيط من «الخشب السويدى» غير المدهون الذى انتشر فى العالم أجمع الآن لبساطته وجماله . .

وقامت إدارة الجزيرة بتوفير مبالغ مناسبة لشراء ونقل مُجمع ريفى قديم بكل ما يحتوى من بيوت كان يسكنها الفلاحون ، فاذا بى أتعرف على أن وسيلة التدفئة المتاحة والوحيدة فى ذلك الحين كانت من خلال المدفأة الوحيدة فى البيت حيث

يحترق الخشب أو الفحم ليل نهار ، ليس فقط للطهى وإنما لإشاعة الدفء فى أغلب أجزاء البيت من خلال مواسير تأخذ الهواء الدافئ من المدفأة الوحيدة إلى غرفة المعيشة ثم غرفة النوم ، وإلا تجمد الساكنون فى برودة السويد القاسية ، وأتصور أن الجيل الجديد من شباب السويد سيقارن بين ذلك وبين التدفئة المركزية بالبخار والتى تتم من خلال الغلايات المركزية فى وسط كل قرية لتدفئة الأرصفة وكل حجرة فى القرية أو المدينة من خلال مواسير خاصة .

وهناك الوسائل البدائية المستخدمة فى الزراعة لحرث الأرض وجمع المحاصيل وهى فى جملتها لا تختلف كثيراً عما يستخدمه الفلاح المصرى منذ قرون .

وفى سوق القرية كان هناك جملة حوانيت وورش لحرف مختلفة من نجّار وحداد وصباغ وغيرها حيث السكن والعمل فى مكان واحد وبنفس الأدوات التى كانت مستخدمة فى الماضى .

وكان طابور الزائرين طويلاً ، وبالذات الشباب والأطفال لمشاهدة بيت وفرن الحرفى الذى يشكل الزجاج ، بأن يأخذ قطعة صغيرة من الزجاج المنصهر ويضعها بمهارة على طرف ماسورة خاصة ، ويظل ينفخ ويلعب بالماسورة إلى أعلى وأسفل كما يلعب عازف الكمان حتى يشكلها وفق ما يهوى ، فمرة يشكلها لتكون قنينة للروائح ومرة أخرى تكون «زهرية» لتنسيق الزهور ، ومرة ثالثة يصنع منها تمثالاً .

على أى حال ، أنهيت كلمتى بإبداء إعجابى بفكرة إنشاء المتحف المفتوح لجزيرة أسكانسن والذى ينقل رسالة هامة هادئة إلى أطفال وشباب السويد الذين يعيشون هذا المستوى العالى من المعيشة ويتمتعون بكل منجزات العصر والتكنولوجيا الحديثة ، ثم يجىء متحف أسكانسن لكى يصور لهم المعاناة التى عاشها جدودهم فى البرد والصقيع حتى تصل إليهم هذه الحضارة التى تتقدم يوماً بعد يوم .

قام رئيس الجمعية المقابل لى برفسور تورجنى سيف ـ سيدر بيرى* Prof. Torgny Säve-Söelerbergh ، ورغب فى أن يرد التحية بأبلغ منها وقد كنت أعلم أنه أستاذ الآثار المصرية القديمة فى جامعة «أوبسالا» الشهيرة والعريقة وخطب فى رشاقة قائلاً :

إذا كُنتَ تمتدح تصرفنا لأننا نبرز لأولادنا تراث السويد فى القرن التاسع عشر ،

(*) هذا الأستاذ العظيم كرسه حياته لعلوم المصريات والنوبيات وساهم خلال الستينات فى إنقاذ آثار بلاد النوبة واشترك مع الشركة السويدية فى نقل أجمل معابد مصر فى مدينة أبو سمبل ، ويشهد بذلك د . ثروت عكاشة وزير الثقافة وقتها . وقد توفى فى ٢١ مايو ١٩٩٨ عن عمر يناهز ٨٣ عاماً وكتبت عنه فى الأهرام والأهرام ويكلى .

فإننى أشعر بالعجز والقصور عندما أقارن تاريخ وحضارة مصر بتاريخ وحضارة السويد ، فبلادنا لا يزيد تاريخها المدوّن والمعروف على نحو ألف عام ، وكان ذلك عندما غزا «الفايكنج» السويد لكى يأخذوا منها ومن روسيا الفراء ويصطادوا بعض العبيد لكى يُباعوا فى أسواق روما وبيزنطة وبلدان الشرق الأوسط .

أما مصر - وقد تجولت فيها كثيرا - فهى بحق متحف العالم وأقدم حضارة مدونة عرفتها البشرية ونعتبرها هنا متحف العالم كله ، لأنها تكون بالفعل سلسلة من الرقائق الحضارية بعضها فوق بعض Layer sof Civilisations on top of each other

لقد زرت مدن الأقصر وتل العمارنة ومنف وسقارة ودندرة وكوم أمبو وإدفو وغيرها ورأيت هذا الكم الهائل من الآثار والذى لا يوجد له مثيل فى أى بلد آخر ، فهذه تراكمات آلاف السنين لحضارة الفراعنة وما بعدها فى الحقبة اليونانية - الرومانية ، ثم زرت بعض الأديرة فى وادى النطرون وزرت الكنيسة المعلقة والمتحف القبطى فى منطقة مصر القديمة بالقاهرة ، وأعرف فضل مصر على المسيحية وكيف أن بعض الرهبان من مصر قد وصلوا إلى سويسرا وإلى فنلندا ، وأخيرا أراكم تعيشون مع الآثار الإسلامية الآن فى القاهرة الفاطمية ، فهناك جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون والأزهر والغورية والمتحف الإسلامى .

وختم كلمته ملخصا :

«إننى - وبنوع من الخيال - أتصور أن القاهرة ستتحول فى القرن القادم - مثلما أصبحت أسكانسن متحفاً مرموقاً - لكى تصبح متحفاً عالمياً يجد فيه الزائرون كل رقائق الحضارات المتعاقبة من الفرعونية إلى مصر الحديثة » .

حُفرت هذه العبارات فى وجدانى واختزنتها فى عقلى وقلبى ، وظللت بعدها لا أملُّ عن أن أردد عبارة «أن مصر رقائق من الحضارات»

حفزنى ذلك على قراءة كتب التاريخ حتى أتعرف - أنا المصرى - على تفاصيل ما يعرفه الأجانب من هذه الرقائق المتتالية من الحضارة والتاريخ والفن ، غير أن ما كان يشغلنى ليس التاريخ والماضى ولكن المستقبل - لأهلى وبلادى ولذا كنت أتأمل أثر هذه الرقائق من الحضارات على التركيبة النفسية وشخصية المصرى المعاصر ، وكيف أنه وإن بدا أميًا أو بملابس رقيقة الحال ، ولكنه يحمل بين ضلوعه وعلى كتفيه هذه الآلاف من السنين .

هذه واقعة . . أما الواقعية الثانية فكانت فى الصين .

فى عام ١٩٨٥ - وعندما كنت رئيساً للجنة الإسكان فى مجلس الشعب - دعيت فى زيارة رسمية لكل من اليابان والصين ، وكان هدفى الرئيسى - غير المعلن- هو التعرف عن قرب على الشخصية الصينية واليابانية ، فقد تعرفت على بعض منهم فى مصر ورغبت فى أن أرى المنبع : الفكر- الثقافة - الديانة - القيم - التركيبة الإنسانية والاجتماعية - وذلك لأننا فى مصر نقرأ الأوروبى والأمريكى كالكتاب المفتوح ، وذلك لأن أوروبا قد أخذت من حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط ومن دياناته الثلاث : اليهودية والمسيحية والإسلام ، ثم أخذت أمريكا عن أوروبا التراث والحضارة والتركيبة الإنسانية واللغة . ولذلك عندما نتكلم مع الأوربيين والأمريكيين نشعر بالتجاوب لأن مفاتيح الشخصية الأوروبية مفهومة أو مفتوحة حضاريا على مفاتيح الشخصية المصرية ، وإذا اضطرتنا الظروف - لصعوبة معرفة اللغة - أن نتفاهم بالإشارة أو ما يسمونه «لغة العيون» فإن المعنى والمقصود يصل على أى حال وإن كان ببعض الصعوبة .

عندما ذهبت إلى اليابان انبهرت بالإنجازات التكنولوجية والعمرانية التى شاهدتها وتصورت أنها ستتجاوز أوروبا وأمريكا قريبا ، ولكن ظل السر كامنا فى أن الشخصية اليابانية لا تلهث وراء محاكاة الشخصية الأوروبية أو الأمريكية ، وربما كانت تحمل لكل من أمريكا أو أوروبا بعض الحقد أو الغيرة أو العداء ، وكان واضحا أن الديانتين «البوذية» و «الشنتو» قد ساهمتا ضمن عوامل أخرى فى تكوين الشخصية اليابانية المنضبطة والملتزمة والصبورة ، والتى تعمل فى صمت وتماسك وولاء للعمل الذى يصل إلى حد العبادة وفى الرغبة فى تحويل هذه الأرض إلى جنة ، ولذلك فهم يؤمنون بتناسخ الأرواح بديلاً عن الخلود بعد الموت .

عبرت إلى الصين ، فإذا بى فى عالم آخر مختلف وأدركت فورا أنه مثل مصرنا جزء من العالم الثالث ، وأن الشخصية الصينية لديها - مثل الشخصية المصرية - عقدت الكبرياء لأنهم يدركون أنهم أقدم حضارة فى الشرق الأقصى ولهم تأثيرهم فيها حضاريا وسياسيا وثقافيا ، ولهم بصمات بدرجات متفاوتة فى كل بلدان المنطقة من اليابان شمالاً إلى تايلاند وكمبوتشيا جنوباً ، ولكن لديهم أيضا عقدة

النقص مثلنا لأنهم يعرفون أن أمامهم شوطا كبيرا لرفع مستوى المعيشة ، وبالكاد حققوا الغذاء والتعليم للجميع ، والآن يودون تحقيق مسكن صحى مستقل لكل أسرة ، ولن يحققوا ذلك قبل عشرين عاما .

دعونى لزيارة مقابر عائلة أو أسرة مينج Ming Dynasty (١٤٠٩ - ١٦٤٤ م) والتى كانت تحكم الصين فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ، وتقع هذه المجموعة من المقابر على بعد خمسين كيلو مترا فى اتجاه الشمال الغربى من العاصمة بكين ويسمونها «مقبرة الـ ١٣ إمبراطورا» ، وعندما نزلت إلى المقبرة ذاتها ، وجدت نفسى أربط بينها وبين مجموعة مقابر الملوك بالبر الغربى بمدينة الأقصر ، وكيف أن كلا منهما منحوت فى قلب الجبل واستغرق نحتها عشرات السنين وكان منظر الحجرة الجنائزية والتابوت من الحجر متماثلا فى مصر والصين إلى حد كبير . على أن ما شد نظرى - وذكرت ذلك فورا لمرافقتى - كيف أن لدينا فى مصر ما يسمى «طريق الكباش» بين معبد الأقصر ومعبد الكرنك فى البر الشرقى ، فإذا بى أجد طريقا مماثلا من البوابة الرئيسية يوصل إلى مقابر أسرة مينج ، حيث أنشأوا على جانبى الطريق تماثيل لبعض الحيوانات المشهورة لديهم مثل الجمل والفيل والزرافة وغيرها .

ولذلك لم أستطع أن أمنع خيالى ، منذ رحلة العودة من هذه المقابر الصينية وإلى الآن ، من أن أربط بين تاريخ الصين وتاريخ مصر ، وكثيرا ما كنت أجرى حوارات مع الرفيق تشنج المستشار الثقافى السابق للسفارة بالقاهرة ، حول حتمية وجود علاقة ما بين حضارة مصر وحضارة الصين ، وفى تقديرى - أو بمعنى أدق - فى تخمينى - فإن أسرة مينج لابد وأن تكون قد سمعت عن مقابر المصريين القدماء و «طريق الكباش» . . وهذا - على أى حال - مجال بحث أكاديمى لم أسمع أنه اقتحم حتى الآن ، لا من علماء التاريخ فى الصين ولا من علماء التاريخ فى مصر ، للتعرف عليه واكتشاف وجود علاقة أو روابط بين الصين ومصر عبر الزمان .

وكنت أُدعى إلى ولائم العشاء الشهيرة حيث تقدم عشرات من الأطباق الصينية الصغيرة المعتادة وكلها مأكولات - أغلبها من السمك - مقطعة إلى أحجام صغيرة تناسب التعامل بها ومعها بعودين رفيعين خاصين من الخشب وكأنهما الشوكة إذ تحتضنها من الجانبين فى رشاقة تحتاج إلى مران وتعود لتصل من الطبق إلى الفم مباشرة - وخلال الوقت الطويل الممتد للمأدبة ، يكون السمر والحديث ،

وغالبا مايكون لديك الوقت للتفكير أثناء الترجمة من الصينية إلى العربية وبالعكس ، ولم أجد أفضل من أن أعبر عن وجدانى فيما يتعلق بكل من حضارتى مصر والصين وكيف أنهما من أقدم الحضارات الزراعية المعروفة والمدونة على ظهر البسيطة ، وإن كان هناك اتفاق على أن حضارة مصر أقدم وأكثر أثرا وآثارا ! .

ومن خلال الحوار مع المضيفين ، أدركت أن الحضارة المصرية تختلف عن حضارة الصين من حيث أن حضارة الصين وقد امتدت لآلاف السنين محتفظة بنفس اللغة والعقيدة الدينية والتى ترتكز على كل من «البوذية» وتعاليم «كنفوشيوس» ؛ فاللغة الصينية قد احتفظت نطقاً وكتابة بذات اللغة القديمة التى بدأت منذ نحو ستة آلاف سنة ، وهى تعتمد على الأشكال Characters وليس على أبجدية ، ويحتوى القاموس الصينى على نحو أربعين ألف شكل ، وكل منها يعبر وحده عن كلمة قائمة بذاتها ، ومن بين كل ذلك يوجد نحو خمسة آلاف شكل هى أكثرها شيوعا واستخداما وهى التى تكون التعامل بالكتابة إلى الآن .

وعلى ذلك فالصين رقيقة واحدة سميكة من الحضارة بنفس اللغة ونفس الدين عبر آلاف السنين هى عمر حضارة الصين بكل ما تشمل من سنوات الازدهار والاضمحلال ، وعلى هذا فالخلاف بين مصر والصين هو أن لدى الصين رقيقة واحدة ضخمة من الحضارة المتصلة بينما مصر لديها رقائق حضارية مختلفة ومتباينة ولكنها أيضا مستمرة ومتصلة وهى التى كونت فى تتاليها الشخصية المصرية الحالية كما نعرفها .

□ □ □

وقد أدى ذلك التاريخ الطويل إلى أن مصر قد غيرت لغتها وديانتها ثلاث مرات عبر التاريخ المدون .

كانت عقيدتنا الدينية مبنية على أساطير قدماء المصريين والتى جعلت الحياة بعد الموت على نمط العالم الأرضى ، ويستعد لذلك بالطعام وبمتاع هذا العالم كما كانوا يعرفونه فى ذلك الوقت ، ويعمل على أن يحفظ الجسد من العطب بالتحنيط لأنه الجسد الذى سيعيش به بعد البعث ، وكونوا «المؤسسة الدينية» من كهنة الإله آمون أو سواه لكى تكرس أسطورة أن «فرعون» هو ممثل الأله على الأرض .

وينقسم المجتمع إلى فئات حاكمة هى : الملك فرعون والأمراء الذين يحكمون

الأقاليم ومعهم الكهنة الذين يكونون «المؤسسة الدينية» ويحافظون على تراث الأساطير ، وتتوفر لهم المعرفة والحكمة والعلوم والفنون وأدوات الكتابة وحفظ المعلومات وغيرها ، ثم هناك الشعب على الجانب الآخر ، يزرع ويبنى ويعمر ويدفع خطر الفيضانات ويؤمن بالأساطير والآلهة .

ومن خلال كل ذلك تكونت حضارة هائلة امتدت من الملك مينا (عام ٣١٠٠ ق . م) إلى أن دخل الإسكندر مصر عام ٣٣٢ ق . م هى حقبة طويلة غنية بالأحداث والآثار والمراحل المختلفة ، وكانت لغة المصريين القدماء هى اللغة المصرية القديمة ، ولكنها تكتب بأشكال ثلاثة هى : الهيروغليفية برموزها المشهورة وتعنى اللغة المقدسة والتى تحولت إلى أبجدية فيما بعد ثم أمكن تبسيطها للكتابة فظهرت الهيراطيقية كأسلوب كتابة أبسط بدلاً من الهيروغليفية ويستخدمها الحكماء والكهنة ، وأخيراً وفى نحو عام ٦٥٠ق .م . ابتكروا طريقة كتابة أخرى أكثر يسراً وهى لغة الشعب وأسماها اليونانيون لذلك بالديموطيقية وهى أسلوب الكتابة المتعارف عليه فى التعاملات والعقود والخطابات وغير ذلك وظلت الديموطيقية حتى عام ٣٥٠ م .

ومع دخول الإسكندر دخلت معه مصر فى مرحلة جديدة كانت فى أولها مرتبطة باليونان ثم تحول ارتباطها بعد ذلك إلى الرومان ومن ثم تسمى بالمرحلة «اليونانية– الرومانية» . كانت اللغة اليونانية قد فرضت نفسها لتكون لغة الدولة والمكاتبات الرسمية ولذلك حاول بعض المصريين تعلمها ليحتفظوا بالوظائف الحكومية أما عامة الشعب فقد استمروا فى استخدام الكتابة بالديموطيقية وهكذا تحول المصريون تدريجياً إلى اللغة القبطية بأن كتبوا اللغة المصرية القديمة كما ينطقونها ، بحروف يونانية ، ولما لم تسعفهم الأبجدية اليونانية وحدها استعاروا من الكتابة الديموطيقية سبعة حروف لكى يتمكنوا من كتابة ونطق لغتهم المصرية كما يبغون . ومن الطبيعى أن تتأثر اللغة القبطية بكثير من ألفاظ ومعان موجودة فى اللغة اليونانية .

وقد تصادف بعد دخول الإسكندر مصر بنحو ثلاثة قرون ونصف أن دخلت المسيحية مصر فى عهدها الأول وسارع المصريون للإيمان بها ليتخلصوا من الاحتلال اليونانى ومن بعده الرومانى إذ كانوا موضع اضطهاد شديد من أجل عقيدتهم الجديدة حتى استشهد منهم كثيرون فغيروا التقويم المصرى القديم وبدأوا

به تقويما جديدا أسموه «تقويم الشهداء» أو «التقويم القبطى» فبدأت بذلك حقبة حضارية جديدة هى العصر القبطى والذى يتسم بتغيير الدين إلى المسيحية وتغيير اللغة إلى القبطية وكان له طابع مميز من الفن والأدب والفكر والحضارة والعلاقات الإنسانية والقيم .

وفى القرن السابع دخل العرب إلى مصر فى ظروف خاصة غير متكررة ، إذ لم يتم الغزو بحد السيف ، بل رحب المصريون بالعرب كجزء من الخلاص فى «عهد الاضطهاد العظيم» والذى كان قد سنه «هرقل» إمبراطور الرومان لإخضاع المصريين لعقيدة ومذهب مسيحى يختلف عن المذهب الأرثوذكسى الذى تمسكوا وناضلوا فى سبيل الاحتفاظ به .

وأخذ تحول المصريين من اللغة القبطية إلى اللغة العربية عدة قرون ، لأن المصريين جميعا كانت لهم عبر العصور المختلفة لغة واحدة وعقيدة واحدة ، وأخذ المصريون لكى يتحول غالبية منهم إلى الإسلام خمسة أو ستة قرون ، ولكن ظلت فى مصر - ولأسباب وظروف مختلفة - أقلية آثرت البقاء على ديانتها المسيحية ، واستمرت الديانتان معا إلى الآن وبأغلبية إسلامية وأقلية مسيحية ولكن بشعب واحد له نفس التركيبة الأنثروبولوجية ونفس مقاسات الجمجمة ونفس الثقافة والحضارة وذات اللغة واللهجة .

وهكذا تكون مصر قد تراكمت لديها الرقيقة الرابعة والأخيرة حيث غيرت لغتها إلى العربية وغيرت ديانة أغلبها إلى الإسلام .

□ □ □

وإذا كان لدى مصر هذه الرقائق الأربع من حضارات مستمرة ومتصلة ومتتالية ، فإن لمصر أيضا بحكم موقعها الجغرافى ميزات أخرى أثرت فى الشخصية المصرية ، لعل أهمها هو انتماء مصر إلى العالم العربى لأن مصر بدون العرب تتحول إلى دولة من الدرجة الثالثة أو الرابعة ، كما تأكد أن العرب متفرقون وليس لهم «خربوش» بدون مصر ولذا فإن فاعلية وانتماء مصر إلى العالم العربى قدر ومصير . .

وانتماء مصر الجغرافى إلى مجموعة دول حوض البحر الأبيض المتوسط ، ليست مسألة تاريخية فحسب منذ الحقبة اليونانية - الرومانية ، ولكنها صلة ممتدة ومستمرة إلى الآن . وهناك مفكرون كثيرون يعتزون بهذا الانتماء ويغذونه ويرون فيه

«نهضة مصر» من أمثال رفاعة الطهطاوى وأحمد لطفى السيد وطه حسين ، ولكن الخطأ التاريخى يكمن فى أن يوضع هذا الانتماء كبديل وفى مواجهة الانتماء العربى ، والفكرة المحورية فى هذا الكتاب تكمن فى تكامل هذا الانتماءات فى سيمفونية واحدة .

وأخيرا وليس آخرا يأتى العمود السابع وهو انتماء مصر إلى أفريقيا والذى أراه ليس فقط انتماءً جغرافيا ، ولكنه بالنسبة لمصر هو أحد السبل لحل مشاكل مصر فى المستقبل وبالذات فى كل ما يتعلق بالانفجار السكانى والنمو الاقتصادى ، إذ إن السوق العربية للعمالة المصرية فى سبيلها الى التشبع ، ولكن تحويل نظام التعليم فى مصر ليؤهل المهنيين والعمال للعمل فى أفريقيا هو المخرج فى القرن القادم .

□ □ □

إن اعتقادى هو أن هذه الانتماءات أو الأعمدة السبعة داخلة فى التركيبة الإنسانية لكل مصرى ، ولكنها - منطقيا وطبيعيا - ليست أعمدة متساوية فى الطول والقطر والمتانة ، وإن إحساس المصرى بهذه الانتماءات يختلف من شخص إلى آخر ، بل يختلف داخل نفس الفرد من مرحلة إلى أخرى . . فلدى البعض منا إحساس بأهمية الانتماء إلى الفراعنة . . ويشعر هؤلاء أن ذلك يميزنا عن المجتمعات الإنسانية الأخرى ، ويوفر لنا الشعور بخصوصية الانتماء إلى من ابتكروا هذه الحضارة القديمة والتى كانت منارة ومركز إشعاع فى العالم القديم . . ووقت أن كانت تغطى أرقى الدول الآن ثلوج وظلمة وتخلف وأحراش وفوضى .

على أن كثيرين يتصورون أن الاهتمام بالفراعنة هو عودة للوثنية ، ويتعارض مع الانتماء إلى الإسلام أو المسيحية .

وقد يرى البعض أن الانتماء العربى هو الأساس ، ولاينبغى أن ننمى الانتماء الفرعونى لأن ذلك يضعف حيوية وفاعلية وأهداف «القومية العربية» وقد لمست ذلك فى حواراتى مع أصدقائى من «القوميين العرب» سواء كانوا مصريين أم عرب .

ومن المؤكد أن المتدينين يُؤثرون ويقدمون الانتماء الدينى ـ سواء الإسلام أو المسيحية ـ على أى انتماء آخر ، وهذه هى سمة المرحلة الحالية من تاريخ المنطقة ، وما محاولتى فى هذا الكتاب إلا لنشر فكرة أن هناك انتماءات أخرى لدى المصرى ينبغى أن يسعد ويعتز بها ، لعل ذلك يعطى الانتماء الدينى حجمه المتوازن .

وأعرف الكثيرين ممن يقاومون انتماء مصر إلى حوض البحر المتوسط من منطلق أن ذلك يؤدى إلى التغريب أى تقريب مصر من الغرب وحضارته ، وبالتالى يُضعف من الهوية المصرية الوطنية ، ولايتمسكون ولايتحمسون غالبا إلا للعامودين العربى والإسلامى . . غير مدركين أن الأعمدة السبعة كلها داخلة فى تكوينهم النفسى والحضارى حتى وإن كانت هذه الأعمدة الأخرى باهتة أو هزيلة .

وأتصور أن الأعمدة أى الانتماءات التى لاتجد من يتحمس لها أو عليها . . هما : العامود «اليونانى ـ الرومانى» وكذلك العامود «الأفريقى» .

لقد مرت الحقبة «اليونانية ـ الرومانية» على مصر فى ظروف خاصة وغير متكررة وتركت آثارها الحضارية فى وجداننا ويشهد على ذلك الآثار المختلفة التى تنتمى إلى هذه الحقبة ، وهى كثيرة ولاتقتصر على المتحف اليونانى ـ الرومانى بالإسكندرية فحسب ، ولكن معابد إسنا وإدفو ومعابد جزيرة فيلة الشهيرة والمعروفة باسم «أنس الوجود» بأسوان وغيرها تعود إلى هذه الحقبة وقد تم إنشاء هذ المعابد الشهيرة عندما رغب الحكام البطالمة فى الحقبة الأولى من حكم الأغريق فى استرضاء الشعب وعبدوا آلهة قدماء المصريين ، هذا فضلاً عن الآثار العلمية والفلسفية التى خلفتها مكتبة الإسكندرية الشهيرة فاعتبرت علامة وضاءة لهذه الحقبة ولكنها حُرقت فيما بعد كما سيأتى ذكره . وهو الأمر الذى دعى كثيرين فى مصر وخارجها لإحياء إنشاء هذه المكتبة مرة أخرى ولكن بشكل جديد يناسب القرن الحادى والعشرين .

وهناك تداخل تاريخى واضح بين الحقبة «اليونانية ـ الرومانية» والحقبة «القبطية» .

ولعل تغيير الدين إلى المسيحية ، واللغة إلى القبطية هما الفيصل فى بداية الحقبة القبطية . . وسيأتى تفاصيل ذلك فيما بعد .

أما الانتماء إلى قارة أفريقيا ـ وهو انتماء لايخص الماضى فحسب وإنما يخص المستقبل أيضا ـ فهو انتماء ليس له صاحب ، وليس له من يدافع عنه ، وإن كان جمال عبد الناصر هو أول من أشار واهتم به ، فقد جاء ذكر ذلك فى كتابه «فلسفة الثورة» ، والواقع هو أن كافة بلدان أفريقيا سعيدة بانتماء مصر إلى أفريقيا ، وهو أمر قد توج أخيراً عندما تم انتخاب الرئيس حسنى مبارك رئيساً لمنظمة الوحدة الأفريقية فى ٢٣ يوليو ١٩٨٩ ولمدة عام .

وقد استوقف نظرى خبر نشر بالصفحة الأخيرة من جريدة «الأهرام» يوم ١٨ مارس ١٩٨٩ يقول : واجه المسئولون فى مجلس مدينة دالاس عاصمة ولاية تكساس الأمريكية - بسبب معرض آثار رمسيس الثانى - موقفاً غريباً - فقد فوجئوا بتجمع أكثر من ١٠٠ من الرجال والنساء السود للاحتجاج على عدم حصولهم على حقوق مميزة فى المعرض مؤكدين أن رمسيس الثانى الذى حكم مصر - منذ قرون طويلة - ولمدة ٦٨ عاماً كان أسود ومن أصل أفريقى ، وإن السود هم صناع الحضارة المصرية القديمة !!

وأيا ما يكون من أمر ، فإن المصرى العادى لايعرف التمييز العنصرى بسبب اللون ، لأن مصر تشتمل بالفعل على كافة الألوان بالنسبة لبشرة الإنسان حيث يوجد بالفعل كل لون ابتداء من الأبيض «الأشقر» ، ومن لون حدقة العين الزرقاء - والشعر الذهبى المرسل مثل أهالى شمال أوروبا - إلى السُمرة الداكنة والعيون السوداء مثل سكان أفريقيا وهو اللون الغالب لبشرة المصريين وهو ما يسمونه «قمحاوى» . . ومن هنا فإن أفريقيا تجد فى مصر وحضارتها الفرعونية كما فى إنجازاتها الحديثة ، وكفاحها من أجل الاستقلال . . ما يجعلها تزهو بها .

خلاصة القول : هو أن هذه الانتماءات السبعة للشخصية المصرية رغم تواجدها فى كل منا بقدر أو بآخر ، ولكن كلا منا يفضل هذا الانتماء على ذلك وفق ظروف النشأة والتركيبة النفسية والمستوى الثقافى والحضارى والانتماء الأيديولوجى ، ومن المؤكد أن كل مسلم يعتز بالعامود الإسلامى ، ولكنه لايدرك أنه يحمل بين ضلوعه قدراً من «العامود القبطى» بحكم التواجد والمعاشرة والتداخل بين البشر . . كما أن كل قبطى يعتز «بالعامود القبطى» وغالبا ما يعتز تلقائياً وبسبب التراث والامتداد التاريخى «بالعامود الفرعونى» ولكنه لايدرك أنه يحمل بين ضلوعه قدراً من «العامود الإسلامى» وأنه يستخدم بالفعل الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث فى مجرى كلامه العادى كل يوم كما أنه بالضرورة متأثر بها . . ولعل هذا هو سر استمرار المسيحية والإسلام على أرض مصر .

وقد حاولت أن أستشف السر وراء فتور الإحساس بالفرعونية لدى كثرين ولم أعرف كنه ذلك إلا من خلال حوار شاركت فيه عندما قمت مع الأستاذ محمد حسنين هيكل بزيارة البابا شنودة الثالث لمناسبة عيد الميلاد فى يناير ١٩٨٩ ، فقد استفسر الأستاذ هيكل عن سبب عدم ذكر اسم فرعون الذى كان يحكم مصر

وقت خروج بنى إسرائيل منها فى كل من الإنجيل والقرآن ، فأجاب البابا بذكاء : لقد كان هذا الفرعون «غليظ القلب» ونحن فى لغتنا الدارجة نقول : «اللى ما يتسماش» ، ليس لأنه لايحمل اسماً ولكن ذلك يحمل ضمنيا عدم الحب أو التقدير وبالتالى يُنكر الاسم ، ولكن ذلك كان قاصرا على ذلك الفرعون الذى كان معاصرا لتلك الفترة وحدها ، على ما ذكر من آيات قرآنية فى تلك الواقعة بالذات قد ألقى بظلاله على امتداد حكم الفراعنة ، وأتصور أن كراهية اليهود لفرعون الذى طردهم من دياره - وقد سجلوها فى سفر الخروج من العهد القديم - قد رَسَمَت صورة الفراعنة القدماء بشكل لا يدعو إلى الحب أو الاحترام . .

وعندما أقارن بين هذه الصورة وصورة فرعون الملك والإله المحبوب من الشعب كما صورها بيرستد - فى كتابه المرجعى - فجر الضمير - أجد أن هناك فارقاً هائلاً بين صورة المجتمع وطبقاته وفئاته ، كما يصورها لنا دارسو المصريات القديمة وبين الصورة التى نُقلت إلينا من خلال الكتب الدينية ، ولذلك فإننى أتصور أن اعتزاز المصريين جميعاً بالانتماء إلى الحقبة الفرعونية سوف يزداد وينمو ، وذلك فى القرن القادم وعندما تنتهى آثار الحقبة الحالية .

ورغم حماسى واقتناعى - فى المرحلة الحالية - بهذه الأعمدة السبعة للشخصية المصرية ولكننى لا أراها انتماءات أبدية ، بل لعلها تتراكم مع الزمن ويضاف إليها انتماءات جديدة ، وبنوع من الخيال ، أتصور أن كاتبا ينتمى إلى القرن الثانى والعشرين سوف يكتب فى عصر يسوده الفكر العلمى العلمانى العالمى ، سوف يخلط الأحقاب والأزمنة ويعيد ترتيبا بشكل مختلف .

أيا ما يكون من أمر ، فإن لكل عصر إفرازاته الفكرية التى تعبر فى الغالب عن واقع حضارى وفكرى معين ومن ثم فإننى أرى أن فكرة الأعمدة السبعة تناسب المرحلة التاريخية الحالية وتعبر عن واقعه من منطلق أنها تدفع به إلى الوفاق الوطنى وتجعل المصرى أكثر اعتزازا بمصريته وبالتالى توفر له المناخ الإنسانى الذى يَعْبُر به إلى آفاق أرحب فى القرن القادم .

□ □ □

وفى هذا الكتاب وقبل أن أستعرض هذه الأعمدة السبعة فى الفصلين الثالث والرابع ، رغبت فى أن أمهد للقارئ فى الفصل الثانى كيف أن مصر بالذات شعب

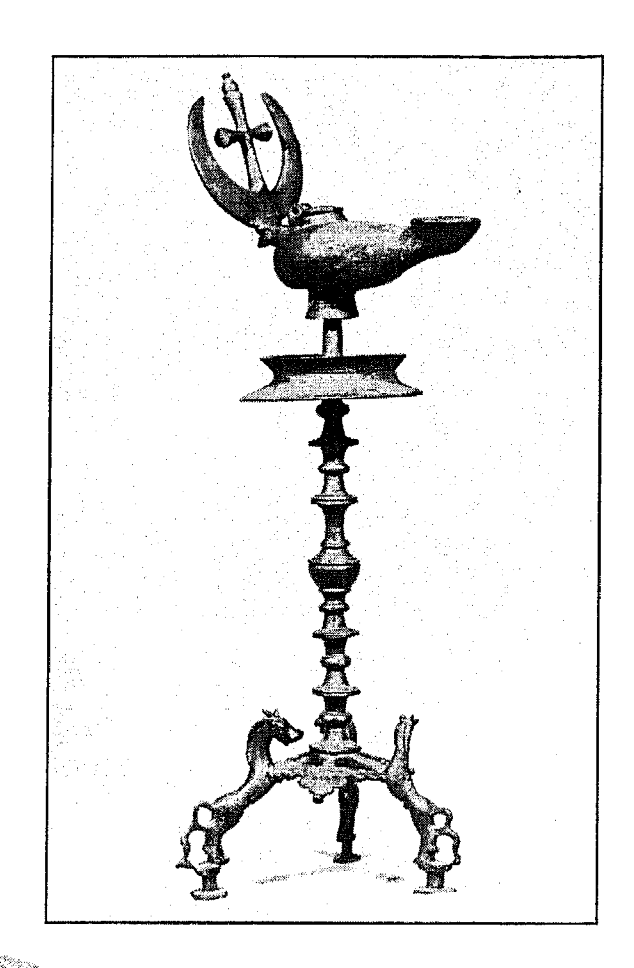
واحد تحول إلى سبيكة فى بوتقة الانصهار والتى أوجدت منه نسيجاً واحداً وإن كانت له ديانتان هما الإِسلام والمسيحية .

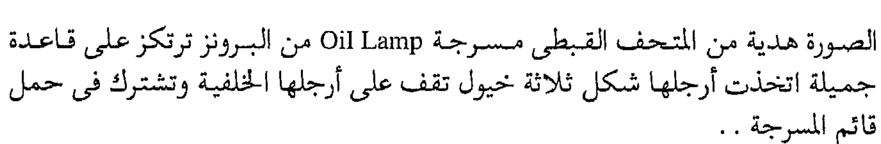
وإذا كنت قد حاولت فى الفصلين الثالث والرابع ـ وهما عصب الكتاب ـ أن أطرح وباختصار الأعمدة السبعة للشخصية المصرية وكيف أثرت هذه الانتماءات التاريخية والجغرافية للشخصية المصرية فأعطتها نكهة خاصة ، إلا أن هذه الإنتماءات يشترك فيها ـ من وجهة نظرى ـ المصريون جميعا وبدرجات متفاوتة ، ففى داخل كل منا فرعون صغير ، وكل منا تأثر بالحقبة اليونانية ـ الرومانية ، وكل منا متأثر بالمسيحية والإسلام معا وبشكل حضارى . ولكل منا وبدرجات متفاوتة له أيضا انتماء عربى وبحر أوسطى وأفريقى .

على أن هذه الانتماءات السبعة للشخصية المصرية لا تعنى إلغاء مقومات وانتماءات الفرد ، ولذلك خصصت الجزء الأكبر من الفصل الخامس لشرح الانتماءات الفردية ابتداء من الانتماء إلى الأسرة أو الأقليم أو المهنة أو الحزب أو الدين أو غيرها ، لأن الفرد ـ فى أى وطن أو شعب ـ ما هو إلا تجميع ومحصلة لجملة انتماءات شخصية فردية أو قومية وطنية ، ومن مجموعها تتكون شخصية الإِنسان .

ويأتى التَفَرّد لكل منا فى مفاهيمه وأسلوبه فى التعامل مع ما لديه من انتماءات فردية ووطنية ، فالشخص الذكى الناجح هو الذى يستطيع أن يوظف ما لديه من انتماءات من أجل مصلحته ومن أجل مصلحة الوطن معا .

الهلال والصليب
منذ القدم
نور ونار





الصورة هدية من المتحف القبطى مسرجة Oil Lamp من البرونز ترتكز على قاعدة جميلة اتخذت أرجلها شكل ثلاثة خيول تقف على أرجلها الخلفية وتشترك فى حمل قائم المسرجة . .

أما الجزء العلوى والذى يحمل داخله الزيت فهو قطعة فنية معبرة لما يحمله عند الطرف البعيد عن اللهب من هلال يحتضن الصليب تعبيرا عن الوحدة الوطنية ـ عميقة الجذور فى وجدان الشعب المصرى إلى أن تم صياغة شعار «وحدة الهلال مع الصليب» والذى تبلور إبان ثورة عام ١٩١٩ .



أبو التوحيد

إخناتون ـ أحد معالم مصر الفرعونية ـ دعا للتوحيد من خلال عبادة الشمس وسجل ذلك فى أشعاره والتى صارت بعده ملهمة لموسى فى تعاليمه ولداود فى مزاميره وسليمان فى أمثاله .

الفصل الثانى

لن تتلبنن مصر

- الأقليات أكثر حساسية لأحداث الفتن .
- أحداث الخانكة كانت ـ البداية للزاوية الحمراء .
- الفتنة تتحرك مرة أخرى عام ١٩٨٧ .
- «إيران» نموذج يسيل لعاب المتطرفين .
- الإسلام المصرى والمسيحية المصرية .
- العقيدة مزيج خاص من السنة والشيعة .
- لابد من مصالحة مصر الدولارية مع مصر الشعبية .



لن تتلبنن مصر

مع تفجر الحرب اللبنانية ، استشعرت ـ قبل غيرى ـ ما يمكن أن يخبئه القدر لمصر من تفجرات طائفية ، فكتبت مقالا نشر فى جريدة الجمهورية فى ٢٨ نوفمبر ١٩٧٥ جاء فيه :

«لاشك أن قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة بدمغ الصهيونية بأنها حركة عنصرية جاء ليكون معول هدم أساسى للركائز الفكرية والمبدئية التى تبنى عليها إسرائيل» .

«لقد أقنعت الحركة الصهيونية العالم بأن اليهود غير قادرين على أن يستوعبوا فى المجتمعات البشرية سواء فى العالم الرأسمالى أو الاشتراكى أو حتى فى بلدان العالم الثالث فلم يكن من مفر أمام العالم إلا الخضوع لفكرة «الوطن القومى لليهود» .

«غير أنه لم يحدث حوار واسع حول ما إذا كان هذا الفصل بين اليهود وسائر أنواع وأجناس البشر ، راجعاً لنقص أو عيب أو خاصية فى اليهود بالذات أم هو عدم قدرة وقابلية المجتمعات البشرية الأخرى على الاستيعاب أو التعايش معها .

«من أجل هذا فإن الصراع العربى الإسرائيلى لابد وأن يعالج ـ ضمن قضايا أخرى عديدة ـ موضوع استيعاب الأقليات داخله وإمكانية تعايش الأديان المختلفة فى سلام اجتماعى من أجل التقدم» .

«ولقد أبرزت الحرب الأهلية فى لبنان أخيرا أهمية معالجة هذه القضايا وبحث تأصيلها التاريخى وعدم الاكتفاء بشعار «دع الفتنة نائمة» إذ أن المستفيد الأساسى من الفتن القائمة هو الاستعمار والرجعية ، إذ هو يفجرها فى الوقت الذى يراه مناسبا لأطماعه وأهوائه . . وما حدث فى لبنان خير شاهد على ذلك» .

ثم يستطرد المقال :

«إن النموذج المصرى ـ فيما يتعلق بوحدة عنصرى الأمة من مسلمين وأقباط ـ جدير بالدراسة والبحث ، بإلقاء الضوء على تراثه وسوابقه ، إذ إن الأزمة اللبنانية

الحالية قد ساعدت الصهيونية فى حُجَجها بعدم إمكانية التعايش السلمى للأديان ولذلك وجب إبراز ما لدى المنطقة من نماذج أخرى أكثر توفيقا ، خصوصا وأن بعض الصحفيين الأجانب قد حضروا لمصر لدراسة نتائج حرب أكتوبر ويتساءلون فيما إذا كان ما حدث فى لبنان يمكن أن يحدث فى مصر» .

«وقد قطعت لهم باستحالة تكرار «المرض اللبنانى» فى مصر لعديد من الأسباب منها :

- «ينتمى أقباط مصر إلى الأرض والتراب المصرى . انتماء الأهرام والنيل ، ولايمكن لهم بالطبيعة والتراث والتاريخ إلا أن يكونوا مصريين وطنيين ، ولعل فى كلمة قبط أو جبط ـ وهى جزء من كلمة «إيجيبتوس» أى الأرض السوداء والتى اختصرت فى اللغة اللاتينية كافة إلى «إيجيبت» EGYPT تعبيرا عن مصر ـ ما يؤكد الانتماء الأصيل للأقباط لهذه الرقع من الأرض .
- يحمل الأقباط ـ كجزء أصيل من بلادنا ـ كل الخصائص الحضارية للشعب المصرى ككل ولذلك فهم يتسمون بالطيبة والبساطة والبعد عن العنف وتحمل الصعاب بصَبر ، وفى ذلك فإن التكوين النفسى للمصريين ـ مسلمين وأقباطا ـ هو تراث الحضارات الزراعية المستقرة فى الوديان المنبسطة منذ آلاف السنين حيث الأمان والولاء للحكومة المركزية التى تملك مفاتيح الحياة عن طريق نهر النيل العظيم ، الشريان الذى يوصل الأمن إلى كل نجع فى الوادى عبر القرون .
- ينتشر الأقباط فى مصر انتشار الماء والهواء فهم موجودون جنبا إلى جنب مع أشقائهم المسلمين فى كل مكان وموقع ، فى المدينة كما فى أعماق الريف ، منهم المثقف فى أعلى الدرجات ومنهم الأمى سواء بسواء ، منهم العامل والفلاح والصانع الحرفى ، كما أن منهم المهنى ورجل الأعمال وموظفى الدولة فى كافة درجاتها وباختصار فهم نسيج كامل من أهل مصر فى كافة صورها» .

أشعر الآن ـ وأنا أكتب هذه الدراسة عام ١٩٨٨ ـ كيف أن هذا المقال (علاوة على مقال آخر كتب بالجمهورية أيضا فى ١٩٧٥/١٢/٢٩) كانا ـ من وجهة نظرى ـ بمثابة دق الناقوس فى وقت مبكر جدا ، إذ لم يكن متصورا ـ وقتها ـ أن الحرب الأهلية فى لبنان سوف تستمر هذه السنوات الطويلة .

ولم يكن متصورا ـ وقتها أن رياح الطائفية سوف تقرع أبواب مصر بشدة طوال

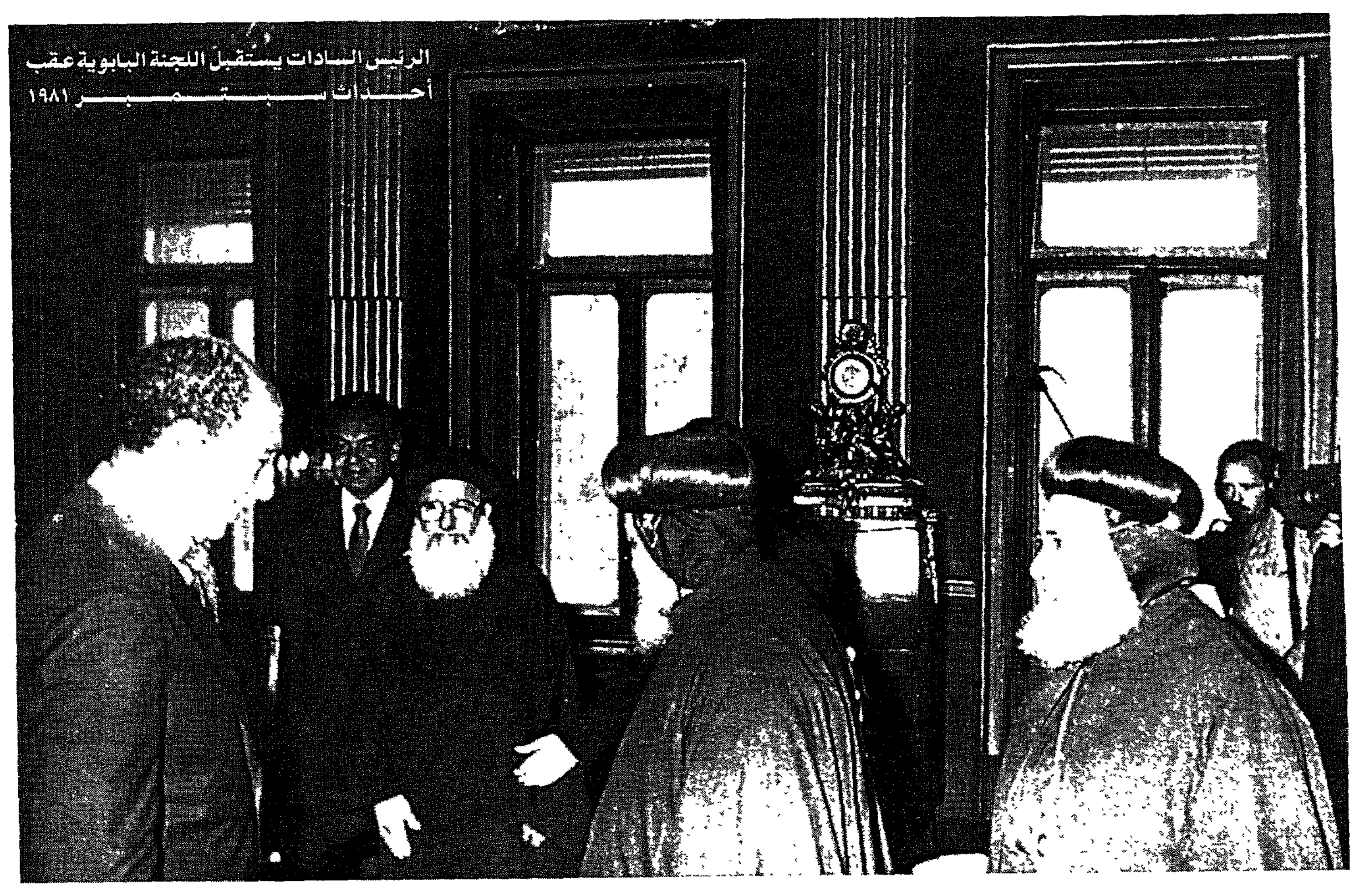
فترة السبعينيات إلى أن وقعت أحداث كادت تعصف بمصر وتوقعها فى فتنة طائفية حقيقية من خلال صراع دموى فى منطقة الزاوية الحمراء بالقاهرة فى منتصف يونيو ١٩٨١ .

ولم أكن متصورا - وقتها - أن قدرى وقدر كثيرين من قيادات مصر أن ندخل السجون ضمن حركة اعتقالات واسعة بدأت فى فجر ٣ سبتمبر ١٩٨١ بدعوى «احتواء الفتنة الطائفية» ، وقد أدت تلك الأحداث فى تتاليها وإيقاعها السريع والعنيف إلى اغتيال الرئيس السادات فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ وما تلا ذلك من صدام مسلح بين جماعة الجهاد والشرطة فى مدينة أسيوط وكادت تلك الأحداث ، فى نبضها المتدفق ، أن تعصف بالنظام كله وقد سجلت كل ذلك فى كتاب لى صدر عام ١٩٨٦ بعنوان «ذكريات سبتمبرية» .

ولقد تمكن الرئيس حسنى مبارك من معالجة مشاكل الفتنة الطائفية ، وغيرها من مشاكل سياسية حساسة ، بحذق شديد ، وانتزع الفتيل من القنبلة بسلسلة من القرارات ، بدأت بأن أفرج عن القيادات السياسية ممن اعتقلوا فى حركة سبتمبر ، وقد قدر لى أيضا أن أكون واحداً ضمن نحو ثلاثين خرجوا من السجن إلى القصر الجمهورى لمقابلة الرئيس يوم ٥ نوفمبر ١٩٨١ .

وتباعا تم الإفراج عن مئات من المعتقلين من السياسيين ومن الجماعات الدينية ومن بينهم أفرج عن الأئمة ورجال الدين الإسلامى ثم عادوا إلى مواقعهم بعد أن اضطهدوا وأهينوا ، وكان أبرز هذه الإهانات إيلاما ما جاء ضمن إحدى خطب السادات - وقبل اغتياله بأيام - عندما أشار إلى أحدهم بأنه «مرمى زى الكلب فى السجن» وكان لهذه العبارة وقع سيء وغضب شديد لدى الكافة - مسلمين وأقباطا - ولذا لم يحزن شعب مصر عندما اغتيل السادات وسجلت بعض الجهات الأوروبية فيلما عما جرى فى القاهرة عقب الحادث بعنوان «لماذا كانت القاهرة هادئة» وأشاروا كيف أن شعب مصر قد حزن على الرئيس عبد الناصر وبكاه فى جنازة غير مسبوقة فى مصر ، بينما انصرف كل لعمله يوم أن مات السادات وشرحوا الظروف والملابسات .

ولأول مرة فى التاريخ المكتوب لمصر وفى العهد الإسلامى يعتقل ثمانية أساقفة وأربعة وعشرون قسيسا من رجال الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وكذلك رجال من قيادات الأقباط الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت .



الرئيس السادات يستقبل اللجنة البابوية عقب
أحداث سبتمبر ١٩٨١



الأب متى المسكين-عالم اللاهوت واللغات القديمة فى حوار لفحص الأوضاع الكنيسة عقب حركة اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ مع الرئيس السادات وفى حضور نائب الرئيس حسنى مبارك

أما البابا شنودة ـ بطريرك الأقباط ـ فقد أمضى وقتا أطول منا جميعا وهو مقيد الحرية ، ولكن بطريقة أخرى ، إذ كان قد ترك مقره بالقاهرة نتيجة الهياج الذى أعقب أحداث الزاوية الحمراء واتجه للإقامة فى دير السريان بمنطقة وادى النطرون ، ومع صدور قرارات الاعتقال تمت محاصرة الدير ولم يسمح له بمغادرته منذ سبتمبر ١٩٨١ إلى أن اتفق على عودته إلى المقر البابوى الجديد بالقاهرة فى يناير ١٩٨٥ .

ومن الأمور الطريفة والجديرة بالتسجيل ، أن أحد الوزراء الذين تربطهم صلة مودة مع البابا ، كان قد زاره فى منفاه بالدير ، فذكر له الوزير أن وزير الداخلية اللواء حسن أبو باشا قد قال له إنه لايوجد قرار باعتقال البابا أو تحديد إقامته ، وأن قوات الأمن الموجودة خارج الدير هى لحراسته وخوفا على حياته من المتطرفين ، فأجاب البابا : اصعد لأعلى المبنى وتأمل الجند الحارسين لى ، فإذا كانت فوهات بنادقهم موجهة إلى الخارج كانوا حارسين لى ممن سيهاجمون المكان ، وإن كانت فوهات بنادقهم موجهة إلى الداخل أى إلى الدير ، كنت معتقلا ومحددة إقامتى !

وكانت لعودة البابا فرحة عارمة بين الأقباط والمسلمين على حد سواء ، وقد اعتبرها كثيرون نهاية المطاف «وإزالة لآثار العدوان» لمرحلة السادات .

ولم يمض وقت طويل على هذا المناخ الطيب فى العلاقات الطائفية حتى تفجرت المشاكل مرة أخرى فى بعض مدن الصعيد مع مطلع عام ١٩٨٧ .

كانت البداية ـ كالمعتاد ـ فى مدينة أسيوط حيث الاحتكاك وارد فى المدينة الجامعية بين الجماعات الإسلامية من جانب وبين ما يسمى الأسر القبطية من جانب آخر ، وكلاهما شباب بين ١٨ و٢٥ سنة وهى سنوات الفورة والانحيازات والتهور الذى يقود إلى التحرش والطيش ، فقد انتشرت شائعات عجيبة تتحدث عن ظهور صلبان على طُرح بعض الطالبات المحجبات واتهم الطلبة الأقباط بأن لديهم محلولا سريا ـ وربما كان سحريا ـ يرش من مسافة قريبة بواسطة رشاش «إسبراى» فيحدث هذه العلامات على نسيج الطُرح وذلك عند تلاقى الخيوط الرأسية والأفقية من النسيج فتظهر علامة صغير فى شكل زائد + .

ومن ثم هاجت جماعات من الشباب المسلم وتحرشوا بالشباب القبطى واعتدوا عليهم بنفس الممارسات التى كانت فى نهاية السبعينيات وقت السادات ، وتصاعدت العواطف والانفعالات والشائعات ـ وفى المجالات الدينية تسيطر العواطف والانفعالات والشائعات بسهولة ويسر ـ واعتدوا على بعض الكنائس ثم

قيل إن عدوانا مضادا قد حدث من الأقباط على بعض الجوامع ـ كرد فعل ـ ثم تدخل الأمن المركزى وأمكن فض الاشتباك والسيطرة على الموقف وهدأت الحالة الأمنية ولكن النفوس ظلت مشحونة من الجانبين .

ثم تكررت ذات الأحداث تقريبا فى كل من مدينتى المنيا وبنى سويف شمالاً ، وسرت العدوى إلى الجنوب فوصلت مدينة سوهاج حيث كان الصراع أشد وأعتى ، فطلاب كل جامعة ينبغى أن تكون لهم غيرة «على دينهم» تفوق الجامعة المجاورة ، وقد زاد من حدة الصراع مناخ المعركة الانتخابية حينذاك .

وكان بعض الدارسين قد اعتبروا حادث حريق كنيسة الخانكة (فى ضواحى القاهرة) عام ١٩٧٢ هو بداية تصاعد مشاعر الفتنة فى عهد الرئيس السادات إلى أن كانت قمة المأساة ، فى الزاوية الحمراء فى يونيو ١٩٨١ والتى خمدت مع مأساة الاغتيال فى أكتوبر ١٩٨١ .

وقد اعتبر الدارسون أن هذه الموجة الجديدة من الأحداث قد تكون نذير حلقة جديدة من مخطط إيقاع مصر فى مستنقع الطائفية مرة أخرى ، خصوصا عندما اتخذت الجماعات الدينية خطوات أكثر جرأة وحدة فكانت محاولات اغتيال اللواء حسن أبو باشا وزير الداخلية السابق وما تلاها من محاولة اغتيال مكرم محمد أحمد رئيس تحرير مجلة المصور فى مايو ١٩٨٧ ثم محاولة الاعتداء على اللواء نبوى إسماعيل وزير داخلية السادات ، وقد صاحب ذلك حملة اعتقالات واسعة على عشرات المجموعات المتطرفة والتى تعمل كلها «تحت الأرض» إلى أن أمكن توجيه اتهام إلى جماعات جديدة عرفت باسم «الناجون من النار» .

وفى يوليو ١٩٨٨ تمكن بعض المحكوم عليهم فى قضية الجهاد الذين اتهموا باغتيال السادات من الهرب من ليمان طرة وظلوا أسابيع هاربين إلى أن تمكنت الشرطة من قتل اثنين منهم والقبض على الثالث فى أغسطس ٨٨ وقد أعقب ذلك مظاهرات فى منطقة عين شمس فى ضواحى القاهرة وقيل ضمن ما قيل إنها متضمنة احتكاكا طائفيا ! .

ولازال المسلسل ممتدا ومستمرا ويعتقد كثيرون أن القضية محسومة ولا خوف منها ولا قلق طالما أنها فى أيدى جهاز شرطة قوى يرأسه رجل أقوى وطالما أن الجيش سليم .

وعندما قام حكم الثورة الإسلامية فى إيران ، انخدع كثيرون وأنا منهم ـ وأيدنا

هذه الثورة من منطلق أن الدين به جانب ثورى تقدمى دفع بالشعب الإيرانى لأن يسقط الشاه ، فإذ به مع الأيام يقع فى حفرة أكبر وهى الحرب ومن خلال الثورة تم القضاء على كافة الحريات باسم الدين .

وقد انعكس ذلك على الوضع الداخلى فى مصر ، وتصور كثيرون أن ما حدث فى إيران سوف يتكرر فى مصر ، وبذلت جهود ورصدت أموال وعُقدت اجتماعات داخل مصر وخارجها ، على أمل تفجير مصر من الداخل ورغم أن الحرب العراقية الإيرانية قد توقفت ، ورغم أن هناك محاولات لاحتواء الحرب الأهلية اللبنانية ، ورغم أن هناك محاولات جادة لحل قضية الصراع العربى الإسرائيلى وأن الانتفاضة الفلسطينية لابد وأن تؤتى ثمارها ، فإن الحرص يدعونا جميعا ـ كمصريين وطنيين ـ على أن يبذل كل منا جهده فى مجاله من أجل أن تمر هذه الموجات بسلام ولتبقى مصر وطنا للحريات وللتدين السمح الذى يبنى ولا يدمر .

□ □ □

لقد سَجَّلت على نفسى ـ فى المقال الذى سبق الإشارة إليه ونشر عام ١٩٧٥ ـ أن ما حدث فى لبنان لن يحدث فى مصر ، وهنا أعود فأقول وأكرر بأن ما حدث فى إيران لن يحدث فى مصر ، لأن الخلفية التاريخية والتركيبة الاقتصادية والاجتماعية مختلفة تماما فى مصر عنها فى كل من لبنان وإيران .

إن مصر واد سهل منبسط يتمتع بحكم مركزى هو أقدم تنظيم لدولة فى العالم بأسره ، وبه منذ سنوات طويلة جيش وطنى قوى وملتزم ومنضبط ، وهذا يختلف عن طبيعة «جبال لبنان» حيث كل شاب ورجل وامرأة يستخدم السلاح ويمارس إطلاق النار بعفوية ويسر ذلك لسنوات طويلة قبل اشتعال الفتنة . كما أن كل جبل أو منطقة أو «ضيعة» تحتلها طائفة أو جماعة تدعى أن لها عرقا أو مذهبا أو مصلحة مختلفة ، فهناك جبال الشوف للدروز وهناك جبال ومناطق مبعثرة للموارنة الذين يزعمون أنهم فينيقيون وليسوا بعرب .

إن السياق التاريخى لحضارة مصر بما يحتويه من جزئية العلاقة بين المسلمين والأقباط ، يختلف تماما عن كل من لبنان أو إيران ، بل يختلف تماما عن أغلب بلدان العالم العربى ولا يدانيه إلا تاريخ الحضارة فى بلاد الشام والعراق أى منطقة الهلال الخصيب ، فهى أيضا شعوب لديها حضارات متراكمة وربما كان لها أعمدة سبعة أخرى خاصة بها وتتميز بأن لديها تعددية متوازنة فى الأديان .

ومن هنا كانت أهمية أن نغوص فى التاريخ لكى نكتشف هذه الصياغة المصرية من خلال رقائق حضارية وانتماءات متعددة مبدعة أعطت لمصر هذه المناعة التى تجعلها تقاوم تيار الطائفية العاتى الذى اجتاح المنطقة منذ زرعت إسرائيل فى قلبه عام ١٩٤٨ .

وفى مجال المقارنة ، لا أستطيع أن أحصى الطوائف والمِلَل فى لبنان إحصاء كاملا لأنه بالرغم من وجود ديانتين رئيسيتين - هما الإسلام والمسيحية كما هو الحال فى مصر فإن للإسلام فى لبنان فرقا كثيرة فجرتها الحرب الأهلية وجعلت أخبارها ملء السمع والبصر . هناك طائفة السنة الهادئة والعاقلة التى يختار منها رئيس الوزراء ومراكزها فى طرابلس فى شمال لبنان وصيدا وبيروت ثم هناك الكثرة الشيعية الفقيرة فى الجنوب ، والتى لم نكن نسمع منها أو عنها إلا قليلا ، وإلى أن تفجرت طاقاتها وظهر أن ظروف الفقر والقهر التى كانت تعيشها فرضت عليها الكفاح ، ولكن فى الوقت الخاطئ وبالطريق الخاطئ وقد لمست التصوف السائد فى منهجهم من خلال زيارة وحوار لى مع السيدة «رباب الصدر» شقيقة الزعيم الإمام الصدر .

وقد تفرع من هذه الطائفة الشيعية فريق آخر «تشيع» لإمام إيران الخمينى وسمى نفسه «حزب الله» وقاد حربا ضد فريق وميليشيا «أمل الشيعية» ذاتها وهناك منطقة جبل الشوف حيث الدروز بقيادة وليد جنبلاط والذى رثينا لحاله عندما اغتيل أبوه الزعيم كمال جنبلاط وهو فى ذات الوقت رئيس الحزب الاشتراكى التقدمى اللبنانى وهو الحزب العربى الوحيد الذى قبلت «الاشتراكية الدولية» عضويته لاقتناعها بأن منهجه هو «الاشتراكية الديمقراطية» ، ولكن يبدو أن الاشتراكية الدولية بزعامة فيللى برانت تود أن تكسب أرضا جديدة فى الساحة العربية بضم الحزبين الحاكمين فى مصر وتونس وكمدخل للتدخل الحكيم وفض النزاع العربى الإسرائيلى ، وبالفعل تم قبول هذين الحزبين فى المؤتمر العام للاشتراكية الدولية الذى انعقد فى استكهولم فى يونيو ١٩٨٩ .

غير أن الانتماء السياسى التقدمى لطائفة الدروز يتضاءل أمام الانتماء العرقى الدينى ، وعلى أى حال فطائفة الدروز من الطوائف المحترمة شديدة البأس كمحاربين ومفاوضين ومناورين وتفرض وجودها على الساحة السياسية بقوة السلاح .

أما الجانب المسيحى فهو «شيع» كثيرة ومذاهب متعددة من الكاثوليك والذين يعود تاريخهم إلى أيام الحملة الصليبية ، ثم الأرثوذكس والكلدان والنساطرة وغيرهم ، وهم بقايا الكنيسة الشرقية القديمة ، ثم طوائف البروتستانت والتى تكونت أخيرا مع وجود المبشرين الأجانب من أوروبا وأمريكا فى القرن التاسع عشر .

ومن الناحية العرقية والمذهبية ، فإن المسيحيين يشملون الموارنة الكاثوليك ـ وهم الكثرة المؤثرة ذات الفاعلية العسكرية والسياسية والاقتصادية ـ ولهم ارتباطات مع الفاتيكان والفرنسيين تعود لقرون طويلة (بخلاف تاريخ أقباط مصر) ولكن بجوار ذلك توجد طوائف الروم وهم من يتبعون الكنيسة التى كانت منحازة لملك الروم فى بيزنطة وقت الخلافات المذهبية التى حدثت فى مجمع خلقيدونية فى القرن الخامس وسيأتى ذكر ذلك مستقبلاً فى الفصل القادم وهناك أيضا طوائف الكلدان والسُّرْيان والأرمن فضلا عن طوائف مماثلة من الأرثوذكس .

وفيما يتعلق بتمثيل الأقليات الدينية على الساحة السياسية اختلف نهج وطريقة المصريين ـ مسلمين وأقباط ـ عن نهج أهل لبنان على كافة طوائفهم واختلفت ظروف مصر ولبنان عن ظروف قبرص حيث تم بالفعل التقسيم .

فبعد الحرب العالمية الثانية ، ومع الاستقلال وصياغة الدستور اللبنانى . وزعت كافة المناصب على الطوائف وفق ما تصوروه إرضاء لكل منها ، وحسب قوة ونفوذ كل طائفة ، وتبلور ذلك فى توزيع المناصب فى قمة السلطة لكى يكون رئيس الجمهورية من الموارنة المسيحيين ، ويكون رئيس الوزراء مسلماً سنياً بينما ترك منصب رئيس المجلس النيابى ليشغله مسلم شيعى ، ووزعت كذلك كافة المناصب الوزارية والمواقع الرئيسية فى القضاء والجيش على أساس طائفى وتوهموا أن ذلك قد حل الصراعات الطائفية إلى أن تفجرت الحرب الأهلية ، وثبت أن ذلك كان حلا هشاً ويحاولون الآن البحث عن صياغة أخرى ، وربما كانت مرحلة الطائف مرحلة انتقالية فقط .

أما فى مصر فقد تم حوار واسع حول ذات القضية ، وفى ظروف مماثلة عقب إصدار الإنجليز لتصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ ليعلن استقلال مصر مع تحفظات أربعة أهمها هو حماية الأقليات .

وفى ضوء ذلك تشكلت لجنة الدستور من ثلاثين عضوا فى ٣ إبريل عام ١٩٢٢ .

وكان أول من أثار مسألة تمثيل الأقليات هو «حسين رشدى» رئيس لجنة الدستور

حيث أوصى بوضع نصوص فى دستورنا لحماية الأقليات لأن إنجلترا حفظت لنفسها حق حمايتهم !

وفتح حوار ديمقراطى واسع داخل اللجنة وخارجها ، وكان أبرز هذه الحوارات - لأهميته اليوم - هو الحوار الذى تم داخل لجنة الدستور بين توفيق دوس باشا وبين الدكتور عبد الحميد بدوى .

والجدير بالتسجيل دفاع توفيق دوس من أجل أن تمثل الأقليات وعرضه ذلك لسببين أولهما سياسى ، والآخر قانونى ، فمن الناحية السياسية أبرز ضرورة قفل الباب أمام التدخل الأجنبى بدعوى حماية الأقليات ، أما السبب الثانى القانونى فهو أن المجلس النيابى يقرر التشريعات والقوانين ، وقد يقرر بحسن نية ، ما تراه الأقلية ماساً بها أو مضراً بحقوقها ، والخير أن يوجد فيه من ينبه إلى ذلك .

وفى بلاغة وحنكة عرض د . عبد الحميد بدوى وجهة النظر المعارضة لتمثيل الأقليات قائلاً : إن الفارق الدينى يضعف الآن فى مصر ، ولن يطول الزمن حتى تنمحى فى علاقاتنا الاجتماعية ، وتعفى تماما جميع آثاره (للأسف هذا التصور الذى كان واردا عام ١٩٢٢ لم يتحقق) ، ولذا فإن وجود التمثيل الخاص بالأقليات يوحد الجهة التى تحرص عليه فتزيد الفوارق وتنمو (وهذا ما تم بالفعل فى لبنان) .

ويستطرد د . عبد الحميد بدوى قائلاً : والعصر الحديث تقل فيه الفوارق الدينية ، ويصبح ما يربط الناس فى حياتهم الاجتماعية هو عامل المصلحة المشتركة ، بصرف النظر عن الدين أو المذهب ، إننى أتمنى أن أرى اليوم الذى يجمع كل أسباب مرافقنا حتى فى الزواج والطلاق وما إلى ذلك من أحوالنا الشخصية تحت نظام واحد بحيث نعيش جميعاً فى ظل حياة مدنية محكمة منظمة .

للأسف مرة أخرى كان رجال العشرينيات أكثر انفتاحاً على الحريات العامة وحقوق الإنسان ومفاهيم فصل الدين عن الدولة عن أهل الثمانينيات .

ويلخص د . عبد الحميد بدوى رأيه فى وضوح قائلاً : إن تقرير تمثيل الأقليات يعنى شطر البلد شطرين ليعيشا منقسمين وهو بدعة فى النظم البرلمانية ، وإذا اعترف بتمثيل القبط ظهر بعدهم كثرة كالسوريين واليهود والعرب ثم يظهر الأروام والأرمن وغيرهم . . فيتحقق نظام كرومر ، وتصير «مصر» خليطاً ليس له طابع أهلى ومسرحاً للمنازعات الدينية والجنسية .

ولا أود أن يمل القارئ لو ذكرت التفاصيل المذكورة فى كتاب طارق البشرى

بعنوان «المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية» غير أن من بين الحوارات العديدة فى هذه القضية وقتها كان هناك حوار آخر جرى خارج لجنة الدستور له دلالته وكان فرسانه من شباب ذلك العصر . . حيث تبادل القبطى والمسلم المواقف ، فخرج الأستاذ محمود عزمى ليدعو لحق الأقلية فى أن تمثل فى المجالس النيابية ، وانبرى له الأستاذ عزيز ميرهم - وكان اشتراكياً ديمقراطياً فى وقت مبكر فى مصر - يطالب بأن توضع مبادئ الدستور على الاعتبار المدنى وليس على الاعتبار الدينى .

وعقب صدور الدستور فى إبريل ١٩٢٣ وقد عرف لذلك بدستور ١٩٢٣ جرت المعركة الانتخابية فى يناير عام ١٩٢٤ ومن بين العدد الكلى لأعضاء مجلس النواب وقتها وهو ٢١٤ كان فى المجلس ١٦ عضواً من الأقباط ، وفى الانتخابات الثانية عام ١٩٢٥ كان فى المجلس ١٥ عضواً من الأقباط وفى الانتخابات الثالثة عام ١٩٢٦ كان بالمجلس ١٧ عضواً من الأقباط وفى الانتخابات الرابعة عام ١٩٢٩ تعدل عدد أعضاء المجلس ليكون ٢٣٥ - بسبب زيادة السكان حسب إحصاء عام ١٩٢٧ - وكان عدد الأقباط فى المجلس ٢٣ عضوا بنسبة ١٠٪ تقريبا .

على أن الأمر الجدير بالتسجيل هو إصرار حزب الوفد آنذاك على أن يرشح أقباطا فى تجمعات إسلامية لكى يؤكد الانتماء السياسى والولاء للحزب ، وتأكيداً لمبدأ المواطنة . وكان أبرز مثال على ذلك هو نجاح ويصا واصف - وهو أصلا من أبناء وسط الصعيد - فى دائرة المطرية - دقهلية فى الوجه البحرى ، تأكيداً لهذا المعنى ثم صار ويصا واصف رئيساً لمجلس النواب عام ١٩٢٨ دون أن يثير ذلك أدنى حساسية أو اعتراض .

خلاصة القول : هو أن أسلوب المصريين - مسلمين وأقباط - فى التعامل مع قضية تمثيل الأقليات فى البرلمان ، أسلوب ذكى متحضر . . . ويتجاوز المناصب والصغائر من أجل الحفاظ على المناخ السياسى والحضارى العام الذى يوفر المساواة فى الحقوق الدستورية الأساسية مثل : حق التعليم ، والملكية والتنقل وما أشبه . . وقد تم كل ذلك استمراراً للعلاقات الوطيدة عبر التاريخ والقرون وقبل أن يعرف الناس مواثيق حقوق الإنسان لأن الأقباط قد اكتشفوا أن تواجدهم فى مصر بالحب والقبول العام .

□ □ □

من الخصائص التى تتمتع بها مصر فوق ذلك أن مسلميها فصيل واحد ، كما أن مسيحييها فصيل واحد ، فالإسلام فى مصر ، هو تراكم حضارى وفكرى لمحصلة ما جرى ويجرى فى العالم الإسلامى ، ومن ثم فهو إسلام مصرى متأثر بكل رقائق الحضارات التى سبقته ، كما سنرى تفصيلاً فى الفصل القادم .

من الناحية الرسمية يتبع المسلمون المصريون المذهب السنى ولم تستهوهم فى المذهب الشيعى الأساطير المنسوجة حول الإمام الغائب وعصمة الأئمة وأحقية على بن أبى طالب بالخلافة قبل أبى بكر وعمر ، وتفاصيل أخرى كثيرة فى المذهب الشيعى .

ولكن محبة المصريين لأهل البيت واضحة تماما ، يدل عليها هذا الزحف الشعبى اليومى لزيارة جامع سيدنا الحسين وضريح السيدة زينب .

وأتصور أن تمسك المصريين المسلمين فى الفترة الفاطمية الشيعية بأهل البيت والانحياز إلى على بن أبى طالب ، إنما كان استمرارا لعقيدة الأقباط فى «الشفاعة» والتمسك بأن تكون الكنائس بأسماء قديسين لهم شفاعة مثل السيدة العذراء مريم والقديس الشهيد مارجرجس وغيرهما وكذلك الإبقاء على عادة إقامة الموالد حيث تعوّد الأقباط ـ ومنذ قرون ـ على الاحتفال بعيد ميلاد القديسين وإقامة الموالد والاحتفالات الشعبية ، فهناك مثلا مولد السيدة العذراء بكنيسة المطرية قرب القاهرة حيث يقال أن السيدة العذراء أقامت فى طريق هروبها من هيرودس إلى مصر ، ثم مولد مارجرجس بقرية ميت دمسيس بالدقهلية ومولد الست جميانة ببلقاس فى شمال الدلتا ودير العذراء بجبل الطير أمام مدينة سمالوط على البر الغربى ، والاحتفالات والمهرجانات فى نهاية فترة صيام العذراء فى شهر أغسطس من كل عام فى قرية درنكة قرب أسيوط وغيرها كثير .

إن هذه الموالد ليست احتفالات دينية فحسب وإنما هى مهرجانات شعبية للمرح والتسلية وجزء من تراث المصريين للترويح عن النفس بطرق فلكلورية تتفق مع المرحلة والعصر .

ومنذ القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) وعقب فتح مصر انتشر الإسلام تدريجياً وأخذ ذلك عدة قرون ، ورغم أنه لاتوجد أرقام وإحصاءات عن عدد من أسلموا أو عدد من تمسكوا بالمسيحية فى تواريخ محددة ، ولكن ما هو متاح من معلومات تاريخية يدل على أن الأقباط لم يتحولوا بكثرة إلى الإسلام إلا فى القرن العاشر الميلادى وفى فترة حكم الفاطميين لمصر ، ولكن عدد المسلمين لم يصبح أكثرية وبشكل واسع على طول البلاد وعرضها إلا فى القرن الثالث عشر وسنعرض ما هو متاح من معلومات فيما بعد .

ولذلك فإن المعايشة داخل الأسرة الواحدة بين أب آثر أن يدخل الإسلام وأم مسيحية ، فأولاده لابد وفق الشرع أن يكونوا مسلمين . على الرغم من أن أخوالهم وربما أعمامهم مسيحيون .

كل هذا ، كان أمرا طبيعيا لسنوات وقرون طويلة ، ومن هنا جاء هذا التداخل والدمج والحب والاحترام المتبادل .

وهكذا تعايشت المسيحية مع الإسلام فى العائلة الواحدة لسنوات ، وتعايش الأقباط مع المسلمين فى كل بيت وزقاق وحارة وشارع وحى وقرية ونجع ومدينة ، ومن هنا كان هذا الانتشار للأقباط فى كل موقع فى مصر ، لم ينعزلوا فى حى أو قرية أو جبل أو منطقة كما هو الحال فى لبنان ، ولم يرفع أحد على أحد سلاحاً على مدى التاريخ إلا لخصومة فردية ، ولا يجد الأقباط أمانا لهم فى مصر إلا فى هذا الانتشار والوجود فى كل مكان ، وقد قاوموا على مدى أربعة عشر قرنا - حتى فى عهود الاضطهاد - أن يتقوقعوا داخل سور أو حى أو منطقة ورفضوا فكرة «الجيتو» المعروفة والتى مارسها اليهود فى كل مكان عاشوا فيه ، فأنشأوا منطقة أو حيا تجمعوا داخله ورفضوا إقامة «الغريب» فيه ، وكان لهم منطقة معروفة باسم «حارة اليهود» فى حى الموسكى بالقاهرة حيث كانت إقامتهم فى مصر ولم نسمع عن يهودى مصرى عاش فى قرية بعيداً عن قومه ! .

وهكذا ومع الممارسة والمعايشة لسنوات طويلة ، اكتشف الأقباط والمسلمون أن هناك حيزا ومساحة هائلة مشتركة يعيشون فى مظلتها من خلال الحياة اليومية ذاتها ، وفى حوار لى مع الدكتور الشيخ محمد سيد طنطاوى مفتى الديار المصرية ، ذكر لى أنه نشأ فى مدينة طما حيث كان والده مشاركاً لجاره القبطى فى الزراعة ومشاركاً فى المعيشة فى بيتين متجاورين ، فالزوجتان متحابتان والأطفال يلعبون معا فى الحارة . ولم يشعر للحظة أى فارق بينه وبين أولاد شريك أبيه القبطى ، رغم تمسك كل منهم بديانته .

كانت المشاركة فى الزراعة وفى التجارة وفى كافة الحرف ، وكان الحرفيون من الأقباط يميلون إلى العمل فى مجال الصيارفة والمحاسبة والنجارة والبناء والصياغة والصباغة وغيرها وكانوا موضع تقدير وثقة وحب كل أهل القرية لإتقانهم هذه الحرف .

وفوق ذلك كله وضع المصريون قواعد جديدة راقية فى الحوار حول الأديان ، فعندما يكون الأب مسلماً والأم مسيحية ، يحاول الطفل أن لا يغضب أيا منهما ، فيرى الوالد يصلى الصلوات الخمس ويقرأ القرآن ويرى أمه تقفل الباب عليها لكى

تتعبد وأمامها صورة العذراء ، ثم تجهز الطعام العادى للعائلة ولكنها تحتجز لنفسها طعاماً خاصاً بدون لحم أو لبن لأنها صائمة على الطريقة القبطية ، وربما حاول أحد الأبناء أو البنات أن يرضى عائلة أبيه فصام رمضان فى موعده وبطريقته ثم عاد فصام صيام السيدة العذراء فى موعده وبطريقته تقليدا واحتراما لمشاعر أمه .

تعود المصريون جميعا احترام الطرف الآخر والابتعاد عن كل ما يجرح مشاعر من يعايشه فى البيت بصرف النظر عن وجهة نظر الدولة أو الملتزم أو العمدة أو السلطة الحاكمة . فالمسطح المشترك فى الديانتين كبير ، فلماذا فتح جروح لن تلتئم ومناقشات غير مجدية ، الديانتان تدعوان للفضيلة والخير والطهر والسلوك القويم والعطف على الضعيف ومناصرة الحق ، وأن «يحب الإنسان قريبه كنفسه» ، وتفرض عبادات تكاد تكون متطابقة أو على الأقل متقاربة فهنا صلاة ، هى خمسة فروض من الفجر إلى العشاء ، وهناك صلوات عددها سبعة كل يوم ، وهنا صيام انقطاعى من الفجر إلى الغروب ، وهناك صيام بالامتناع عن الطعام فترة تطول أو تقصر حسب قدرة الإنسان وصحته ونياته ، ولكنه عندما يفطر فإنه يكتفى بمأكولات خفيفة خالية من الدسم واللحم . ومن هنا نجد حتى يومنا هذا - احتفال الأقباط بعاشوراء ورأس السنة الهجرية ، وكنت وأنا طفل أصر على شراء «حصان حلاوة» مثلما أصرت أختى نرجس على شراء «عروسة مولد النبى» ، وقال لى أحد أصدقائى المؤرخين إن عادة عمل حصان حلاوة فى موسم مولد النبى مأخوذة من حصان مارجرجس لدى الأقباط . ولأن للأقباط موالد وللمسلمين موالد أخرى فلماذا لا يحتفل كل الأطفال بكل الموالد ، وهذا ما هو حاصل فعلا فى كل ريف مصر . وعندما قام حريق فى مولد السيدة العذراء قرب دير المحرق بمركز القوصية بأسيوط فى صيف ١٩٨٨ ، ثبت أن المصابين كانوا خليطا متكافئا من الأقباط والمسلمين .

وعندما كنت صبيا كانت أمى ترسلنى بمنديل ملفوف لأعطيه للخالة أم حسين ، وبعد دقائق كانت «تيزا أم حسين» تسلمنى ذات المنديل مرة أخرى فأسلمه لأمى - ولم أكن أفهم شيئا - ولم تكن التليفونات قد انتشرت بعد ، وفى أحد الأيام جاءنا من يقول لنا أن الخالة أم حسين قد ماتت ، وعندئذ - وفى حرص شديد - أعطتنى أمى ذات المنديل الملفوف وقالت لى : أعط هذا المنديل لعمك أبو حسين ، فهذه مصاريف جنازة أم حسين إذ كانت أمانة عند أمى «حكيمة» - هكذا كان اسمها - وكان من وجهة نظرى - اسما على مسمى - وعندما عدت سألت أمى : لماذا لم تترك أم حسين هذا المبلغ مع زوجها فقالت : هى كانت تعرف

أنه مسرف وكانت تخشى أن تأتى منيتها فجأة ولا يكون لدى زوجها ما يكفى لمصاريف الجنازة ويضطر إلى الاستدانة . .

وعندما كبرت تذكرت هذه القصة - وغيرها كثير - تعبيرا عن التداخل والحب والثقة التى لا حدود لها بين المسلمين والأقباط عبر الزمان .

وكان والدى «ميخائيل» يقص علىّ خبرته وهو طفل مع والده «المعلم حنا» شيخ صياغ مدينة سنورس «الفيوم» وكيف كان ميزان «المعلم حنا» هو المعتمد بين الشارى والبائع للذهب والفضة قبل انتشار موازين الحكومة وكانت فتوى المعلم حنا فى «عيار الذهب» هى القول الفصل ، كما كان المعلم حنا موضع ثقة العمد والأعيان ، فهو الوحيد الذى يدخل إلى الحريم لعرض الكردان والخلخال ! .

وفى النواحى الدينية البحتة كان رجال الدين العقلاء يفتشون فى الكتب والأصول حتى يجدوا الأرضية المشتركة ، ولا أدعى أننى متخصص فى الدين - ولست راغباً فى ذلك - ولكننى أذكر أن القمص الأيغومانوس إبراهيم لوقا - والذى كان زعيما وقائدا لكنيسة كليوباترا بمصر الجديدة وقام ببنائها فى الثلاثينيات وإلى أن مات عام ١٩٥١ - كتب فى ذلك الوقت وقبل ظهور أى فتنة كتاب بعنوان «المسيحية فى الإسلام» .

وقد اطلعت أخيراً على كتاب بعنوان «المسيحية والحضارة العربية» للأب الدكتور جورج شحاتة قنواتى وهو من الآباء الدومنيكان الكاثوليك وقد أفنى حياته فى دراسة الفكر والشريعة والفقه الإسلامى والعربى . وأفرد فصلا خاصاً من هذا الكتاب عن المبادئ المشتركة وحدد مفاهيم فى مقولات محددة : إله واحد خالق السموات والأرض - الله واحد حى قيوم - الله محب للبشر - والله ذو الغفران والرحمة - الله هو الحميد المجيد - أنبياء يرسلهم الله - الله يحيى الأموات ويرضى الأنفس .

ويقول د . قنواتى أنه قام بتلك الدراسة : لكى نفهم كيف استطاع المسيحيون أن يعيشوا فى إطار الحضارة الإسلامية العربية ويشعروا أنهم من لحمها وسداها . .

ولهذا فإن الممارسات فى مصر تختلف تماما عما هو موجود فى دول إسلامية أخرى أحادية الانتماء .

ومن غير المستطاع أن نتعرض لقضية لبننة مصر أو احتمالات تفجر الصراع الدينى أو الطائفى بها أو بغيرها من دول المنطقة دون أن نلقى بعض الأضواء على الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية داخل مصر وخارجها ، فالتوازنات فى المنطقة قد

اختلت منذ أن تم تقسيم فلسطين ، وأنشئت إسرائيل عام ١٩٤٨ ، وكان التأثير الحضارى هو ضمور النمو العقلانى والعلمانى والديمقراطى فى أغلب دول المنطقة ، فقد كان بروز الدولة الصهيونية التى تعتمد على التمييز العنصرى - على اعتبار أن اليهود هم شعب الله المختار - مثيراً لإنعاش الحركات المماثلة لدى الجماعات والطوائف والفرق الإسلامية والمسيحية فى المنطقة . وبدلاً من أن تنمو الديمقراطية والحضارة والتنمية نموها الحضارى الطبيعى فى الدول العربية اغتنم الحكام فرصة الصراع العربى - الإسرائيلى ليكون تكتة لضرب الحركات الوطنية والاشتراكية والديمقراطية .

وعندما وقعت هزيمة عام ١٩٦٧ ، أدركت كثرة من شعوب المنطقة أنه لا يفل الحديد إلا الحديد وهكذا تقهقر عصر النهضة فى أغلب البلدان العربية ليحل محله عصر نمو الأصولية والسلفية ، ولذا فنحن فى مصر - مسلمين وأقباط - أصحاب مصلحة فى حل نزاع الشرق الأوسط ، ومشكلة فلسطين . . ليس فقط من منطلق الانتماء العربى للشعب المصرى كما سيأتى ذكره ، وإنما لأن ذلك سوف يقلل من أسباب تصاعد التعصب الدينى ، والطائفى . .

ومن الطبيعى أن تتأثر مصر بما حولها من صراعات فى المنطقة العربية والإسلامية ، فهناك فضلاً عن إسرائيل ولبنان - تصاعد ونمو للتيارات الأصولية فى إيران ، وأفغانستان ، وباكستان ، وأخذ الصراع فى كل منها شكلاً ساخناً داخلياً وخارجياً فضلاً عن نمو الحركات الإسلامية فى تونس وليبيا وغيرهما .

على أن الأمر الملفت للنظر والذى يحتاج إلى تفسير ودراسة هو أن الشعوب والدول الإسلامية التى لا تنتمى للعالم العربى ولا تتحدث اللغة العربية وتقرأ النصوص الدينية دون فهم عميق تلجأ إلى عنف أكبر فى القضايا الطائفية ، وقد برز ذلك عندما اجتاحت العالم الإسلامى موجة احتجاج طبيعية كرد فعل لنشر كتاب « آيات شيطانية » للكاتب الهندى الأصل سلمان رشدى ، فقد راح ضحية موجة الصخب والمظاهرات - عشرات القتلى والضحايا فى كل من إيران وأفغانستان وباكستان وبنجلاديش بينما كانت الاحتجاجات الإسلامية فى العالم العربى أكثر توازنا وعقلانية وموضوعية .

وهناك أيضاً الصراع الدامى بين شمال السودان العربى المسلم ، وبين جنوبه الإفريقى المسيحى الوثنى ، وهو نموذج لتدهور أحوال الأمة التى كانت على عتبة الرقى ، وعصر نهضة عقلانى وديمقراطى عندما حصل السودان على استقلاله عام ١٩٥٦ ، وإذا به يقع فى مصيدة العسكرة والطائفية فكاد يتدمر وسيظل كذلك فترة حتى يتوازن مرة أخرى .

أما الأحوال الاقتصادية والاجتماعية داخل مصر فلها انعكساتها على نمو تدفق التيار الأصولى الإسلامى والمسيحى ، فقد أفرزت سنوات الانفتاح تركيبة اجتماعية واقتصادية متفجرة نتيجة الفوارق بين الطبقات والتى عادت بشكل مختلف عما كانت مصر قبل عام ١٩٥٢ .

فقد كانت التركيبة الطبقية لمصر منذ عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٥٢ متراصة فوق بعضها بعضا - مصر كالهرم - أى مرتبة فى طبقات اجتماعية ذات صفات محددة ومستقرة من عشرات السنين ، ربما من قرون مضت .

كانت القاعدة العريضة مكونة من الفلاحين المعدمين« الأجراء» ويليهم طبقة صغار الملاك الزراعيين حيث كانت عائلات كثيرة فى الريف تعيش على العمل فى أرض زراعية لا تزيد على الفدان الواحد وهؤلاء لم يكونوا ليختلفوا عن فئة «الأجراء» وفى أوقات - البطالة الزراعية - لم يكن لهم من سبيل للحياة والعمل إلا من خلال التراحيل أى العمل فى أماكن بعيدة عن محل إقامتهم وبطريقة لا تختلف كثيرا عن السخرة . . ثم يلى ذلك فئة العمال غير المهرة فى الصناعة فى المدن وأغلبهم من أصل ريفى . . ثم العمال المهرة ثم الحرفيين فى المدن وهى طبقات قديمة فى مصر وتحمل مهارات عالية ، وفوق ذلك الطبقات المتوسطة من صغار الموظفين ثم صغار التجار فى المدن ثم كبار الموظفين ثم الرأسماليين الصناعيين ثم كبار ملاك الأراضى ، من الإقطاع والأسرة المالكة ، وهم من يتربعون على قمة الهرم .

ولم يكن مسموحاً «بالحراك الاجتماعى» إلا فى حدود ضيقة ، فمن المسموح به مثلاً لصغار الملاك أن يتحولوا من خلال أبنائهم إلى صغار الموظفين ، ومن المسموح أيضا لصغار الموظفين عن طريق طموح أبنائهم ومن خلال التعليم أن يكونوا من المهنيين وغير ذلك فى حدود ضيقة للحركة ، أى الارتفاع قليلاً أو الانخفاض قليلاً وفقاً للخواص والقدرات الذاتية للأفراد .

أما سنوات الانفتاح (أى منذ عام ١٩٧٤) فقد أفرزت مصر مجتمعاً مختلفاً يتكون من «مِصْرَيْن» ! ؟ .

فمصر الأولى : والمسماة بالانفتاحية وأفضل أن أسميها «مصر الدولارية» وهى جملة المنتفعين بحقبة الانفتاح فمنهم مثلا من كونوا ثروات سريعة من خلال تجارة العملة ، أو الاستيراد أو التصدير أو تجارة الأراضى فى المدن أو مشاريع عمارات التمليك أو المقاولات أو تحويل الأراضى الزراعية إلى حدائق أو بيع ثمار الفاكهة وإنشاء «صوبات» على أراضيهم وغير ذلك من مشاريع أعطت عائداً ضخماً لا يتناسب مع العمل أو المخاطرة .

ومع هؤلاء وبدرجة أقل قليلاً هناك الفئات الثرية التى تعمل بالدولار فى البنوك والشركات الجدية ثم يليهم فى سلم الدرجات إلى أسفل فئة الموظفين والعمال الذين يعملون بمرتبات تعلو كثيرا عن أقرانهم وزملائهم فى الحكومة والقطاع العام - وصولاً إلى السائق والبواب والساعى - الذين يعملون فى خدمة هذه الطبقة الانفتاحية . . ولكل هؤلاء أسواقهم فى السوبر ماركت ومجتمعهم الخاص فى النوادى واقتصادياته التى تحسب كل شيء وتحوله إلى الدولار ولديها حسابات بالعملات الصعبة بعضها فى مصر وأغلبها فى الخارج وأغلب هذه الفئات موجود بالقاهرة والإسكندرية .

أما مصر الأخرى فهى مصر الشعبية الوطنية ، والمرتبطة مع الحكومة والقطاع العام فرجالها فى القمة هم كبار موظفى الدولة الشرفاء غير المرتشين ، والذين ليس لهم دخول إلا مرتباتهم الحكومية وهى هزيلة وتشمل هذه الفئة الوزراء ورؤساء المصالح والمديرين - إذا لم يكن لهم مصدر آخر للدخل - ثم يلى ذلك هذا القطاع الواسع والعريض من العاملين فى الدولة والقطاع العام وصولاً إلى قاع السلم الوظيفى حيث خريجى الجامعة حديثى التخرج ، والذين لا تتجاوز مرتباتهم مائة جنيه - فى المرحلة الحالية - وهم قابلون لذلك بعد سنوات عجاف من البطالة . .

وقد تكون مصر الانفتاحية الدولارية نحو من ٥ ٪ إلى -١٠٪ من السكان ولكن الأمر الملفت للنظر هو أن بعض من فى قطار مصر الشعبية الحكومية يود أن يهرب «وينط» فى قطار مصر الانفتاحية وهذا هو المحور الأساسى للتحرك الاجتماعى فى مصر الآن .

وفى سنوات الانفتاح أيضا ركزت الحكومة وبالذات فى عهد السادات على ضرب كافة القوى الاشتراكية ، وأدى ذلك إلى سيطرة التيار الأصولى السلفى ، وزادت احتمالات تفجر الصراع الطائفى والذى لا تحسمه الحكومة إلا من خلال سبل القمع والقهر دون المجادلة وفتح الحوار العقلانى .

وعلى أى حال ، فإن تفجر الصراع الدينى لا يمكن حله إلا من خلال خطة سياسية ، تدعو إلى تقريب الفوارق بين الطبقات . وحل مشكلات التوازن بين الأجور والأسعار ووضع خطط اقتصادية متكاملة تهدف أيضا لتوفير العمل للعاطلين من الشباب ، وكذلك حل مشكلات الإسكان ، وما إلى ذلك وهى فى جملتها عمل سياسى هام ، وله الأهمية الأولى .

والحل السياسى الذى ينبع من تحقيق الأمانى الوطنية والقومية والسير على الطريق الحالى لسياسة خارجية متوازنة فضلاً عن ابتكار سياسة تؤدى إلى اقتصاد

قوى ، واتخاذ إجراءات لا تكلف الحكومة شيئاً عن طريق تعميق الديمقراطية بحيث يمكن تداول السلطة دون احتكار للحزب الحاكم ، وصياغة سياسة تهدف إلى الاشتراكية الديمقراطية وعدالة اجتماعية مقنعة لكثير من الناس ، هذا هو السبيل السياسى لحل مشكلات المجتمع بما فيها التطرف الدينى .

□ □ □

فإذا كنا نؤكد أن مصر لن تتلبنن ولن تحذو حذو إيران أو الباكستان ، فإن ذلك ليس راجعاً إلى أن مصر لديها مصل واق يقيها من أمراض وكوارث الفتن الطائفية ، وإنما هو راجع لأن لديها بالفعل من التاريخ والممارسات والارتباطات القائمة ما يمكنها من عبور هذه الموجة العاتية من الطائفية والتى تجتاح الشرق الأوسط بل العالم كله ، ومن هنا كانت أهمية الغوص فى تراثنا والبحث عن مقومات شخصيتنا الوطنية .

إن الحضارات الثنائية - مثل حضارة مصر - التى تعايشت فيها ديانتان عبر الزمان ، هى حضارات سهلة طيعة ، تقبل الخلاف فى الرأى لأنها تعودت أن تتعايش بها عدة ديانات ومن ثم يمكن أن تعيش فيها أيديولوجيات وآراء وعقائد مذهبية أو سياسية متعددة ولذلك فهى مؤهلة أن تحكم ديمقراطياً من خلال تعدد الأحزاب ، ربما كان ذلك تعبيراً عن سهولة الأرض وانبساطها وسماحة الإنسان وتفتح أفقه لقبول الآخرين وكأن لسان حاله يقول : علىّ أن أقبل الطرف الآخر كما هو وأتفهم رأيه ، حتى يقبلنى كما أنا ويتفهم رأيى . . فقد تأكد لنا جميعا كدارسين للتاريخ أن الخلاف والجدل الدينى على المستوى الفردى أو الصراع المذهبى عندما يشتعل ويتحول إلى حروب أهلية أو قومية ، لم ولن يجلب إلا الخراب والكراهية والحقد والعداوة ، وما جلب خيرا أو منفعة لأى طرف ، وقد تأكد لكل منا أنه نشأ على دينه واعتز به ولم يكن لأى منا فضل فى اختيار دينه وعقيدته ، فقد نشأنا وتربينا - حتى أولئك الذين يدعون عدم وجود دين - على أن الكل يحترم من يحترم دينه وعقيدته وأن الكل يحتقر ويزدرى من يفرط فى دينه أو عقيدته .



لوحة شهيرة وبديعة من كتاب الموتى لمؤلفه الكاتب «آنى» وهى تمثل منظر المحاكمة فى الآخرة وقد نصب الميزان حيث وضع القلب فى كفة وفى الكفة الأخرى ريشة .

وظهر فى الصورة إلى اليمين المعبود «نحوت» (الكاتب برأس أبيس) يدون الحكم ومن خلفه (أقصى اليمين) تربص «الملتهمة» بشكلها المفترس تنتظر التهام الروح إذا صدر الحكم بأنها ظالمة .

وإلى اليسار من أسفل ترى «آنى» وزوجته متلاصقين يدخلان فى خشوع ويحدق «آنى» بنظره إلى قلبه . وفوق الميزان كتابة بالهيروغليفية تعبر عن صلوات «آنى» حتى لا يخونه قلبه .

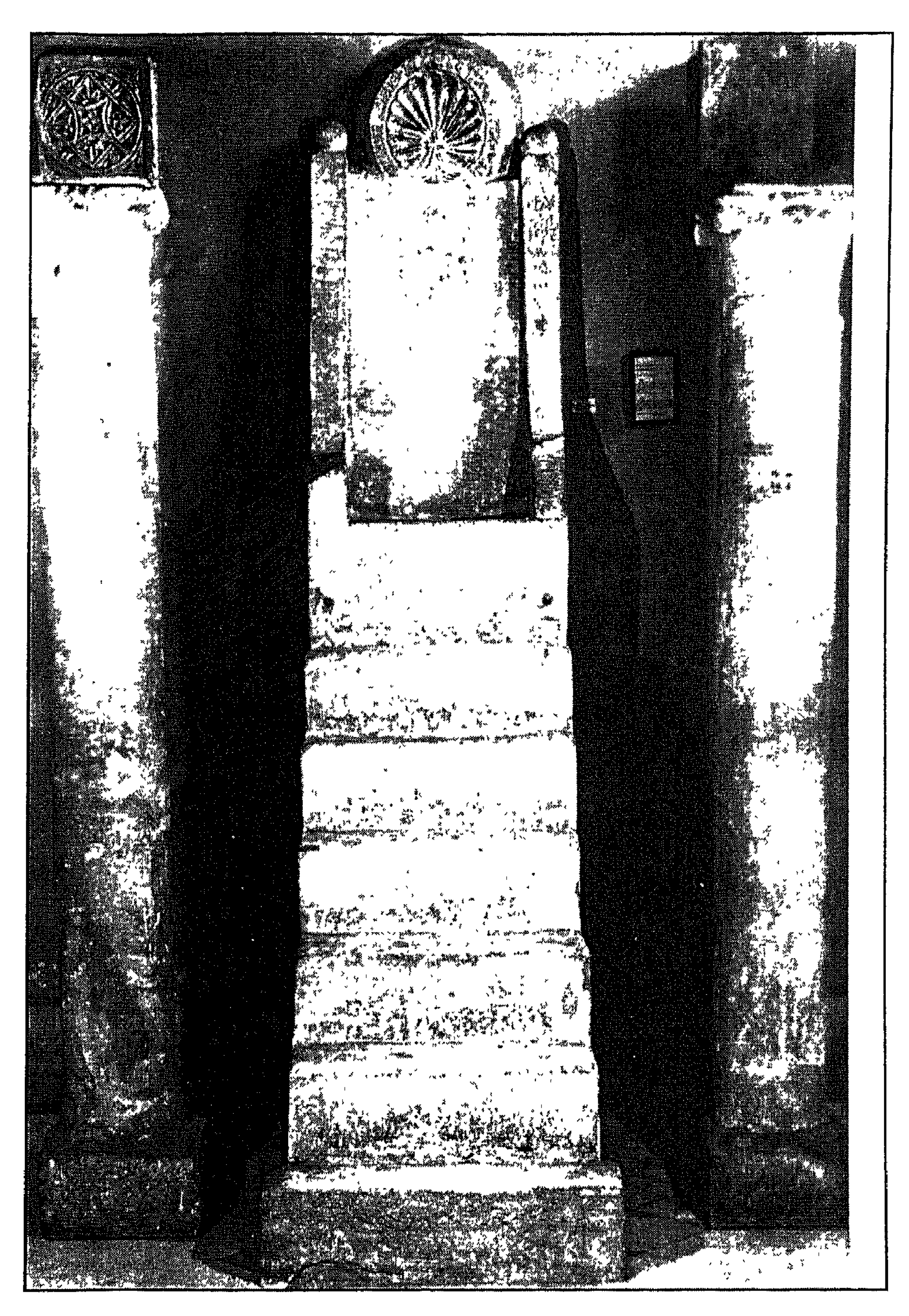
وفى أعلى الصورة مجموعة من الآلهة القدامى يشهدون المحاكمة ، بينما فى أقصى اليسار إلهتا الولادة تراقبان «الأصل الملون الجميل مأخوذ من لوحة ١٣ ص ١٦٨ من كتاب «مصر القديمة» الصادر عن منشورات المتحف البريطانى بلندن طبعة

المحاسبة بعد الموت . . الفراعنة أول من عرفها وسجلها

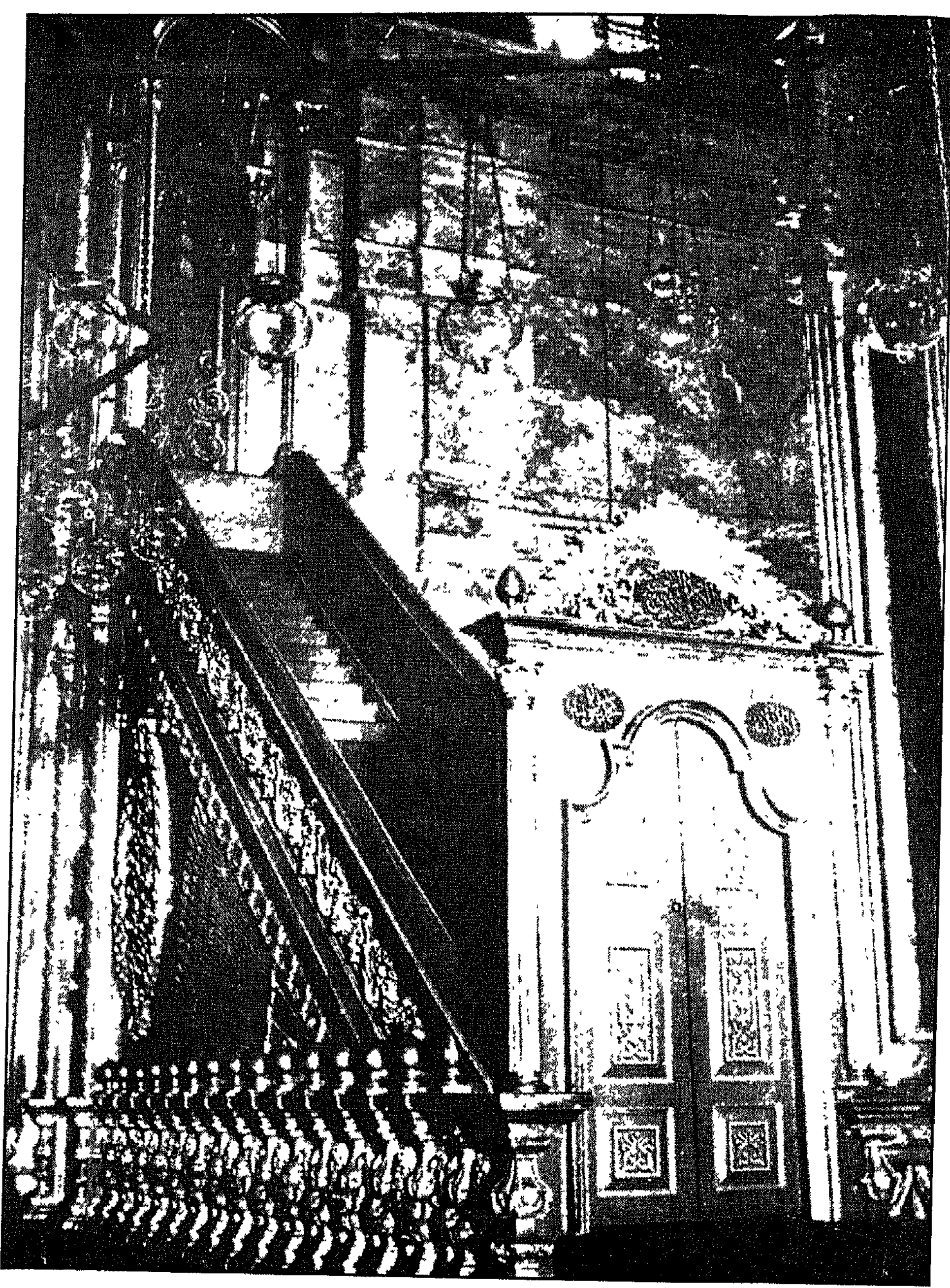
بعض أسئلة القضاة فى حساب المحكمة عند قدماء المصريين*

١ ـ هل عشت أجلك الذى حدده لك الإله كاملا؟
٢ ـ هل راعيت حق بدنك عليك كما رعاك الإله فى شبابك؟
٣ ـ هل حفظت جسدك طاهرا كرداء نظيف لم تلوثه القاذورات .
٤ ـ هل تغلبت على شهوات جسدك؟
٥ ـ هل حافظت على حسن سمعتك؟
٦ ـ هل امتدت يدك إلى سرقة ما ليس لك؟
٧ ـ هل قتلت نفسا بغير حق؟
٨ ـ هل نظرت إلى من هو أغنى منك أو أشهر منك بعين الحسد أو الحقد؟
٩ ـ هل سكرت حتى فقدت عقلك وأصبحت ارادتك أسيرة الأهواء؟
١٠ ـ هل أذيت حيواناً أو عذبته بغير سبب؟
١١ ـ هل شعرت برغبة جامحة فى معرفة أمور وجب ألا تسمعها أذناك أو تراها عيناك؟
١٢ ـ هل تجنبت طريق الصواب عندما وجدته محفوفاً بالمخاطر؟
١٣ ـ هل تعلقت بالدنيا وربطت نفسك بها بسلاسل من ذهب؟
١٤ ـ هل شغلت عيناك بأمور الدنيا حتى عميت عن أمور الآخرة؟
١٥ ـ هل تعاملت فى الأسواق بالعدل والأمانة ولم تسقط فى الميزان؟
١٦ ـ هل أخذك الغرور بذكائك فعميت عليك حكمتك؟
١٧ ـ هل ربطتك سلاسل الكراهية بإنسان؟
١٨ ـ هل جلبت الرضا لقلب أمك . . . والشرف لبيت أبيك؟
١٩ ـ هل خنت جارك أو صديقك الذى أئتمنك على عرض بيته؟
٢٠ ـ هل صورتك التى انعكست فى قلبك صورة مشرقة؟
٢١ ـ هل تبينت أن نهاية كل مرحلة من مراحل حياتك هى بداية لمرحلة أخرى؟
٢٢ ـ هل صادقت قلبك واستمعت لصوت ضميرك فكانا حسيب صدق على أعمالك؟
٢٣ ـ هل داومت على زيارة بيت الإله وبجلت خدامه من الكهنة الصادقين وشاورتهم فى أمر دينك؟

* ترجمت من أصل فرعونى .

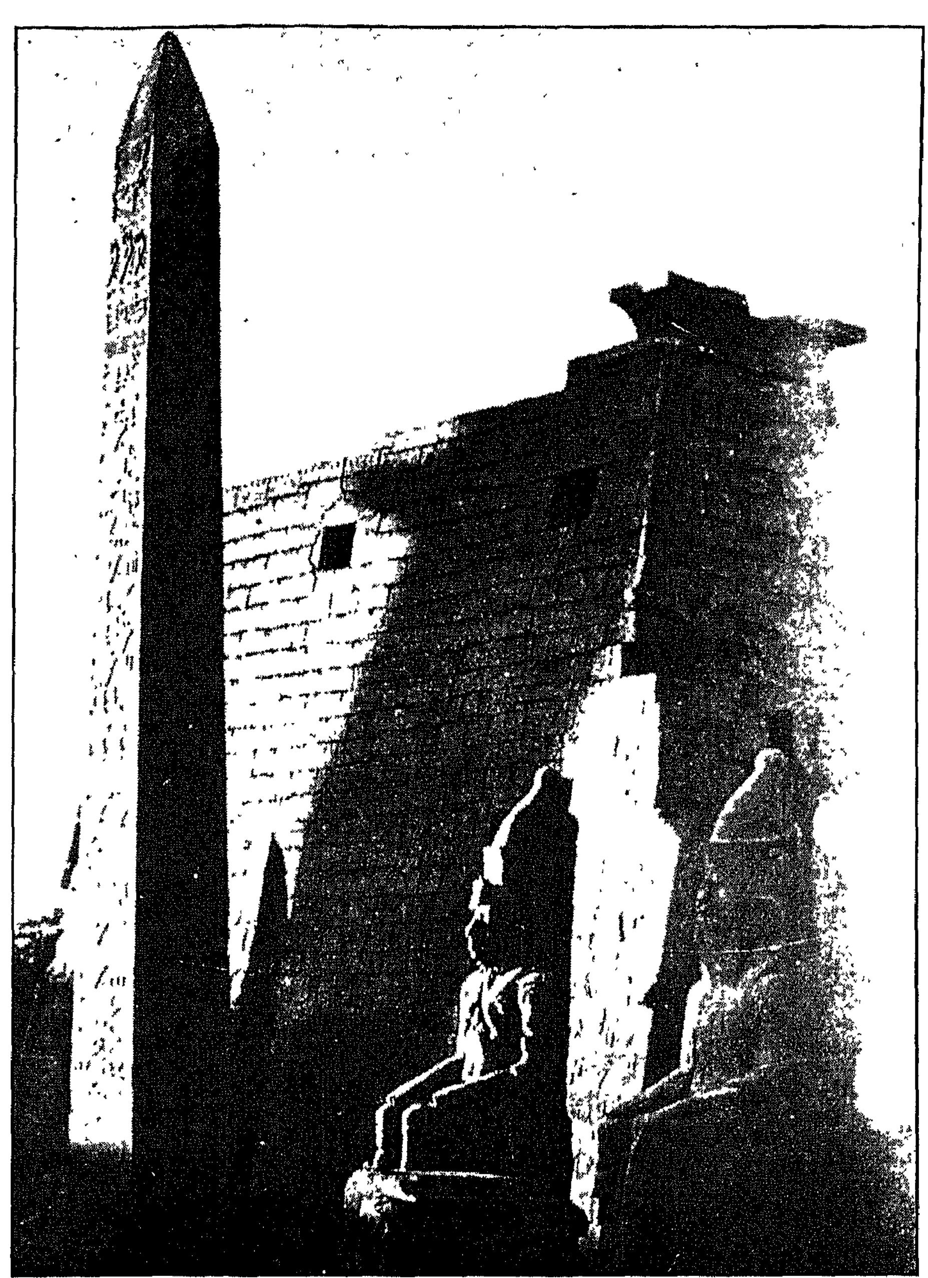


منبر منحوت من الحجر فى القرن السادس



منبر منحوت من الحجر وجد فى دير الأبنا ايليا بمنطقة صقارة ونقل إلى المتحف القبطى ويرجع تاريخه إلى القرن السادس الميلادى ثم تطورت طريقة بنائه ليكون من الخشب ، ويوجه فى الكنائس والمساجد ، كلها بدأت فى مصر ومنها انتشرت إلى كنائس العالم .

منبر من خشب في الجامع الأزهر



كلها جاءت من مصر . . ! !

المسلة تدعو الناس للدخول إلى معبد الأقصر وعنها جاءت المنارة فى الكنيسة تحمل الجرس لدعوة الناس للصلاة .

ثم جاءت المئذنة يدعو منها المؤذن إلى الصلاة فى الجامع .

الفصل الثالث

الأعمدة السبعة للشخصية المصرية

أولا: انتماءات تاريخية أربعة

الانتماء الفرعونى. اليونانى الرومانى. القبطى. الإسلامى

- أربعة أعمدة من التاريخ وثلاثة من الجغرافيا .
- داخل كل منا فرعون صغير أو كبير حسب موقعه .
- قصة بنى إسرائيل وخروجهم من مصر ، تاريخيا .
- لدينا عقدة كبرياء وعقدة نقص معا .
- آذان الصلاة يذكرنى بألحان الكنيسة .
- انتشار الرهبنة فى العالم بدأ من مصر .
- الكنيسة القبطية لم تتذوق السلطة المدنية أبدًا .
- اضطهاد هرقل جعل الأقباط مرحبين بالعرب .
- مصر لم تفتح بحد السيف فكانت بداية طيبة .
- كان التحول إلى الإسلام والعربية بطيئا ولقرون .



أولا: انتماءات تاريخية أربعة

إن ظاهرة التعددية فى مصر Pluralism لا تقتصر على وجود المسيحية والإسلام ، وتعايشهما أربعة عشر قرنا ، هى عمر هذه المشاركة بأسرها على سطح البسيطة ، ولكن مصر تتمتع بعد ذلك وقبله بخصائص حضارية أثرت فى تكوين الشخصية المصرية وهى ما أرمز لها بالأعمدة السبعة التى تكون وتؤثر فى هذه الشخصية وموجودة ولها تأثيرها فى كل منا بدرجات متفاوتة ، وذلك نتيجة كل من التاريخ والجغرافيا على حد سواء .

فمن الناحية التاريخية لابد أن تكون الشخصية المصرية قد تأثرت بالرقائق المتتالية للحضارات التى عاصرتها مصر والتى تمثلت فى الحقبة الفرعونية بمراحلها المختلفة وما تلاها من الحقبة اليونانية ـ الرومانية وهى متداخلة فى المرحلة القبطية ثم الحقبة الإسلامية بمراحلها المختلفة .

وفى هذه المراحل المتتالية غيرت مصر لغتها وديانتها ثلاث مرات ، فكانت ، أولا اللغة المصرية القديمة والتى كانت تكتب بحروف هيروغليفية ، ثم تطورت إلى الهيراطيقية وهى لغة الكهنة والخاصة أخيرا الديموطيقية وهى لغة الشعب الدارجة ، وفى تلك الحقبة تكونت العقائد الدينية للمصريين القدماء وهى جملة العقائد المتطورة عبر هذه الحقبة والتى عرضها بأسلوب شيق وممتاز العلامة الإنجليزى خبير المصريات هنرى برستيد فى كتابه الشهير فجر الضمير والذى نقله إلى العربية العلامة المصرى خبير المصريات سليم حسن ، ثم تلا ذلك أن غيرت مصر لغتها إلى اللغة القبطية ، ويعتبرها خبراء اللغة أنها ذات اللغة المصرية القديمة وإنما فى آخر أطوارها وقد صاحب ذلك تغيير الديانة إلى المسيحية ، ولذلك دمجنا معا تغيير اللغة والدين فيما يسمى بالمرحلة القبطية ، وإن كان ذلك متداخلاً تاريخياً مع الحقبة اليونانية ـ الرومانية من ناحية التبعية السياسية .

ومع دخول العرب إلى مصر وتدريجيا تم التغيير الثالث والأخير فتحولت أغلبية من الشعب المصرى إلى الإسلام وبقيت أقلية مسيحية ، ولكن شعب مصر بأسره تحول إلى اللغة العربية ، ومن ثم تكون شعب واحد يتحدث لغة واحدة وله خصائص حضارية وإنسانية واجتماعية واحدة وإن كانت هناك ديانتان تعايشتا قرونا طويلة .

ولكى نوضح كيف أن هذه الرقائق من الحضارات المختلفة تؤثر فى تكوين الشخصية المصرية وتعطيها نكهة خاصة ومذاقا مختلفا - يمكننا أن نقارن مصر بحالة شعب الصين - وهو شعب له حضارة قديمة وعريقة - إلا أنهم فى الصين قد احتفظوا - وبشكل عام - بذات الديانة وبذات اللغة عبر آلاف السنين .

أما من الناحية الجغرافية فقد أعطى موقع مصر خصائص وانتماءات لا فكاك منها وعلينا أن نستفيد منها ونستثمرها فى تحركاتنا السياسية والحضارية والاجتماعية ، فمصر كانت وستظل قلب الأمة العربية بحكم موقعها المتوسط بين ليبيا وتونس والجزائر ومراكش غربا وبين الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان والعراق شرقا ثم منطقة الجزيرة العربية والسودان جنوبا وشرقا .

وتنتمى مصر إلى مجموعة شعوب ودول حوض البحر الأبيض المتوسط جغرافيا وتاريخيا وقد انعكس ذلك على كافة صور الحضارة وعلى التركيبة النفسية للإنسان المصرى فوجد فى نفسه تشابها مع كثير من شعوب البحر المتوسط ، فمن يدرس بتمعن التركيبة النفسية وملابس وعادات أهالى الإسكندرية وبورسعيد ورشيد ودمياط يجد تشابها مع أهالى قبرص واليونان وتركيا وإيطاليا وغيرها فضلا عن بعض الدول العربية المطلة على البحر المتوسط والتى تأثرت بحضارات البحر المتوسط كذلك .

وأخيرا فإننى أرى فى انتماء مصر إلى أفريقيا - وهو العمود السابع والأخير - هو انتماء المستقبل لمصر ، وإذا كانت مصر لم تكتشف انتماءها الأفريقى إلا منذ الستينيات عندما ساعد عبد الناصر حركات التحرر الأفريقية ، لكننى أتصور أن الكثير من مشاكل مصر سوف يحل من خلال الارتباط مع أفريقيا وبالذات فى القرن القادم .

وقد عبر د . جمال حمدان فى مؤلفه القيم شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان - وبأسلوبه الفذ عن ذلك : فمصر إن تكن أفريقية بأرضها ومائها ، إلا أنها قوقازية أوروبية بجنسها ودمائها ، والمصريون بهذا المعنى أنصاف أو أشباه أوروبيين . هى إذن قطعة من أفريقيا ، غير أنها إلى ذلك أسيوية التوجه والتاريخ والتأثير والمصير ، إنها بآسيا وإليها .

وفى المحصلة الصافية فإن مصر نصف أوروبية ، ثلث أسيوية ، سدس أفريقية وفى داخلها تبدأ أوروبا عند الإسكندرية وآسيا عند القاهرة ، وأفريقيا عند أسوان .

ومن بين هذه الأعمدة أو الانتماءات السبع للشخصية المصرية - كما أراها - اختار جمال حمدان من الانتماءات التاريخية ، الانتماء الفرعونى ومن الإنتماءات الجغرافية الانتماء العربى ثم مزج بينهما فى عبارات بليغة فيقول : فرعونية هى بالجد ولكنها عربية بالأب ، غير أن كلا من الأب والجد من أصل مشترك ومن جد أعلى واحد ، فعلاقات القرابة والنسب متبادلة وسابقة للإسلام بل وللتاريخ .

ولهذا فإن التعريب - وإن كان أهم وأخطر انقطاع فى الاستمرارية المصرية - لايمثل ازدواجية بل ثنائية . فلا تعارض ولا استقطاب بين المصرية والعربية وإنما هى اللحمة والسداة فى نسيج قومى واحد .

دعنا إذن نناقش ونستعرض - فى شىء من التفصيل - هذه الانتماءات أو الأعمدة السبعة والتى أثرت على التركيبة الخاصة للشخصية المصرية وأمدت حاضرها بتراث مجيد ، وذلك قبل أن نستطرد فى الحوار حول الانتماءات الفردية - والتى تحتاج مع هذه الأعمدة السبعة إلى «مايسترو» يكون منها ومعها «سيمفونية» .

العامود الأول : الانتماء الفرعونى

إن إحساس المصرى بفرعونيته يختلف من شخص إلى آخر ومن فئة إلى أخرى ، وقد تغير هذا الإحساس بالانتماء الفرعونى عبر تاريخ مصر الطويل ، ففى عهود القهر والاحتلال والتخلف يُطمس الانتماء الفرعونى لأنهم يصورونه وكأنه نوع من «الكفر» لأن الفراعنة قد عبدوا آلهة رمزوا لها بحجارة وتماثيل ، وبهذا الفهم الساذج ألقوا بالموميات قديما فى مناطق مهجورة ووصفوها بأنها «مساخيط» تجلب الشؤم وتحمل السحر .

ولم أكن مصدقا ما نشر من رغبة الرئيس السادات بأن تقوم الدولة بدفن الموميات فى مقابر خاصة بعد أن تجرى مراسيم الدفن وفق الشعائر الدينية السائدة الآن . حمدا لله أن مات السادات قبل أن يحقق هذا العمل ، وإلا لكان قد وارى التراب تراثا ملموساً هاماً لمصر وللإنسانية ، رغم أنه كان يعتبر نفسه «آخر الفراعين» .

على أن الإحساس بالفرعونية لم يكن مقصوراً على السادات أو رؤساء الجمهوريات والملوك المصريين ، بل أقول «بأن داخل كل مصرى فرعوناً صغيراً» أو

كبيراً يظهر في الوقت المناسب» ، قد يكون متقمصاً داخل بعض الوزراء أو المديرين ولكننى كثيراً ما أراه متجسداً فى شخصية بعض صغار الموظفين ، أو الضباط أو العسكر ، والذين يشعرون أنهم يعملون فى «بلاط فرعون» ومن حقهم أن «يتفرعنوا» على أصحاب المصالح من عامة الشعب والواقفين فى انتظار موافقتهم أو إمضاءاتهم ، ولعل هذا هو أحد أسباب رسوخ مفاهيم البيروقراطية فى مصر ، من «الخفير إلى الوزير» .

ويعود اعتزاز المصريين بالانتماء الفرعونى إلى أن مصر قد قدمت العالم بالفعل أقدم حضارة معروفة ومدونة فى العالم ، وأشك فى أنه توجد دولة أو حضارة أخرى تضاهى حضارة مصر فى انتشار آثارها فى كل متاحف للعالم من اللوفر وحيث مسلة مصر فى قلب أكبر ميدان فى باريس إلى المتحف البريطانى ومسلة أخرى على نهر التيمس فى لندن ، وفى أمريكا ولينينجراد وغيرها ، وقد دهشت وأنا طالب للدراسات العليا فى أسكتلندا ، أن وجدت موميات مصرية قديمة مهداة من مواطنين من أسكتلندا إلى متحف مدينة بيرث PERTH وهى مدينة صغيرة جداً بين أدنبرة وداندى .

وعلى هذه الآثار سُجِّلت كافة أوجه النشاط الإنسانى من مأكل ومشرب وملبس وأدوات تجميل وآلات موسيقى وأدوات إنتاج زراعى وأساليب الكتابة والنقش على الصخر وجدران المعابد ، وتشكيل التماثيل للإنسان والحيوان من كافة الأحجام وفنون التحنيط وغير ذلك من أمور الدنيا والحياة اليومية وسجل كذلك علوم الفلك والرياضة والطب والفلسفة فضلاً عن أنها أقدم تنظيم لدولة وإدارة لشئون الحكم ولتنظيم الحياة ومياه الرى فى أقدم مجتمع زراعى مستقر ومستتب .

وما من فرع من فروع العلم له بداية تاريخية إلا ويحاول المؤلف أو الكاتب أن يتعرف على ما قدمه المصريون القدماء فى هذا المجال ، وأذكر أن زميلاً وصديقاً إنجليزياً - ديرك برادلى أستاذ الهندسة الميكانيكية فى جامعة ليدز - حضر لزيارة مصر وكان أحد أهدافه دراسة التشحيم عند قدماء المصريين وماذا كانوا يصنعون عند دوران العجل المستخدم فى الحروب على المحاور المعدنية وكان ذلك مقدمة كتابه عن علم «التشحيم والتزييت» فى وقتنا الحالى .

وستظل الاكتشافات تتوالى على مر الأيام والسنين لكنوز قدماء المصريين ، ولكننى أعتقد أن ما عرفناه من الحجارة والنقوش للمعابد والمقابر قد يكون كافياً ،

ولكن الأهم من ذلك هو معرفة وفحص ما ظهر ويظهر من البرديات التى توضح الشعر والأدب والفن والمعتقدات والعلاقات الإنسانية والبشرية . . فهى فى مجملها لاتزال غامضة ، والكتابات عنها ليست كثيرة ، ومن هنا . . فقد وجدت فى كتاب «فجر الضمير» للعلامة الإنجليزى الشهير وخبير المصريات BREASTED بريستد . . ما يشفى شغفى ولو بصورة جزئية ، وأستسمح القارئ فى أن أنقل إليه بعض المقاطع(٢) :

« . . الواقع أنه لايوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت ، المكانة العظيمة التى احتلتها فى نفس الشعب المصرى القديم ، ومن الجائز أن ذلك الاعتقاد المُلح فى الحياة بعد الموت كان يعضده كثيرا ، ويغذيه تلك الحقيقة المعروفة عن تربة مصر ، ومناخها وهى أنها تحفظ الجسم الإنسانى بعد الموت من البلى إلى درجة لاتتوافر فى أية بقعة أخرى من العالم»! .

«وعندما كنت أشتغل بنقل نقوش بلاد النوبة منذ سنوات طويلة كانت الأحوال كثيرا ما تضطرنى إلى المرور بطرف جبانة فيها ساق لإنسان ميت مدفون فى حفرة ليست عميقة فإذا بى ألاحظ أن ساق وقدم هذا الإنسان الميت منذ سنوات طويلة لاتختلف كثيرا عن الأقدام الخشنة للعمال الذين كانوا يعملون معنا فى حفائرنا فى تلك الجهة» .

«إن كل من له خبرة بجبانات مصر قديمها وحديثها لابد أنه عثر على جثث بشرية كاملة ـ أو أجزاء منها ـ قديمة جدا ولكنها باقية ومحفوظة أحيانا إلى درجة تجعلها تشبه تماما أجساد البشر الأحياء» .

«لابد إذن أن حالة الحفظ التامة والمدهشة للأجساد البشرية التى وجد المصرى عليها أجداده الذين كان يكشف عنهم عندما يقوم بحفر قبر جديد فى ذلك الوقت قد زادت اعتقاده فى بقاء تلك الجثث البشرية إلى الأبد وأيقظت فى خياله صوراً عظيمة فى تفاصيلها عن عالم الأموات الذين رحلوا إلى الآخرة وعن حياتهم فيها» .

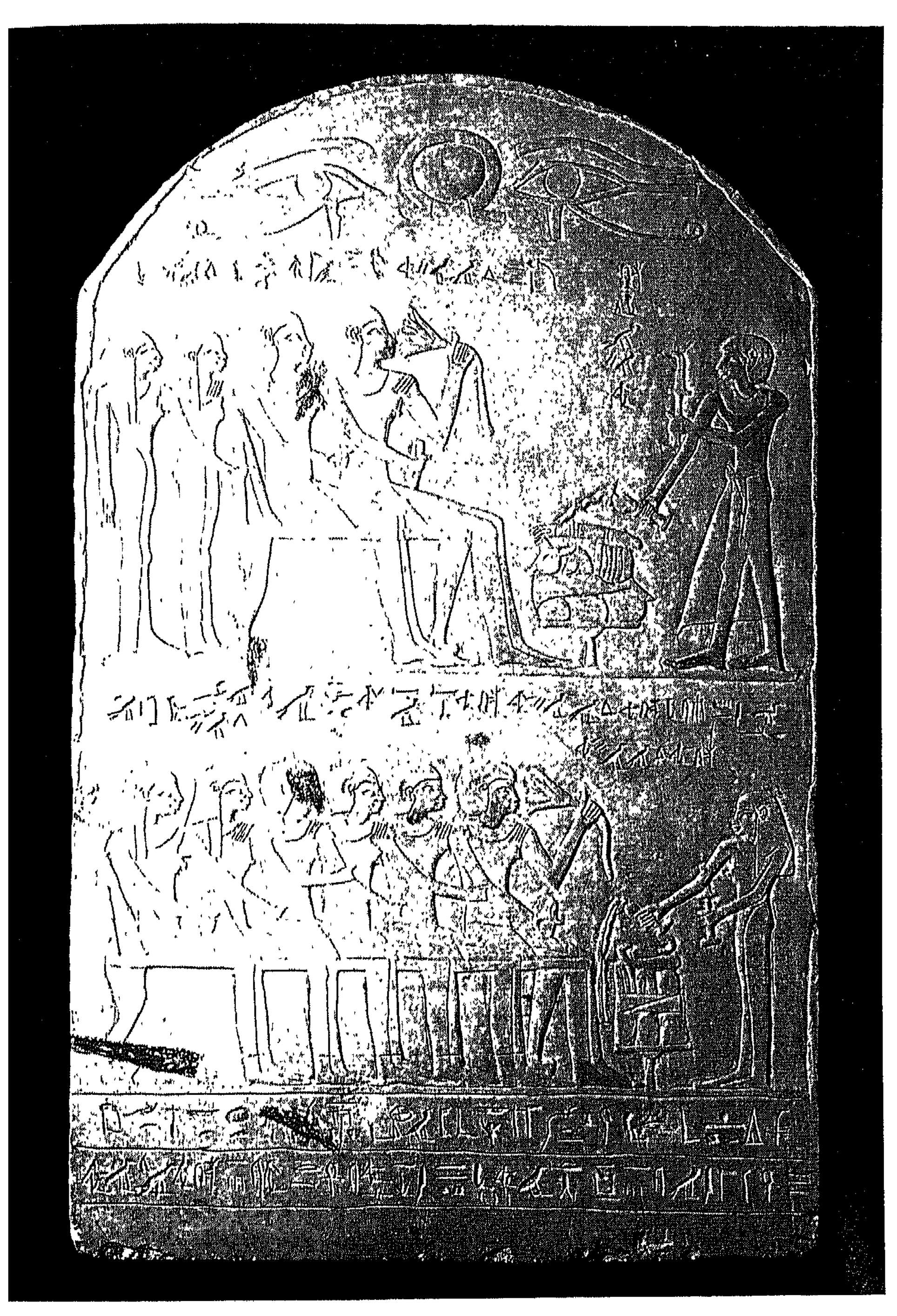
«وقد بدأ أقدم تلك الاعتقادات وأبسطها فى زمن سحيق فى القدم . . حتى أنه لم يبق لها ذكر فى الآثار التى وصلت إلينا . . وقد حفرت آلاف من هذه القبور الواقعة على طول حافة وادى النيل الخصب مما يرجع تاريخ أقدمها إلى الألف الخامسة قبل الميلاد» .

«والمفروض أنه قد مضى مالايقل عن ١٥٠٠ سنة على عهد هذه المعتقدات



تصوير
لحظة فراق الروح للجسد

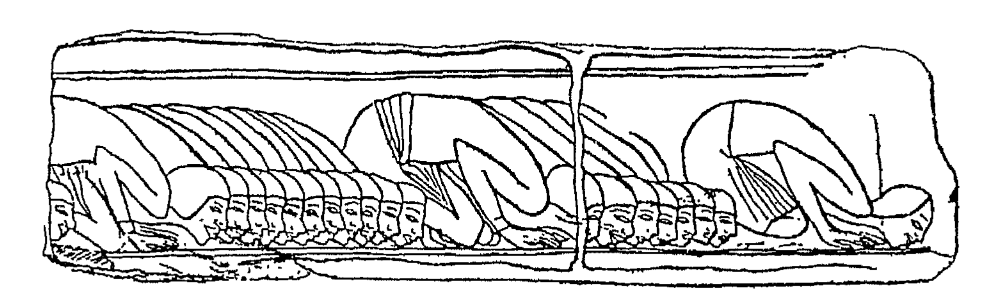
لوحة بديعة مأخوذة من كتاب الموتى لكاتبه آنى وتعبر عن الروح «با» وهى تحوم حول الجسد المسجى على سرير والملفوف فى الكتان وصار مومياء.
لاحظ أن البا فى يدها مفتاح الحياة عنخ (   )
(لوحة مأخوذة من أصل ملون لوحة ١٥ أمام صفحة ١٦٩ من كتاب «مصر القديمة». والصادر من المتحف البريطانى بلندن. طبعة عام ١٩٨٧.



التبرك بإسم الملك الالة قبل تناول الطعام والشراب



لوحة تظهر وحدانية الآلهة



السجود والركوع ـ وصلاة الجماعة خلف الإمام
من كتاب أخناتون للدكتور سيد كريم

القديمة الممثلة فى هذه المدافن إلى أن وصلنا إلى مرحلة ظهور أقدم الوثائق المدونة التى تكشف عن عقيدة دينية نامية لشعب يسمو بسرعة نحو حضارة مادية راقية ، إذ يمكننا أن نتتبع طريق هذا الرقى أثناء عهد الاتحاد الثانى الذى بدأ حوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد» .

«لقد كان للمصرى القديم تصوره الخاص لطبيعة الإنسان ويتصور أن شخصية الإنسان الحقيقية فى الحياة . . وتحتوى على الجسم المادى «الظاهر» فضلاً عن الفهم الباطن ومقره فى اعتقاده هو «القلب» أو «الجوف» وهما التعبيران الرئيسيان عن العقل ويحتوى هذه الشخصية أيضا على الجوهر الحيوى المحرك للجسم ويقصد به «النفس» كما يلاحظ عند الكثير من الشعوب الأخرى . . غير أن هذا الجوهر الحيوى لم يكن مميزا بشكل ظاهر عن العقل ، وكان الاثنان يمثلان معا فى رمز واحد هو طائر له رأس إنسان وذراعاه ، ونجده مصورا فى المناظر التى على القبور ، وعلى توابيت الموتى يرفرف على الموميا ، ويمد لأنفها بإحدى يديه صورة شراع منشور ، وهذا الشراع هو الرمز المصرى القديم «للهواء» أو «للنفس» ويحمل فى يده الأخرى علامة هيروغليفية ترمز للحياة والمصريون يسمون هذا الطائر الصغير الممثل برأس إنسان وجسم طائر «با» .

«وعندما يبتدئ المتوفى حياة جديدة فى الآخرة لايعرفها . . كان يساعده فى ذلك ملاك يحرسه يسمى «كا» يظهر فى الوجود مصاحبا لكل إنسان من وقت ولادته ويرافقه فى كل حياته حتى ينتقل قبله إلى العالم الآخر» .

انتهى نص الفقرات من كتاب فجر الضمير .

وقد استوقفنى هذا التشابه المصرى القديم ووجود البا والكا أو الظاهر والباطن ووجود الجسم والعقل وما هو معروف عند فلاسفة الهنود الأقدمين الذين قدموا اليوجا ، وأخيراً نشر عالم الطبيعة الشهير ماهاريشى ماهيشى يوغى طريقة فى «التأمل التجاوزى» TRANSCENDENTAL MEDITAION للمصالحة بين الجسم والعقل وصولاً إلى المنبع اللا محدود من الذكاء والإبداع والطاقة الكامنة فى أعماق كل منا والتى تربط بين البشر جميعا .

وربما تثبت الكشوف الأثرية فى قرن قادم علاقة ما بين فكر الفراعنة فى مصر وفكر الحكماء والمتصوفين فى الهند !!

ومن الناحية الفكرية والأدبية قدم الفراعنة نماذج للشعر والفكر والحكمة فى كل

صورها وابتكروا قصصا وأساطير دينية كونت عقائد كثيرة للحياة وفيما بعد الموت ثم الثواب والعقاب ، وقد أثرت كل تلك العقائد فى صياغة الديانات فى منطقة الشرق الأوسط ، والتى نسميها الديانات السماوية ويسمونها فى الغرب الآن بالديانات الإبراهيمية Ibrahamian Religions وذلك لأنها كلها تُجمع على أن نقطة الالتقاء لها جميعا هو سيدنا إبراهيم خليل الله .

ووفق قصة التوراة فإن إبراهيم عاش فى الجزء الأول من بدايات الألف الثانية قبل الميلاد أى نحو سنة ١٨٠٠ق .م وقد نشأ فى أور (وهى مدينة فى العراق الآن) ، أو فى حران فى بيئة تعبد الإله سن رب القمر «زين» وثار إبراهيم على عبادة قومه ودعا للتوحيد وهاجر غربا إلى كنعان مع مريديه ، واستمرت فكرة التوحيد فى نسل إبراهيم وعبر إسحاق ويعقوب (إسرائيل) حتى موسى والذى يرى كثيرون من العلماء أنه ينتمى إلى القرن الثالث عشر ق .م .

ويقول د . لويس عوض فى مؤلفه المرجعى «مقدمة فى فقه اللغة العربية»(٣) أن بنى إسرائيل كانوا قبائل مسالمة جاءوا يطلبون الكلأ من شرق سيناء فى إقليم جوسن حول بحيرة المنزلة بسبب جفاف ديارهم ، وكان ذلك أيام حكم الهكسوس لمصر ، وعاشوا فى كنفهم وفى خدمتهم فى شرق الدلتا .

وربما كان «عزيز مصر» الذى ارتفع يوسف الصديق فى بلاطه هو ملك الهكسوس «أسيس» Assis أو كرتوس Kertas الذى ورد ذكره فى مانيتون وفى بردية تورين هو آخر الهكسوس العظام الذين يبدو من تسلسل الأدب أن عصره السعيد قد انتهى بهذه المجاعة التى تسمى «بالسنين السبع العجاف» ومعنى هذا أن دخول بنى إسرائيل مصر كان نحو ١٦٥٠ق .م . وأنهم لم يرحلوا عن مصر مع الهكسوس المطرودين عام ١٥٦٧ق .م . بل ظلوا فى البلاد نصف متمصرين ومتركزين أساساً فى شرق الدلتا حيث كانت أفاريس والتى أسسها الهكسوس (وهى قرب تل الضبعة الآن) حيث أقاموا فيها أكثر من قرنين حتى بعد أن أقام رمسيس الثانى مدينة «بى - رمسيس» فى ذات الموقع .

أما قصة خروج بنى إسرائيل من مصر بالمطاردة والعنف كما وردت فى التوراة فتتفق مع النصوص المصرية القديمة الخاصة بطرد الهكسوس على يد أحمس وبطرد بنى إسرائيل على يد منفتاح بين ١٢٢٣ ، ١٢١٥ق .م .

ورواية التوراة تقول إن موسى ولد أيام اضطهاد المصريين لبنى إسرائيل وكان الأمر

المفروض على كل أسرة إسرائيلية أن تقتل كل ذكر يولد لها وقد حرصت أمه على إنقاذ حياته فوضعته فى سلة وهو لايزال فى شهره الثالث وتركته على شاطئ النهر حيث اعتادت ابنة فرعون أن تستحم ، فلما وقع بصرها على الطفل رق له قلبها فأنقذته وتبنته ، وبالطبع نشأ فى بلاط فرعون .

أما رواية مانيتون ـ ولازال الكلام والرواية للدكتور لويس عوض ـ فهى أن موسى كان كاهناً مصرياً فى معبد رع بهليوبوليس ويحمل اسم «سرسيف» وكانت له دعوة دينية جديدة ، فخرج على كهنة رع وهاجر إلى «أفاريس» عاصمة الهكسوس وهناك أقام بينهم وعلمهم ديانته وأعطاهم شرائعه ثم قادهم فى خروجهم من مصر وقد سموه فى أفاريس «موسى» بمعنى «ابن النهر» (انتهى النص) .

وليس الهدف هنا هو محاولة إيجاد صياغة توفيقية بين ما ورد فى التوراة وبين ما أمكن للتاريخ أن يحققه ، وإنما أردت أن أبرز أن هناك بالفعل علاقة فكرية بين عقائد قدماء المصريين وبين عقيدة موسى ويقال إن هناك تأثيراً واضحاً بين ثورة إخناتون التوحيدية وبين ما بلوره موسى فى العقيدة اليهودية . كما أثرت أدبيات إخناتون على مزامير داود وأمثال سليمان .

ويبدو لى الآن من خلال قراءتى المتأنية للمؤلف المصريولوجى ـ أى عالم الآثار للمصريات وعهد الفراعنة ـ جيمس هنرى بريستد فى كتابه «فجر الضمير» أن هذه القضية قد احتلت حيزا محترما من فكره ، من منطلق أنه دارس لنصوص برديات الفراعنة ، ومتابع جيد لنصوص التوراة ، فهناك أورد فى الفصل السابع عشر بعنوان «مصادر إرثنا الخلقى» عشرات المقارنات بين نصوص كتبها أمينوبى الحكيم المصرى القديم ، وبين نصوص أخرى كثيرة وردت فى سفر الأمثال : (فى التوراة) وكذلك نصوص أخرى فى أشعياء ـ وأرميا ـ وسفر «أناشيد الإنشاد» وإلى التشابه المدهش الموجود بين المزمور ١٠٤ ـ وبين الأنشودة الإخناتونية المنظومة لإله الشمس .

ويستخلص بريستد من كل ذلك : «أن النتائج الأساسية التى قامت وستقوم عليها دعامة المبادئ الأخلاقية فى الحياة المتحضرة فى أيامنا . . كانت قد اهتدت إليها الحياة المصرية قبل الوقت الذى ابتدأ فيه العبرانيون تجاربهم الاجتماعية فى فلسطين بزمن طويل كما كانت تلك المبادئ الخلقية المصرية موجودة فعلا فى فلسطين بصورة مدونة منذ قرون عدة حينما استوطنها العبرانيون(٤) .

على أن الأمر لايقتصر على عقائد قدماء المصريين الدينية ، ولكن نصوص

بعض البرديات العامة قد صورت لنا الأساطير والحكم والفكر السائد لديهم عبر عصور الحقبة الفرعونية على امتدادها .

ومن أشهر وأهم هذه الوثائق القديمة ما يعرف بتحذيرات الحكيم «إبور» وتنبؤات الكاهن «نفرروهو» ثم القصة التى أصبحت تعرف باسم «شكوى الفلاح الفصيح» .

وفى مقدمة كل هذا الأدب الشعبى أسطورة «أوزوريس» أو «أوزير» . . . والتى عاشت لقرون طويلة جدا منذ ما قبل الأسرات حتى اعتنق المصريون المسيحية ، وتتلخص الأسطورة فى : أن الملك الإله «ست» ملك وإله يخافه الناس ولايحبونه ، ذو لون أحمر ، ويأتى أعمالاً شريرة لونها أحمر ، وهو عدو للخير ، وهو متعسف تخافه وتخشاه كل الآلهة ، هذا الملك والإله «ست» قام بالخديعة بقتل أخيه «أوزوريس» طمعاً فى عرشه ، إذ كان الملك الإله «أوزوريس» يضفى عليه المصريون كل الفضائل والصفات الطيبة وهو الذى يثبت دعائم العدل والحق فى كل مكان ، ويهب الناس الحياة من أنفاسه .

وتسعى «إيزيس» لأن تنجب من «أوزوريس» الميت فيكون «حورس» هو المخلص لمصر والمصريين من الملك الإله الشرير «ست» ، إن المخلص الذى هو «حورس» قد أشار إليه الحكيم «أبور» فى غموض حينما قال محدداً سماته : «فهو يطفئ اللهيب ويقال إنه راع لكل الناس ، ولايحمل فى قلبه شراً» .

وفى تنبؤات الكاهن «نفرروهو» يذكر أنه سيأتى ملك من الجنوب اسمه «أمينى» وهو ابن امرأة نوبية ، ينشر السلام فى الأرضين - يعنى الوجهين القبلى والبحرى - وسيفرح أهل زمانه وسيجعل ابن الإنسان اسمه باقياً إلى أبد الآبدين[٥] .

ويعتقد كثير من العلماء أن ترحيب المصريين بالمسيحية يرجع إلى أن مبدأ التثليث كان معروفا سائدا ومقبولا لقرون طويلة ويكون جزءا من عقيدة قدماء المصريين ، ولعل أشهرها هو ما يعرف بثالوث طيبة والمكون من آمون الإله الأوحد الخفى وزوجته موت وابنهم خنسو . ومن هنا كان تقبلهم ببساطة للثالوث المقدس فى المسيحية - وهو الأب والابن والروح القدس إله واحد - فضلا عن أن علامة عنخ والتى تعنى مفتاح الحياة عند المصريين القدماء تشبه إلى حد كبير علامة الصليب + والذى صار رمز الخلاص فى المسيحية ، كما أن هناك إجماعاً على أن كلمة (آمين) والتى تقال فى ختام كافة الصلوات فى كل من المسيحية والإسلام ، ما هى إلا تحوير بسيط للفظ الإله «آمون» .

ومن هنا كان حماس أقباط مصر للانتماء الفرعونى ، ليس لأنهم يعبدون إله المصريين القدماء ولكن لأنهم يشعرون أن فى ذلك عمقاً تاريخياً لعقيدتهم المسيحية وتأكيداً لانتمائهم لتراب هذا الوطن بكل تراثه .

وتوجد بالفعل روابط بين الممارسات الدينية والطقوس فى كنيسة الأقباط الأرثوذكس (والتى أصلها أورتا ـ دوكسا أى العقيدة الصحيحة) وبين ما هو معروف من ممارسات «كهنوتية» فى معابد قدماء المصريين ، وربما كان ذلك واضحا فى طريقة بناء الكنائس وتقسيمها إلى مذبح وخورس ثم قاعة الصلاة لعامة الشعب وذلك على نمط المعابد القديمة حيث كانت الذبيحة بالفعل فى مقدمة المعبد أى فى الجزء الأمامى منه ثم مكان للكهنة قريب من المذبح ثم القاعة الكبرى لجمهور المصلين ، وأعتقد شخصيا أن هناك تشابها واضحا بين الوصف الذى ورد فى العهد القديم «التوراة» والخاص بهيكل سليمان وبين ما نراه بالفعل فى معابد الأقصر والكرنك وغيرهما ، حتى مصطلح «قدس الأقداس» الذى يدخله رئيس الكهنة مرة كل سنة ليقدم فيه الذبيحة عن نفسه وعن الشعب ، يكاد يكون ذات المصطلح وذات الكلمات فى النصين ، أعنى النص المستخدم عند قدماء المصريين والنص الوارد فى «الكتاب المقدس»[٦] .

وليس لدىَّ دليل علمى ، ولكننى أتصور أن الألحان والموسيقى والأنغام التى لازالت مستخدمة وتمارس من خلالها الصلوات فى كنائس الأقباط حتى اليوم هى امتداد لموسيقى وألحان وأنغام كانت تمارس فى زمن المصريين القدماء ، لابد أن الكلمات قد تغيرت وبعض النغم قد تعدل ولكن السّلم الموسيقى واللحن لابد وأن يكون من أصول واحدة ، كما أتصور أن الأدوات والآلات الموسيقية البسيطة والتى تستخدم اليوم فى الكنائس أو تلك التى ورد ذكرها فى المزامير والتوراة ، لابد وأن تكون مأخوذة من ذات الآلات التى استخدمها المصريون القدماء والتى سجلوا صورها على معابدهم .

بل لعلى أتجاسر لأذهب لأبعد من ذلك فأقول أن الكثير من الممارسات والتقاليد ـ وبالذات فيما يتعلق بإجراءات الوفاة والجنازات ـ قد انتقل من الفراعنة إلى الأقباط المسيحيين ثم إلى الأقباط المسلمين (أى المصريين الذين أسلموا) وما ممارسات عمل السرادقات وولائم «تقديم الصوانى» وإقامة موائد الطعام عند الوفاة ثم احتفال ذكرى «الأربعين» وغيرها ما هى إلا استمرار لما تعودناه منذ وقت الفراعنة .

وفى حوار مع الأستاذ فهمى هويدى ، اتفق معى على أن بعض الألحان لابد وأن تكون قد انتقلت إلى قراءات القرآن وبالذات فيما يتعلق بالأذان ، لأننى شخصيا أطرب لسماعه وعندما أُغمض عينى أشعر أنه لايختلف كثيرا عن نغم وألحان تقال فى الصلوات للقداسات الكنسية كما وأن التواشيح الدينية الإسلامية لابد وأن تكون قد تأثرت كذلك بنوعية الألحان المقبولة لدى شعب مصر من آلاف السنين .

على أن الانتماء الفرعونى هو إحساس داخلى لدى كل مواطنى مصر دون استثناء بحيث يعطى المصرى مشاعر الاعتزاز والفخر ، لأنه إذا كانت الدنيا كلها تشهد وتشيد بحضارة مصر القديمة فلماذا نحرم المصريين من هذا الاعتزاز والفخار ولذلك فقد تولد لدى المصرى ما يسمى بعقدة الكبرياء Superiority Complex غير أن ذلك ممزوج للأسف مع عقدة النقص Inferiority Complex . نتيجة ما يلمسه المصرى من واقع بلاده الآن إذا قارنه بدول أخرى متقدمة ، ليس فقط فى أوروبا وأمريكا ولكن فى اليابان وكوريا وسنغافورة والهند وغيرها .

على أننى أدرك أن تاريخ الفراعنة لم يكن كله أمجادا وانتصارات وحضارة لأنه ممتد وطويل ، خصوصا إذا قيس بالبعد الزمنى للرقائق التالية له ، والتى لايتجاوز أى منها أكثر من نحو ألف سنة ، فإن جملة حضارة المصريين القدماء المعروفة تصل إلى نحو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد شاملة حضارة ما قبل الأسرات المتعاقبة .

إن الحقبة الفرعونية المسجلة والمعروفة والمدونة باسم ملوكها تمتد وحدها إلى نحو ثلاثة آلاف سنة ، ولا أجد غضاضة فى إعادة التذكير بها بكل ما تشمل من عهود تقدم أو فترات اضمحلال ، وقد وجدت فى كتاب الدكتور ناصر الأنصارى ملخصا جيدا وقد استمده ـ وفقد ما ذكر فى مقدمة الكتاب من وثائق ومصادر معتمدة وهى حجر باليرمو وبردية تورينو وكتابات المفكر الإغريقى هيرودت فى القرن الخامس قبل الميلاد والكاهن المصرى مانيتون فى القرن الثالث الميلادى(٧) .

وتتكون الحقبة الفرعونية من عدة مراحل أو عصور على النحو التالى(٨) :

١ـ العصر العتيق:

ويمتد لنحو ٣٢٠ عاما من حوالى ٣١٠٠ق .م إلى ٢٧٧٨ق .م ويشمل حكم الأسرتين الأولى والثانية وهو عصر إقرار الوحدة السياسية لمصر وإرساء أسس

الحضارة المصرية على قواعد صلبة ويبدأ بالملك نارمر (مينا) موحد القطرين عندما أسس عاصمته عند رأس الدلتا تقريبا وأسماها «القلعة البيضاء» والتى عرفت فيما بعد باسم «منف» ويُعتقد أن مينا هو نارمر صاحب اللوحة المشهورة فى متحف القاهرة والتى تصوره لابسا تاجه المزدوج وتعتبره قوائم الملوك أول ملك والجد الأكبر لجميع الفراعنة .

ويطلق الأقباط هذا الاسم على أبنائهم لأنه صار اسم قديسين وشهداء كثيرين فى العهد القبطى عبر السنين ، لعل آخرها هو اسم البابا كيرلس السادس (توفى عام ١٩٧١) عندما كان راهبا قبل أن يصير بطريركا إذ كان اسمه مينا المتوحد ، وهو ذات اسم الدير الشهير الذى أحبه وهو راهب فى منطقة كنج مريوط فى الصحراء قبل الدخول إلى مدينة الإسكندرية وقد أصبح الدير الآن مزار الكثيرين .

٢.عصر الدولة القديمة «بناة الأهرام» :

ويمتد لنحو ٥٠٠ عام من حوالى ٢٧٧٨ ق .م إلى ٢٢٦٣ ق .م ويشمل الأسرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة وقد جرت عادة الفراعنة فى هذا العصر على تشييد أهراماتهم بالقرب من مقر الحكم ، وكان أول وأشهر ملوك الأسرة الثالثة هو «زوسر» والذى أمر ببناء الهرم المدرج المشهور فى سقارة حيث بناه مهندسه المعمارى والإنشائى الطبيب الفيلسوف ذائع الصيت «أمحوتب» .

أما ملوك الأسرة الرابعة فهم أولا «سنفرو» ويليه «خوفو» وهو الذى بنى الهرم الأكبر المعروف باسمه فى الجيزة ويليه «ددف رع» ويليه «خع أف رع» والتى تنطق بالعربية «خفرع» وهو بانى الهرم الثانى بالجيزة ثم «منكاو رع» «منقرع» وهو بانى الهرم الأصغر فى الجيزة وهناك ملكان آخران فى الأسرة الرابعة وتسعة ملوك فى الأسرة الخامسة وخمسة ملوك فى الأسرة السادسة .

٣.عصر الانتقال الأول :

ويمتد لنحو ١٠٠ سنة من ٢٢٦٣ق .م إلى ٢١٦٠ق .م ويشمل الأسرة من السابعة حتى العاشرة ، وهذه الفترة تمثل حقبة تفكك الحكم وعدم وجود القبضة المركزية الفرعونية ، ولذلك فإن أغلب أسماء الملوك والأسر فى هذه الحقبة غير معروفة تماما كما أن مدد حكمهم غير محددة بيقين . ولكنها فى المقابل اتسمت

بالرقى فى الأدب والكتابة ، وبالفعل وضعت لها قواعد وظهرت أساطير دينية وقصص وأناشيد وأغان وبعض الحكم والأمثال ، وفيها ظهرت ما كان يسمى «شكاوى وقصص الفلاح الفصيح» وغيرها مما سبق الإشارة إليه .

٤.عصر الدولة الوسطى :

وتمتد لنحو ٣٧٥ عاما من ٢١٦٠ق .م إلى ١٧٨٥ق .م وتشمل الأسرتين ١١ ، ١٢ حيث أصبحت الأمور مستقرة وموحدة مرة أخرى وبالذات فى عهد الملك حبت رع (منتوحبت الثانى) وهو الخامس فى ملوك الأسرة ١١ ثم تصدى ملوك الأسرة ١٢ لحكام الأقاليم ولذا ظهرت المعاناة فى فنونهم ولكن مصر شهدت فى هذه الحقبة عناية خاصة بالزراعة وخاصة بمنطقة الفيوم .

٥.عصر الانتقال الثانى :

ويمتد لنحو ٢٠٠ سنة من عام ١٧٨٥ق .م إلى ١٥٨٠ق .م وتضم الأسر من ١٣ إلى ١٧ وفى أثناء هذه الفترة تم احتلال الهكسوس لمصر ويقال أن ذلك حدث بعد استيطان بعض القبائل السامية فى شرق الدلتا وهم من صاروا يعرفون بعد ذلك ببنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر أيضا كما سبق القول .

والهكسوس قوم أتوا من الشرق وشيدوا عاصمتهم فى شرق الدلتا فى مدينة أواريس ولم يكن جنوب البلاد تحت سيطرتهم ولكن أمراء الجنوب كانوا يرسلون لهم الجزية .

وقد ورد فى نص لحتشبسوت إشارة إلى «زمن فاجع حكم فيه الآسيويون مصر» «بدون رع» والمقصود هنا «بدون مخافة الله» أى أنهم كفار .

وقد بدأ الكفاح ضد الهكسوس من وقت الملك سقنن رع ثالث ملوك الأسرة السابعة عشرة والمعروف باسم (تاها قن) أى (تاعا الشجاع) والمرجح أنه مات فى ساحة القتال وتبعه ابنه كامس ولعله قتل هو الآخر فى المعركة ولكنه ترك أخاه «أحمس» لكى يطرد الهكسوس وينشئ الأسرة ١٨ الشهيرة وهى بداية العهد الإمبراطورى لمصر .

٦.عصر الدولة الحديثة والمسمى بعهد الإمبراطورية :

من المؤكد أن حرب التحرير ضد الهكسوس الغزاة قد أكسبت المصريين قدرات

فى التنظيم للحرب ، فبعد أن طرد «أحمس» الهكسوس من عاصمتهم أواريس فى شرق الدلتا ، تابعهم وحاصرهم فى آخر معاقلهم فى «شاروهين» قرب العريش وذلك لمدة ٣ سنوات إلى أن طردهم خارج سيناء .

وقد استمر أحمس فى غزواته شمالا ففتح فلسطين وسوريا أى بلاد الشام شمالا ووصل إلى نهر الفرات شرقا ثم فتح وسيطر على الجنوب حتى الشلال الرابع على النيل .

وفى عهد الأسرة ١٨ ازدهرت الفنون والعلوم وتم بناء معابد الأقصر والكرنك ، وأهم ملوك هذه الأسرة بخلاف أحمس الأول ، أمنحتب الأول وتحتمس الأول والثانى ثم حتشبسوت ثم يأتى بعد ذلك الملك الجبار تحتمس الثالث والذى قاد وجهز لنحو ١٧ حملة عسكرية استمرت ٢٠ سنة متواصلة ويجمع المؤرخون على أنه أول قائد حربى يبتكر فكرة تقسيم الجيش إلى صدر أو قلب وجناحين وفى عهده امتدت الإمبراطورية وتوسعت إلى بلاد الشام ولبنان شمالا ثم العراق (بلاد ما بين النهرين) شرقا وتوغل جنوبا فى السودان .

ومن ملوك هذه الأسرة الملك المشهور إخناتون وقد أحدث انقلابا دينيا إذ عبد قرص الشمس أتون دون سواه ، رمزا للتوحيد ، ونقل العاصمة من طيبة (الأقصر) إلى تل العمارنة (بمحافظة المنيا) ولكن تم التآمر عليه لظروف ليس هذا موقعها ، وجاء بعده (توت عنخ آتون) والذى غير اسمه إلى (توت عنخ آمون) ولعل مقبرته تعتبر بحق أجمل المقابر التى اكتشفت حتى الآن وأكثرها جمالا وتحفا حيث أحدث اكتشافها فى أوائل العشرينيات دويا عالميا هائلا لما احتوته من كنوز ترمز إلى قمة الفن والجمال ولأنها من المقابر القليلة التى لم تنقب بملوك لاحقين .

وتمتد فترة الازدهار للدولة الحديثة المسماة «الإمبراطورية» لتشمل ملوك الأسرة ١٩ ، ٢٠ حيث رمسيس وسيتى ، أو ما يسمى عهد الرعامسة .

وتمتد هذه الفترة جميعها لنحو ٥٠٠ سنة من ١٥٨٠ق .م إلى ١٠٨٥ق .م ولعلها أكثر فترات مصر الفرعونية ازدهارا فى الفكر والفن والحضارة .

٧ـ العصر المتأخر : (عصر الغزوات تمهيدا للتبعية) :

كان الرعامسة التسعة الأخيرون والذين يكونون الأسرة العشرين (١٢٠٠ق .م إلى ١٠٨٥ق .م) من الضعف والترهل بحيث تفككت الإمبراطورية ومع بداية

الأسرة الحادية والعشرين عام ١٠٨٥ق .م . بدأت حقبة من الاضمحلال شملت الأسر من ٢١ إلى ٣٠ والتى انتهت بغزو الإسكندر المقدونى لمصر . ولا أجد غضاضة فى استعراض هذه الحقبة وكيف تم غزو مصر من الليبيين والأشوريين والنوبيين فكان ذلك تمهيدا لعهد طويل من حكم الأغراب المتعاقبين :

ففى عهد الأسرة ٢١ تمكن الليبيون من بسط نفوذهم على الوجه البحرى بالهجرة السلمية أولا ثم بزيادة الجنود الليبيين المرتزقة فى الجيش المصرى ثانيا إلى أن تمكن أحدهم وهو شيشنق من الاستيلاء على السلطة وأسس الأسرة ٢٢ وفى عهده تم غزو مصر بواسطة الأشوريين أيضا .

وقد تمكن الملك النوبى بعنخى من الاستيلاء على مصر العليا ثم تتبع نهر النيل من الجنوب إلى الدلتا حتى أخضع بعض أمرائها وأسس حكم الأسرة ٢٥ النوبية . وقد شيد الكثير من المعابد فى السودان خاصة مدينة نباتا (وهذا هو الرباط التاريخى العميق مع السودان) .

وعندما حكم فرعون مصر بسماتيك الأول (٦٦٣ ـ ٦٠٩ق .م) طرد كل من الأشوريين شمالا والنوبيين جنوبا ، وأسس الأسرة ٢٦ وقد استعان بفرقتين من الإغريق ، وكان هذا هو درس التاريخ ، فمع الاستعانة بالإغريق مهد لحكم وغزو الإغريق أنفسهم ، وكان طبيعيا أن ازدادت التجارة والتبادل مع الإغريق فى تلك الحقبة ومهدت للحقبة اليونانية التالية .

وفى عام ٥٢٥ق .م غزا قمبيز ملك الفرس مصر ودمر منف وانتهك حرمة الديانة المصرية القديمة واستمر حكم الفرس لمصر نحو ١٢٠ عاما . ويعبر عنه بحكم الأسرة ٢٧ (٥٢٥ق .م إلى ٤٠٤ق .م) .

أما الأسر ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ فكانت لحكام وملوك مصريين يجاهدون من أجل المحافظة على استقلال البلاد ، ومع حكم «الملك نقطانب الثانى» (٣٥٩ ـ ٣٤١ق .م) آخر فراعين مصر فى الأسرة الثلاثين ، تمكن الفرس مرة أخرى من الاستيلاء عليها ولكن حكمهم لم يدم طويلا هذه المرة ، فقد انتهى بفتح الإسكندر الأكبر مصر لكى تبدأ حقبة ومرحلة جديدة فى رقائق الحضارات التى شهدتها مصر كما سيأتى فيما بعد .

وبصرف النظر عن التفاصيل التاريخية التى ذكرناها سابقا ، فإن الحقبة الفرعونية الطويلة بحلوها ومرها وانتصاراتها وقهرها قد تركت بصماتها بوضوح على الشخصية المصرية .

ومن الأمور التى أود أن أسجلها هنا ـ كمهندس إنشاءات ـ هى أن جدودنا

المصريين القدماء قد درسوا مواد البناء المتاحة لهم دراسة ممتازة فاستفادوا من وجود جبال من الأحجار الصلبة فى أماكن متفرقة من البلاد وقاموا بالاستفادة بخواص كل منها استفادة هائلة ، فكانت أحجار جبل المقطم وطرة من الحجر الجيرى والتى بنى منها ـ وفق أكثر النظريات ترجيحا ـ أهرامات الجيزة ثم هناك الجرانيت (الأحمر والأسود) والموجود فى منطقة أسوان حيث المسلة الناقصة لتشييد المسلات والتماثيل القيمة والمعمرة وكذلك الحجر الرملى النوبى والبازلت وغيرها بحيث شيدوا معابدهم ومقابرهم وتماثيلهم من هذه الأحجار ذات الصلابة المتوسطة أو العالية حسب درجة الإتقان المطلوبة وما تصوروه لأن تعمر سنوات أو قرونا أطول .

أما بيوتهم فكانت من الطوب اللبن أو «النيىء» غير المحروقة وقد ابتكروا مقاس الطوبة بحيث يمكن للعامل أن يتحكم فيها براحة يده ويضعها فى مكانها بالضبط ثم وجدوا أن أرخص مادة لبناء المساكن (وهى منشآت ليس من المفروض لها أن تعمر طويلا) هو الطمى الطينى أى تراب الأرض الناتج من مياه الفيضان ، فقاموا بضربه فى قوالب وتجفيفه بواسطة أرخص أنواع الطاقة وهى الحرارة الناتجة من أشعة الشمس .

وعندما اكتشفوا أن الطمى الطينى وحده يتشقق عند جفافه مزجوا خلطة الطين بالتبن ، وبنسبة تمنع التشقق عند الجفاف ومن ثم يكون المصريون القدماء هم أول من ابتكروا فكرة مزج مادة تتحمل الضغط وهى الطين مع مادة تتحمل الشد وهى التبن وهذا هو الأساس النظرى الذى ترتكز عليه فكرة الخرسانة المسلحة .

وعندما قمت فى أوائل السبعينيات ـ بتكليف من مؤسسة الثقافة والعلوم والآداب التابعة للجامعة العربية ـ بمعاينة مدينة بابل الأثرية قرب بغداد لمناسبة وجود مياه جوفية تهدد المدينة الأثرية ، لمست كيف أن صيانة الآثار المصنوعة من الطوب النيىء فى غاية الصعوبة لأنها لايمكن أن تعمر طويلا لتأثير المياه الجوفية والملوحة والتفكك بفعل الحرارة والزمن ، وأدركت بُعد نظر المصريين القدماء ، عندما تحملوا المشقة ونقلوا عبر نهر النيل أحجار الجرانيت من أسوان لكى يقيموا التماثيل والمعابد فى الأقصر وفى غيرها من بلاد الوجه القبلى .

العامود الثانى : العصر اليونانى الرومانى

لم تسلم المدن اليونانية من غزو الفرس ـ كامتداد لغزوهم لمصر كما سبق القول ـ وانتهى عهد «حكم الفراعنة» المصريين وكان الإغريق يرون فى فارس عدوا تقليديا يجتهدون فى الانتقام منه .

وقد استطاع «فيليب» ملك مقدونيا أن يجمع ويعبئ كافة المدن اليونانية لغزو فارس ، وعندما اغتيل قاد ابنه «الإسكندر» جيوش اليونان عام ٣٣٤ق .م لغزو فارس وبدأت الولايات التابعة لها تتهاوى واحدة بعد الأخرى ابتداء من آسيا الصغرى (تركيا) ثم بلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) وعندما دخل مصر عام ٣٣٢ق .م قام الوالى الفارسى بتسليمها له دون مقاومة واستقبله المصريون بالترحاب لتخليصهم من الاحتلال الفارسى[٩] .

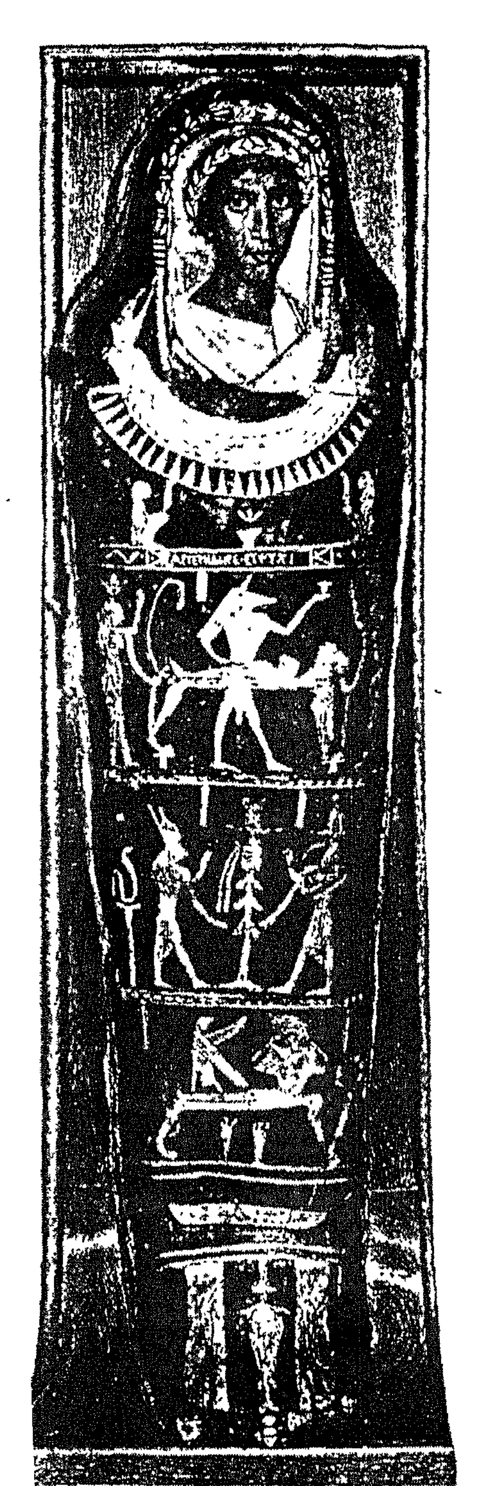
وما يستلفت نظرى ـ كقارئ للتاريخ ـ هو أن المصريين قد اتخذوا ذات الموقف عند فتح العرب مصر ، وقد سلم الوالى البيزنطى مصر إلى عمرو بن العاص عام ٦٤١م (أى بعد نحو ألف سنة) وقد رحب المصريون (الأقباط) بالعرب لتخليصهم من «عصر العذاب العظيم» وهو حكم بيزنطة فى تلك الحقبة ، وكما سيأتى ذكره فميا بعد .

غادر «الإسكندر» مصر عام ٣٣١ق .م ليواصل حروبه ضد الفرس وغداة وفاة الإسكندر عام ٣٢٣ق .م اجتمع قواده فى بابل لبحث مشكلة حكم الإمبراطورية المقدونية ، واعترفوا بحق جنين «روكسانا» الفارسية ، زوجة الإسكندر (إذا كان ذكرا) فى مشاركة عمه «فيليب أرهيدوس» فى الحكم .

وهكذا أمكن الاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية المقدونية من ناحية الشكل ولكنها قسمت بالفعل بين قواد الإسكندر وكانت مصر من نصيب قائد يسمى «بطلميوس»★ وهو مؤسس حكم البطالمة والذى دام نحو ٣٠٠ سنة من ٣٣٣ق .م إلى ٣٠ق .م .

وقد تمكن «بطلميوس الأول» من ضم بعض الأقاليم التى كانت تعتبر ملحقة لمصر كبرقة وجنوب سوريا وفينقيا وفلسطين وقبرص ، وقد زادت ارتباطات مصر طوال فترة

★ ربما كان الاسم الدارج حتى الآن هو بطليموس .





رقائق حضارية متصلة وشفافة

مومياء من العصر الروماني وواضح منها أن فكرة التحنيط مازالت قائمة والأكفان برقائق من الكتان وقد صور عليها رسومات من أسطورة أوزوريس وأمونوبيس.
أى أن عقائد مصر الفرعونية قد استمرت فى الحقبة اليونانية ـ الرومانية.
(الصورة مأخوذة من أصل ملون لوحة ١٨ أمام صفحة ٢٤١ من كتاب مصر القديمة والصادر من المتحف البريطاني بلندن).



لوحة من القرن الأول الميلادى عثر عليها بمنطقة الفيوم

حكم البطالمة مع اليونان ولذلك سميت تلك الحقبة بالعصر اليونانى حيث تأثرت مصر بالفكر والحضارة والفلسفة اليونانية كما سيأتى ذكره فيما بعد عند الحديث عن مكتبة الإسكندرية والتى ظهر اتجاه قوى الآن لإحيائها وقد تم بالفعل الاحتفال بوضع الحجر الأساسى لها فى صيف ١٩٨٨ وذلك فى ذات الموقع الشهير قرب محطة الرمل وهو الحى أو محطة الترام المسماة باسم «سوتر» والذى يعنى «المخلِّص» وكان ذلك هو لقب بطلميوس الأول بالفعل ، واستمر كل حكام هذه الفترة يحملون لقب بطلميوس من الأول حتى الثانى عشر . ومع تتالى السنوات إبان حكم البطالمة المتعاقبين ضمر نفوذهم كحكام فى الوقت الذى ازداد فيه نفوذ روما إلى الحد أن كلا من بطلميوس السادس والسابع (١٨٠ ـ ١٤٥ق .م) قد قَبِلا أن تفصل الدولة الرومانية فى النزاع بينهما على حكم مصر واضطر بطلميوس الثانى عشر (٨٠ ـ ٥١ق .م) أن يدفع «نصف دخل مصر» إلى «يوليوس قيصر» لكى يثنيه عن غزو مصر(١٠) .

أعلن قيصر اعتراف روما ببطلميوس الثانى عشر هذا وهو الملقب بالزمار ملكا على مصر وعند وفاته عام ٥١ق .م تنازع ابنه مع ابنته «كليوباطرة السابعة» والتى أصبحت ملكة وهى فى سن السابعة عشر ، وتزوجت أخيها وكان فى سن العاشرة وكان لهما أخت فى سن الرابعة عشر وأخ فى سن الثامنة ، وكان الجميع فى انتظار ماسيسفر عنه فى الصراع بين القائدين الرومانيين بومبى ويوليوس قيصر ، وعندما هزم بومبى سارع بالهرب إلى مصر باعتبار كونه الوصى Tutor للأسرة المالكة المصرية ولكنه قتل فى الطريق ، وتبعه يوليوس قيصر وكانت كليوباطرة الوحيدة من أفراد الأسرة المالكة التى سارعت لاستقباله ووقع فى غرامها وأنجبت منه طفلا أسموه «قيصرون» .

وبعد وفاة يوليوس قيصر انتظرت كيلوباطرة نتيجة الصراع فى روما مع ماركوس أنطونيوس ، ولما انتصر سارع إلى الإسكندرية وقابلته كيلوباطرة وعاشا قصة حب شهدت أحداثها مدينة الإسكندرية ثم صار الحاكم المطلق للنصف الشرقى من الإمبراطورية الرومانية .

وبانتصار «أوكتافيوس» على أنطونيوس فى موقعة أكتيوم عام ٣١ق .م ودخوله الإسكندرية فى العام التالى ، انهارت دولة البطالمة فى مصر وأصبحت ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية وبدأ الشق الثانى من هذه الحقبة اليونانية الرومانية .

وفى فترة حكم الإمبراطور الشهير نيرون (٥٤ ـ ٦٨م) جاء القديس مرقس الرسول وبشر بالمسيحية فى مدينة الإسكندرية وقد لقب بالرسول من منطلق أنه كاتب الإنجيل المعروف باسمه وبواسطته ومن خلاله انتشرت المسيحية تدريجيا فى مصر ولكن الرومان قاموا بتعذيب المسيحيين وقاوموا انتشار الديانة الجديدة حتى بلغ اضطهاد المسيحيين المصريين أقصاه فى عهد الإمبراطور دقلديانوس والذى اعتلى عرش الإمبراطورية عام ٢٨٤م حتى قيل مجازا أن «دماء الشهداء كانت تسيل فى الشوارع » لكثرة عدد من استشهدوا ، ولذا أرّخ الأقباط تقويمهم بدءا من هذه السنة وهو التقويم المعروف بتقويم الشهداء أو التقويم القبطى وهو يستند إلى الشهور التى كانت مستخدمة قبل ذلك وهى توت ، بابه ، هاتور . . إلخ ولازالت هذه الشهور والمواقيت وهذا التقويم هو المستخدم عند الفلاح المصرى بصرف النظر عن الديانة .

وهكذا كان دخول اليونان ثم الرومان إلى مصر سبيلا للامتزاج الحضارى ، فأخذ اليونانيون والرومان عن المصريين علوم الفلك والعمارة والإنشاءات وغيرها ، كما أخذت مصر بفكر الفلسفة اليونانية من خلال أساطينها وقممها الثلاثة المرموقين : سقراط وأفلاطون وأرسطو .

ومن هنا فإن حضارة مصر الفرعونية القديمة قد انتقلت من خلال اليونان إلى الغرب وأوروبا فضلا عن أنها قد تأثرت فيما بعد بحضارة العرب ، وهكذا فإن ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية الآن من تقدم ما هو إلا تراكم للمعرفة البشرية فى مراحلها المختلفة ، ولمصر أن تفخر بما قدمت من خلال الحقبة الفرعونية وذلك من خلال موقعها كجزء من صميم العالم العربى فى عصور لاحقة . ومن ثم فإن الحديث عن الامتناع عن التعرف على الحضارة العالمية الغربية أو الأخذ بها ، اكتفاء بما لدينا من كتب وأوراق قديمة هو نوع من «جلد الذات» لأن هذا التراث المسمى بالحضارة الغربية ما هو إلا تراكم لحضارات قديمة متتالية ساهمنا نحن فيها كمصريين وكعرب .

فلنا إذن كل الحق والمصلحة فى التعرف عليها ومعرفة أسرارها ثم الانتفاع بها والإضافة إليها كأفراد أو كجماعات لأن هذا هو الأمر الطبيعى الذى يوفر السلام والتقدم والازدهار ويقرب بين الشعوب والحضارات لاكتشاف الأرضية المشتركة والتى تنمو وتتعاظم كل يوم ، وهو الانتماء إلى الإنسانية كلها وهذا ما سوف نشير إليه فى الفصل الأخير .

ويبدو واضحا إذن أن انتماء مصر إلى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ليس فقط من خلال التفاعل الحضارى فى هذه الحقبة اليونانية - الرومانية ولكن هذا التفاعل متبادل من قبل ، فقد كان اليونانيون فى عصورهم الراقية ، كما كانوا فى عصورهم الأولى يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة (١١) ولكنك تلمسه فى تشابه نمط ولون الحياة والمناخ بين مدن مثل الإسكندرية وبورسعيد فى مصر وبين ما يقابلها فى مدن على الجانب الشمالى من البحر المتوسط مثل أثينا وبيريه فى اليونان وليماسول ونيقوسيا فى قبرص ونابولى فى إيطاليا وغيرها .

وسوف نعود لذلك مرة أخرى عندما نستعرض الانتماءات الجغرافية لمصر بما فيها الانتماء لحوض البحر المتوسط .

ولعل أهم ما يميز هذه الحقبة اليونانية - الرومانية فى مصر الآتى :

١ - عندما دخلت اللغة اليونانية مصر خلال القرن الثانى والثالث قبل الميلاد ، آثر المصريون أن يستفيدوا من تعرفهم على الأبجدية الإغريقية ، فقاموا بإعادة كتابة اللغة المصرية القديمة - بالحروف الإغريقية فكان أن ولدت لغة جديدة هى اللغة القبطية ، وهى فى حقيقتها ذات اللغة المصرية القديمة لكنها مكتوبة بحروف يونانية ، ولكنهم اضطروا إلى الاستعانة بسبعة حروف من اللغة الديموطيقية القديمة وأضافوها إلى الأبجدية اليونانية ومن ثم تكون اللغة القبطية فى مصر قد تكونت تدريجيا قبل ظهور المسيحية بعشرات السنين - وكان طبيعيا أن تتأثر اللغة الجديدة ببعض كلمات وعبارات أخذت من اللغة الإغريقية الغازية ، وما نود أن تبرزه هنا هو أن نشأة وبداية اللغة القبطية كانت مواكبة ومصاحبة لظهور المسيحية ومن ثم ارتبطت بالكنيسة القبطية كما سيأتى ذكره عند مناقشة العصر القبطى والإسلامى والعربى .

٢ - دخلت المسيحية مصر فى القرن الأول وانتشرت بسرعة فى حدود القرن الثانى أى فى الحقبة اليونانية - الرومانية ومن ثم فإن مصر تكون قد غيرت ديانتها من الديانات الفرعونية القديمة إلى المسيحية فى تلك الحقبة وكان ذلك فى زمن لاحق لظهور اللغة القبطية وبذلك يكون شعب مصر قد غير ديانته ولغته فى وقت متقارب وهذا هو التغيير الأساسى الأول وأحد معالم الشخصية المصرية .

ومن المؤكد أنه منذ القرن الثالث لم يعد للمكتبة الرئيسية وجود كما أن ظهور المسيحية وانتشارها كان ضربة قاضية على المكتبة الملحقة بالسرابيوم الذى

أحرق ودمر فى أواخر القرن الرابع . ولذا يجب ألا نأخذ بالقول الذى يتهم عمرو بن العاص بحرق المكتبة وهى التهمة التى ألصقها به المؤرخ أبو الفرج (اتضح فيما بعد أن أبا الفرج من أصل يهودى) .

٣ - استمرت جامعة الإسكندرية منارة لنحو ثمانية قرون منذ أن أنشأها بطلميوس الأول «سوتير» حوال عام ٣٠٠ ق .م ثم أحضر لها «ستراتون» ليصبح عميدا لها فنقل إليها الطابع العقلى والعلمى الذى تميز به الفكر الإغريقى وأصبحت الجامعة معهدا للبحث العلمى فكان بها مرصدا للفلك وحديقة للحيوانات (لدراسة علم الحيوان) وأخرى للنباتات (لدراسة علم النبات) واهتمت بكافة أنواع العلوم والهندسة والرياضيات والفنون والآداب والفلسفة والطب والجغرافيا والموسيقى والتاريخ وغيرها .

وقد ألحق بالجامعة ما كان يسمى بالمتحف Museum ثم مكتبة هائلة ضمت نحو ٧٠٠ ألف كتاب كان أغلبها على هيئة مجلدات من البردى ، ولما ضاقت على سعتها تم إنشاء مكتبة أخرى عرفت بالمكتبة الصغرى - سرابيوم - بلغ عدد كتبها نحو ٤٠ ألف كتاب ، وكل ذلك موضع اختلاف واتفاق تاريخى ولكن ما يعنينا هو إبراز أن هذه الحقبة كانت غنية بالفكر والمعرفة والعلم والاستنارة .

ومن أساتذة جامعة الإسكندرية العظام كان «أقليدس» صاحب النظريات الهندسية والرياضية المعروفة باسمه حتى الآن ثم بطلميوس الفلكى الذى أسماه العرب ببطلميوس القلوذى والذى وضع أعظم مصنف فى الفلك المعروف بالمجسطى فى ١٣ مجلدا ثم مصنف «المرشد فى الجغرافيا» وكذلك كان أرشميدس السراقوسى من تلاميذ جامعة الإسكندرية وغيرهم كثيرون ، ولمناسبة وضع الحجر الأساسى لمكتبة الإسكندرية عام ١٩٨٨ أعيد الحديث مرة أخرى عن مكتبة الإسكندرية القديمة ، ولعل أفضلها ما سجله د . لويس عوض [١٢] .

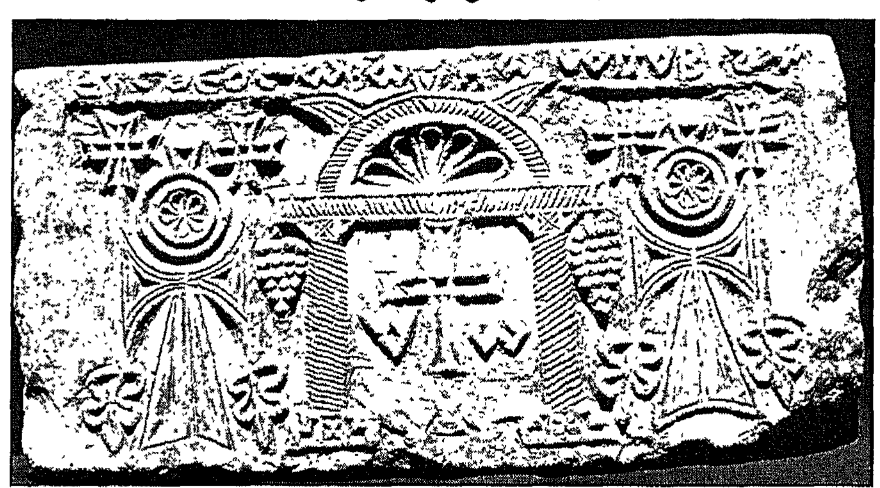
ويذكر البعض ما أصاب المكتبة الرئيسية عندما أمر يوليوس قيصر عام ٤٨ ق .م بحرق الأسطول الذى حوصر فى الميناء الكبير (الشرقى) خوفا من أن يستولى عليه الأعداء فامتدت ألسنة النيران وأحرقت جزءا من المكتبة على أنه من المحقق أن مكتبة الإسكندرية نالها الكثير من الإهمال بعد الاحتلال الرومانى ، إذ بدأت الكتب النادرة تتسرب فى طريقها إلى روما . وفى عام ٢٧٠م دمر الإمبراطور الرومانى أوريليان الحى الملكى الذى كانت تقع فيه

المكتبة انتقاما من المدينة إثر ثورة قامت بها فاضطر علماء دار الحكمة ومكتبتها إلى اللجوء إلى السرابيوم ورحل البعض الآخر إلى الخارج .

أيا ما كان الأمر فإنه وبفضل جامعة الإسكندرية ظلت الحضارة الإغريقية مزدهرة إلى العصر المسيحى ، لأن جامعة الإسكندرية ظلت حاملة مشعل الحضارة والثقافة والعلم واستمرت باقية حتى عام ٥٢٩م وهو العام الذى يؤرخ به عادة لنهاية عصر العلم القديم والدخول فى مرحلة «العصور الوسطى» .

ومما هو جدير بالذكر أيضا أن جامعة الإسكندرية - وفى المرحلة السابقة لظهور المسيحية - قد قامت بترجمة التوراة من العبرية إلى اليونانية وهى الترجمة المعروفة باسم الترجمة السبعينية . فكان ذلك إضافة جديدة فى عالم الدين يذكر بالفضل لمصر وجامعتها بالإسكندرية .

الرقائق الحضارية الثلاثة الأولى مجتمعة فى لوحة واحدة.



صورة لشاهد على قبر مهداة من المتحف القبطى بالقاهرة وهى لأحد أعيان الأقباط الملقب الآب بيجام أو أنبا أبرام وترجع للقرن السادس / السابع الميلادى (قبل الفتح العربى) مباشرة .

وهذه الصورة تجسيد لفكرة الأعمدة السبعة ولتتالى واستمرار رقائق الحضارات والتى كانت وقتها : الفرعونية واليونانية ثم القبطية .

وتتمثل الفرعونية فى علامة عنخ (☥) الشهيرة (مفتاح الحياة عند القدماء) وقد رسمها الفنان القبطى على الجانبين بعد تطوير شكلها إلى صبغة أقرب إلى المسيحية .

وفى أعلى اللوحة عبارة مكتوبة باللغة اليونانية وتعنى «الإله الواحد المخلص» وفى وسط اللوحة رسم الصليب داخل إطار يمثل مدخل هيكل مع عنقودى عنب .

إن هذه اللوحة هى تجسيد للرقائق الحضارية الثلاث وقتها .

العامود الثالث: العصر القبطى

هناك اتفاق على أن ما ذكرناه من رقائق الحضارات المتعاقبة عبر التاريخ المصرى (هى الفرعونية ثم اليونانية - الرومانية) وهى مراحل دخلت ذمة التاريخ والمتاحف ولكنها تركت بصماتها على الشخصية المصرية ، أما الرقيقتان العلويتان (وهما المرحلة القبطية والمرحلة الإسلامية) فإنهما ما زالا مرحلتين يعايشهما الشعب المصرى من منطلق استمرار وتواجد كل من المسيحية والإسلام فى مصر حتى الآن .

وهناك يقين بين المؤرخين على وجود حقبة زمنية تعرف بالعصر القبطى ، ولكن خلافا أكاديميا قد يدور حول تحديد البداية التارخية لهذه الحقبة ، وذلك لأن بداية «العصر القبطى» متداخلة فى «الحقبة اليونانية - الرومانية» من منطلق أن مصر تحولت إلى ولاية رومانية قبل التقويم الميلادى أى قبل دخول المسيحية .

فإذا اعتبرنا أن العصر القبطى يرتبط مع نشأة اللغة القبطية عندئذ ستكون نقطة البداية للحقبة القبطية فى موقع ما فى القرن الأول أو الثانى بعد الميلاد ، وإذا كانت نقطة البداية مع دخول المسيحية مصر أمكن ربطه مع بداية التقويم الميلادى من منطلق أن العصر القبطى هو تعبير عن الحقبة المسيحية التى دخلت مصر فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى ، وقد يراه كثرة من المؤرخين أنه يبدأ عام ٢٨٤ ميلادية وهى السنة التى بدأ فيها أقباط مصر تقويمهم القبطى والمسمى تقويم الشهداء فى عهد دقلديانوس كما سبق القول .

أما قلة من المؤرخين فيربطون العصر القبطى بعام ٣٢٤ م عندما أصدر قسطنطين الأول [١٣] مرسومه برفع الاضطهاد عن المسيحيين ، أما بعض المتزمتين المسيحيين فيزعمون أنه يبدأ عام ٣٨٩ م عندما أصدر ثيودسيوس مرسومه الشهير الذى أعلن فيه أن المسيحية هى الدين الرسمى للدولة الرومانية وأمر بإغلاق المعابد القديمة «وأنهى بذلك حقبة الحكم الوثنى» .

ورغم هذا التباين الأكاديمى لنقطة البداية للعصر القبطى فإننى أميل لأن تكون بداية هذه الحقبة هى عام ٢٨٤ م ليس فقط لارتباطه بأحداث الاستشهاد التى فرضت نفسها لتكون بداية «التقويم القبطى» وهو حدث هام على أى حال - ولكن لأنه فى تلك الحقبة كانت مصر قد أخذت معلما وشكلا حضاريا جديدا ، فاللغة

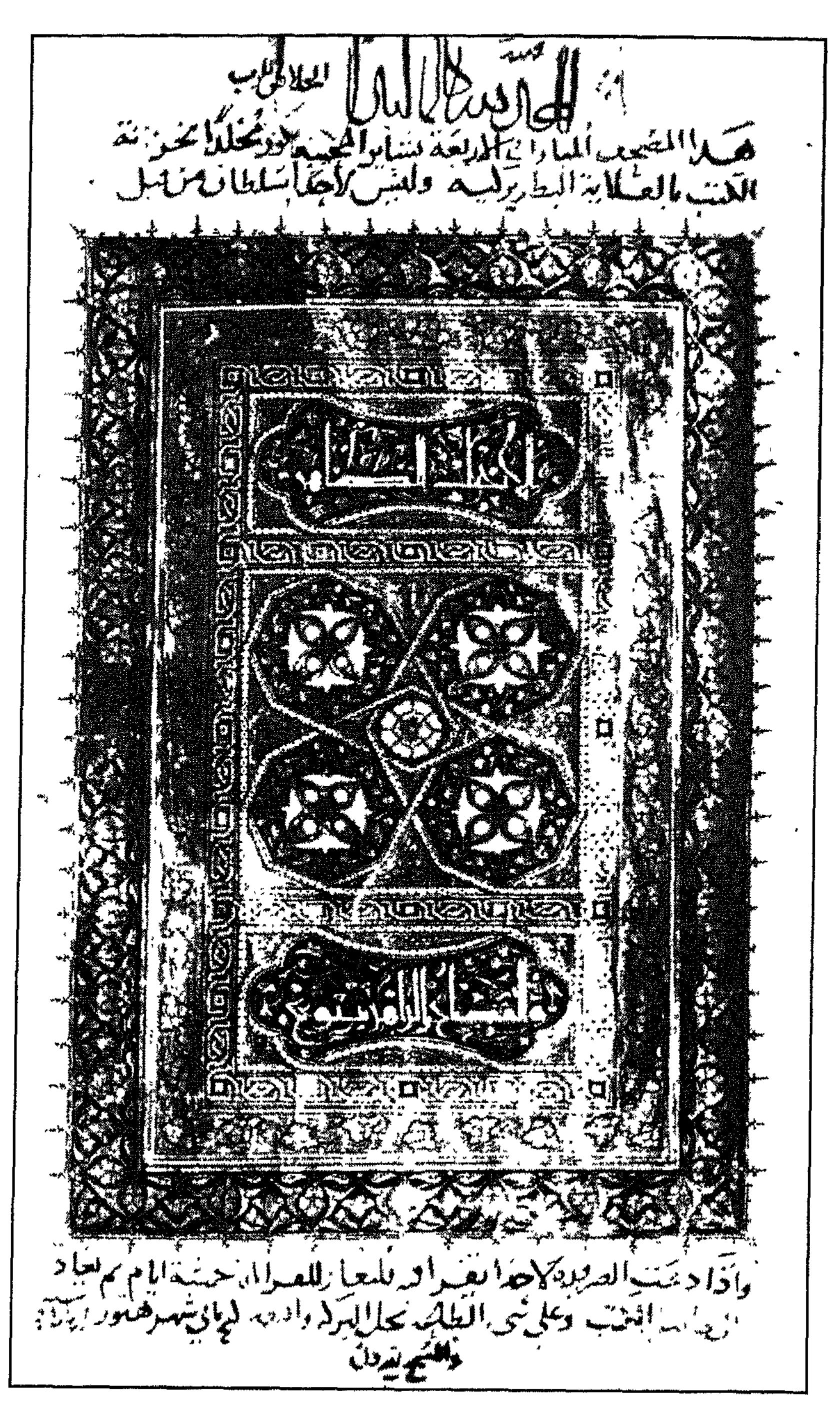
قد تغيرت وسادت بالفعل اللغة القبطية والديانة قد تغيرت وسادت الديانة المسيحية وكان لكل ذلك انعكاساته على كافة ألوان الحياة الفكرية والثقافية والحضارية والفنية وأصبحت مصر رغم تبعيتها السياسية من الناحية الرسمية إلى الدولة البيزنطية - موطنا لحضارة من نوع جديد ، ولعبت مصر من خلال هذا الانتماء الدينى الجديد دورا هاما فى صياغة المسيحية على المستوى العالمى وذلك من خلال وجود المدرسة اللاهوتية العريقة بالإسكندرية ومن خلال قيادتها (أى قيادة الكنيسة القبطية) للمجامع المسكونية كما سيأتى ذكره تفصيلا فيما بعد ، وعندما تم إنشاء كنيسة أناصوفيا فى القسطنطينية قام بالبناء مهندسان من الإسكندرية[١٤] .

وكما قدمت مصر للعالم حضارة وفنا وفكرا وآثارا غير منكورة من خلال الحقبة الفرعونية - وهو موضع فخر واعتزاز المصريين جميعا - كذلك قدمت مصر إلى العالم المسيحى كله معالم رئيسية : حضارة وفنا وفكرا وآثارا غير ممنكورة هى موضع فخر واعتزاز المصريين ونبرز هنا أهم معالمها فى الآتى :

١ - صياغة قانون الإيمان المسيحى:

فور انتشار المسيحية فى مصر ، أنشئت مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وكان بها علماء مسيحيون على قدر عال من الحكمة والمقدرة سواء فى معرفة الكتب المقدسة أو فى الآداب الإنسانية والفلسفة أو اللغات السائدة فى تلك الحقبة ولعل أشهر مديريها فى القرن الثانى الميلادى هم : بنتينوس وأكليمندس وأوريجانوس . وكان يفد إلى هذا المعهد المسيحيون من شتى الأقطار للدراسة (لاحظ المقارنة مع مكتبة الإسكندرية فى عهد البطالمة وكذلك الأزهر فى العصر الإسلامى) وتخرج منها بالفعل عدد كبير من بطاركة وأساقفة مصر فضلا عن قيادات الكنائس فى البلدان المسيحية المجاورة ، «وإليها يرجع الفضل فى المركز القيادى المتميز الذى كان يأخذه البطريرك القبطى فى مختلف المجامع المسكونية التى عقدت فى القرن الرابع والخامس» [١٥] .

هذا ومن المعروف تاريخيا أن القرون الأولى من المسيحية قد شهدت خلافات عقائدية حادة - وكان من خلفها صراعات سياسية وسلطوية حادة ، تمثلت فى مراكز أساسية فى تلك الحقبة وهى كنائس روما والقسطنطينية وكانتا مركز السلطة



الوثائق الحضارية شفافه ومتصله فى مصر

زخـرفة إسلامية على غلاف الإنجيل يرجع إلى القرن ١٤ من مقتنيات المتحف القبطى

والإمبراطورية ، ولكن كان لكنيسة الإسكندرية موقع خاص رغم أنها - من الناحية النظرية - كانت ولاية فى المملكة البيزنطية ، وذلك لأن كنيسة الإسكندرية كانت تمثل النقاء والضمير الشعبى لكافة الولايات الأخرى فضلا عن نفوذها الفكرى من خلال خريجى مدرسة الإسكندرية اللاهوتية كما سبق القول .

ففى مجمع نيقية عام ٣٢٥ م كان الفارس المغوار هو «الأبنا أثناسيوس» - وكان وقتها هو الشماس المرافق للبطريرك السكندرى - وقد قاوم بدعة أريوس الشهيرة (١٦) حيث أمكنه أن ينتزع من المجمع «قانون الإيمان المسيحى» الذى ما يزال يقرأ فى جميع الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية فى العالم إلى اليوم ويعتبر الصياغة المقبولة التى حدث حولها إجماع عقائدى للمسيحية .

وفى عام ٣٨١م عقد مجمع مسكونى آخر فى مدينة القسطنطينية - عاصمة الإمبراطورية عندئذ - وذلك بسبب تعاليم بطريرك القسطنطينية نفسه والمسمى مقدنيوس وقد أعطيت الرئاسة للبابا السكندرى تيموثاوس وقد أقر المجمع عزل بطريرك القسطنطينية .

وتكرر نفس الشىء عام ٤٣١ م عندما عقد المجمع فى أفسس لمحاكمة نسطور بطريرك القسطنطينية أيضا ، وكانت الرئاسة مرة أخرى للبابا كيرلس بابا الإسكندرية الرابع والعشرين وانتهى المجمع إلى شجب بدع نسطور وعزله (١٧) .

ونتيجة لانتصار الفكر الذى كانت تقدمه الكنيسة المصرية القبطية فى هذه المؤتمرات والتجمعات العالمية ، حدث حقد وتآمر على شخص بابا الإسكندرية ، الأمر الذى أدى إلى التخطيط لمؤامرة بالإعداد لترتيبات حجزه عن حضور مؤتمر أو مجمع «خلقدونية» عام ٤٥١م حيث قام جند وعسكر الدولة باحتجاز البابا ديوسقورس بطريرك الأقباط لكى لا يحضر هذا المجمع وصوروا الأمر حتى يبدو أنه قد امتنع عن الحضور عمدا ، (لم يكن فى ذلك الوقت وسائل الاتصال الحديثة : التليفون والتلكس والفاكس ولا أسلوب عقد المؤتمرات الصحفية) واتخذوا من ذلك ذريعة لكى يوقع عليه الجزاء فكان أن صدر الأمر بعزله ونفيه ، وقد رفض الأقباط الاعتراف بقرارات هذا المجمع من وقتها وإلى يومنا هذا . .

وهناك مفاوضات تجرى حاليا - فى هدوء ودون إعلام - ومن خلال «مجلس كنائس الشرق الأوسط» للتغلب على هذا الخلاف التاريخى بين كنيسة مصر وباقى الكنائس التى حضرت مجمع خلقدونية عام ٤٥١ م والمنتظر الوصول إلى نتائج

إيجابية ، لأن الاتجاه العالمى هو البحث عن الأرضية المشتركة للانتماءات بدلا من تصعيد الصراع ولعل هذا هو صلب هذا الكتاب .

ومنذ ذلك الوقت ، اضطرت الإمبراطورية البيزنطية أن تقيم من القائد العسكرى أو الوالى الممثل لها مشرفا ورئيسا على الجماعة الدينية (المسيحية) التابعة لبيزنطة وهى الفئات الموجودة حاليا فى بلدان الهلال الخصيب والمسماة طوائف الروم أو الملكانيين أو الملكيين نسبة إلى الملك أو نسبة إلى الروم .

خلاصة القول فإن كنيسة الأقباط فى مصر لها أن تفخر بأنها قد أخذت دورا قياديا فى صياغة الفكر الدينى المسيحى فى القرون الأولى رغم أنها كانت من الناحية النظرية ولاية تابعة للدولة الرومانية أولا ثم بيزنطة ثانيا ومن هنا فالمسيحية فى مصر أصيلة الجذور مثلما هو الحال فى كنيسة الفاتيكان بروما ، ، وهى تتباهى على كنائس أخرى كثيرة فى إنجلترا وألمانيا والسويد وأمريكا وغيرها فضلا عن كنائس أفريقيا وآسيا حيث وصلت إليها المسيحية من خلال التبشير فى قرون تالية ، وقد استوقف نظرى ما أعلن أخيرا من أن الاتحاد السوفيتى يحتفل بمرور ألف عام على دخول المسيحية إلى أراضيه فى وقت كانت مصر قد قطعت أشواطا فى صياغة الفكر والعقيدة والقوانين التى وصلت إليها «على الجاهز» من منطلق أن الكنيسة الروسية تتبع العقيدة «الأرثوذكسية» مثل كنيسة مصر .

٢ - الرهنة ابتكار مصرى :

قد لا يعرف كثيرون أن فكرة الرهبنة أى أن يترك الرجل (أو المرأة) أسرته وأهله وأمواله وأن يتفرغ وينقطع للعمل الدينى والعبادة بكافة صورها ، هى فكرة مصرية أصيلة ، وتعترف كل فروع الرهبنة التابعة للمذهب الكاثوليكى فى روما من الفرانسيسكان والدومنيكان والجيزويت والفرير وسان فاتيما ونوتردام وغيرها ، أن مبدأ الرهبنة قد نشأ فى مصر من خلال الأنبا أنطونيوس (٢٥٠ - ٣٥٦ ميلادية) حيث بدأ بنفسه فيما يعرف «بالرهبنة التوحيدية» أى المعيشة فى مغارات الجبال إقامة منفردة للعبادة والصلاة والتقشف .

وجاء بعده القديس مكاريوس (٣٠٠ - ٣٩٠ ميلادية) ليضع قواعد الرهبنة فى مجموعات متقاربة فى صحراء وادى النطرون ، وأخيرا نظم القديس باخوميوس (٢٩٠ - ٣٤٨ ميلادية) ما أصبح يعرف «بحياة الشركة» أى المشاركة فى المعيشة

والحياة اليومية داخل دير منظم حيث لابد للراهب من أن يقوم ببعض الأعمال اليومية اللازمة للإقامة داخل الدير مثلا فلاحة الأرض أو خبز العيش أو النظافة أو نسخ الكتب والمخطوطات أو تجهيز الطعام وما أشبه ووضع لذلك قواعد وقوانين مدونة لا زالت معروفة ومقرونة باسمه .

وليس من أهداف هذه الدراسة طرح تاريخ الرهبنة فى مصر أو تطور أفكارها فى الكنيسة الكاثوليكية حيث تغيرت المفاهيم وأصبح الرهبان والراهبات فرقا وتخصصات وأقساما تساهم فى خدمة المجتمع مثل التعليم أو المستشفيات أو البحث العلمى أو غيرها ، وليس من أهداف هذه الدراسة طرح مدى ملاءمة فكرة التبتل أى عدم الزواج والتفرغ للخدمة الدينية . فهناك آراء وأفكار كثيرة مطروحة فى العالم فيما يتعلق بهذه القضية ، ولكن الأمر الملح هنا هو أن فكرة أن ينذر الإنسان نفسه لقضية «ويترهبن» أن ينقطع لخدمتها هى فكرة تصوفية مصرية نابعة من تراث مصر فى تلك الحقبة القبطية ، وعلينا - كمصريين - أن نعتز بذلك ونفخر ، ولعلها امتداد لأفكار كانت موجودة وقت الفراعنة . ثم جاءت الطرق الصوفية والمعتزلة وما أشبه وهذه هى استمرارية مصر فى كافة العصور بأشكال وصور مختلفة .

٣- كنيسة مناضلة لا تبغى السلطة:

منذ أن دخلت المسيحية مصر إلى الآن لم تكن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية إلا كنيسة مناضلة لم تبغ الحكم ولا شاركت فيه ولم يكن لها أى انتماء إلا لأرض مصر .

ففى غضون القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد كانت الدولة الرومانية تضطهد المسيحية فى الدول التى تتبعها عموما وفى مصر خصوصا - كما سبق القول - وعندما انتقلت السلطة إلى الدولة البيزنطية وأصبحت قيادتها مسيحية - كانت مصر تابعة لها من الناحية السياسية ولكنها (أى الكنيسة المصرية) آثرت أن تقف موقفا مستقلا من الناحية الدينية الأمر الذى جلب لها الاضطهاد من حكام الدولة البيزنطية ذاتها ، وقد أدى ذلك - ضمن أسباب كثيرة - إلى ترحيب الأقباط بدخول العرب مصر كما سيأتى فيما بعد .

ومنذ دخول العرب مصر وإلى الآن كانت الكنيسة القبطية مؤسسة شعبية ولم

تشارك فى السلطة وحاولت أن تتعايش وتتكيف مع كافة العصور والمراحل الإسلامية «بمرها وحلوها على حد سواء» وبهدف المحافظة على «سلامة الوطن» وعدم شرخه فضلا عن المحافظة على جماعة الأقباط وحقهم فى ممارسة عباداتهم .

ففى حين كان كثير من الخلفاء متسامحين جدا وواسعى الأفق بصورة كبيرة ، كان الآخرون شديدى التعصب ومتزمتين ، يتخذون إجراءات عنيفة وقاسية ضد الأقليات بدون أى سبب قوى ومقنع (١٨) .

وفى هذا الأمر تختلف الكنيسة القبطية المصرية عن الكنيسة الكاثوليكية الأوربية فالمعروف أن الكنيسة الكاثوليكية قد قامت بدور السلطة خلال العصور الوسطى فى أوربا ، ومعروف أيضا أن الإسلام كان دولة وحكما وخلافة عبر تاريخه الطويل ، وإذا كان لليهود دولتهم منذ الملك داود وسليمان وما بعدها حتى السبى فى القرن الأول المسيحى إلى أن قامت إسرائيل كدولة عام ١٩٤٨ ، فإن الكنيسة القبطية لم تدخل فى هذه الحلبة وقد أكسبها ذلك تراث «المسالمة» للحاكم بقدر المستطاع وأكسبها أهم من ذلك كله الولاء كل الولاء لأرض وتراب مصر ، وقد عبر عن ذلك البابا شنودة بمقولته الشهيرة والبليغة : «إن مصر ليست وطنا نعيش فيه ولكنها وطن يعيش فينا» .

٤ - الكنيسة تسيطر داخليا وتنتشر خارجيا:

عقب الخلاف بعد المجمع المسكونى بمدينة خلقدونية عام ٤٥١م ، ازداد الانشقاق وتبلور فى مصر الفكر والحركة لتكوين جماعة أصحاب رأى «المشيئة والطبيعة الواحدة للمسيح» وظهرت نزعة لدى الأقباط للانفصال عن بيزنطة ولذلك حاول الأقباط تنمية العلاقات مع الثقافات السامية من سريانية وحبشية وعربية ، فقام الأقباط بتبشير الحبشة بالمسيحية فى القرن الرابع وظلت الكنيسة الحبشية تابعة لكنيسة الإسكندرية طوال هذه القرون ، وكان بابا الكنيسة القبطية هو الذى يقوم برسامة مطران مصرى للحبشة ، وظل الأمر هكذا إلى أن استقلت كنيسة الحبشة عام ١٩٥٢ وهناك محاولات يائسة لإعادة العلاقات التاريخية بين الكنيستين ، ولكننى أتصور أنها جهود لن توصل إلى نتائج فى المرحلة الحالية لاعتبارات سياسية ومذهبية .

وحاولت الكنيسة القبطية القيام بأعمال تبشيرية فى المناطق المحيطة ، فتحركوا

بحرية فى فلسطين وسوريا وإلى حد ما فى شبه الجزيرة العربية حتى قام البطريرك المصرى ثيوديسيوس برسم مطرانية فى كل من رها والبوسترا (البصرة) [١٩] .

وتعددت الإشارات التاريخية إلى نمو العلاقات بين القبط والسريان أى بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة أنطاكية وذلك للدفاع عن مذهب الطبيعة الواحدة وعندما اجتاحت جيوش الفرس المشرق العربى فى أوائل القرن السابع الميلادى لجأ إلى مصر كثيرون من علماء السريان بعد أن كان بعض الرهبان السريان قد أسسوا الدير المعروف باسمهم حتى الآن فى وادى النطرون ، حتى أن البطريرك الثانى والأربعين والذى رسم عام ٦٨٤ ميلادية باسم سيمون الأول كان من مواليد أنطاكية ومن رهبان دير السريان .

وقد اتسمت هذه الحقبة من العصر القبطى وعشية دخول العرب لمصر بأن الصراع كله كان متبلورا حول الأفكار والخلافات الدينية حتى لاحظ د . مراد كامل أنه «لم يسمع طوال الحكم البيزنطى أن أحدا من أبناء الشعب النابهين ظهر لينقذ البلاد من براثن الاستعمار الأجنبى أو يحد من نشاطهم الهدام أو يطالب بأحقيته فى الحكم» .

أما القيادات الدينية فما كان فى وسعها أن تحل مشكلة القيادة المؤهلة للخروج بالمجتمع من أزمته . فالبطريرك قد سلمه الشعب قيادته وكان يمنعه مركزه الدينى وكرامته الوطنية من الخضوع لإرادة الأباطرة ولكنه كان مضطرا إلى مسايرتهم [٢٠] ، ولعل هذا الأمر ينطبق على واقعنا المعاش ومن هنا كانت أهمية حركة الأقباط كأفراد خارج نطاق الكنيسة مثلما حدث إبان ثورة عام ١٩١٩ .

وعندما دخل القبط القرن السابع الميلادى كانت أزمة المجتمع من خلال الصراعات الدينية قد استعصت على الحل وهنا حاول الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) أن يعيد الوحدة إلى جسم الإمبراطورية الممزق ، فطرح مذهبا دينيا جديدا عام ٦٢٢م بأن يوفق بين أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة (كنيسة الإسكندرية) وأصحاب مذهب الطبيعتين (كنائس قسطنطينية وروما) وأقام مذهبه التوفيقى على أسس وحدة المشيئتين فى شخص المسيح أى المشيئة الإلهية والمشيئة الإنسانية .

ولم تنجح محاولات هرقل رغم استخدامه العنف ، ودخلت مصر فيما أسماه المؤرخون «عهد العذاب العظيم» واضطر البطريرك بنيامين الأول (٦٢٣ - ٦٦٢م) أن يترك كرسيه ويختفى هاربا فتشرد الأساقفة والقسس وأرغم الكثيرون من الأهالى -

بما فى ذلك عدد من رجال الدين - على التنكر لعقيدتهم وهذا هو سر استمرار هذه الأقلية الهزيلة من «الروم الأرثوذكس» فى مصر .

وحدث هذا كله فى وقت احتدم فيه سخط الشعب واختل الأمن وتردت التجارة والصناعة وكانت هذه الأحوال كلها باعثا للمصريين على الترحيب بالعرب ويحدوهم الأمل فى أن يتمتعوا بحياة فيها راحة وطمأنينة .

وهكذا كانت البداية للانتقال إلى رقيقة حضارية رابعة وأخيرة من رقائق الحضارات فى مصر .



العامود الرابع: العصر الإسلامى

لكى نتعرف على خلفية هذا المزج والتداخل والمودة الموجودة الآن بين الأقباط والمسلمين لابد أن نتدارس قليلا هذه الرقيقة الهامة والأخيرة من الرقائق الحضارية الأربع ، وبالذات ذاك الأسلوب المتميز الذى كان مصاحباً لدخول الإسلام إلى مصر . وكيف أنه مختلف عن أسلوب الغزو والفتح بحد السيف والذى تم فى أقطار أخرى كثيرة ، إذ إن هذه البداية واستمرار العلاقة الوطنية والتآخى بين أبناء الوطن الواحد جاء ثمرة واستمرار لنقطة البداية عند الفتح ، فضلا عن الأسلوب المتميز فى العلاقات الاجتماعية الاقتصادية طوال هذه القرون الأربعة عشر التى تعايش فيها الإسلام والمسيحية على أرض مصر ، على الرغم من أنها لم تكن كلها «سمن على عسل» بل مرت بأوقات عصيبة أمكن تجاوزها ، واستمرت الديانتان فى ود ومعايشة قرونا طويلة ناطحت الزمن وقاومته مقاومة أهرامات الجيزة .

عندما دخلت القوات العربية أرض مصر أدرك القائد العربى الإسلامى عمرو بن العاص أنه أمام شعب قبطى مسيحى فى حالة صراع شديد واضطهاد من الدولة البيزنطية الحاكمة الأمر الذى أدى بالإمبراطور لأن يقيم ويعين بطريركا آخر من قبل بيزنطية أسماه الأقباط بالبطريرك الملكى (نسبة إلى الملك) إذ كان لهم بطريرك وطنى منهم وهو الأنبا بنيامين والذى اضطرته هذه الظروف لأن يهرب داخل البلاد من وجه الحاكم البيزنطى وذلك عقب أن أوفد هرقل (إمبراطور الدولة البيزنطية آنذاك) واليا شرسا يفرض على الأقباط ما تصوره عقيدته المسماة «المونوثيلية» [٢١] والتى اعتبرها الإمبراطور حله التوفيقى بين عقائد الكنائس المتصارعة فى كل من الإسكندرية والقسطنطينية وأنطاكية وروما .

ويسجل د . وليم سليمان قلادة [٢٢] فى كتابه «المسيحية والإسلام على أرض مصر» النصوص التاريخية لهذا الحدث حول دخول العرب إلى مصر من خلال وثائق أربع مختلفة كالآتى :

(أ) شهادة عبد الرحمن بن عبد الحكم القرشى المصرى مؤرخ الفتح الإسلامى إذ يقول :

«كان بالإسكندرية أسقف القبط يقال له أبو بنيامين فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد

انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا» .

(ب) شهادة ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين ومؤرخ كتاب «بطاركة الكنيسة القبطية» فقد كتب بعد نحو أربعة قرون من هذه الواقعة يقول :

إن سانوتيوس (الذى كان من رؤساء الأقباط وتولى شئون الكنيسة مدة اختفاء البطريرك بنيامين) عرف «عمرو» أمر الأب المجاهد بنيامين البطريرك وأنه هارب من الروم خوفا منهم ، فكتب عمرو بن العاص إلى عمال مصر كتابا يقول فيه «الموضع الذى فيه بنيامين بطريرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله ، فليحضر آمنا مطمئنا ويدير حال بيعته وسياسة طائفته ، فلما سمع القديس بنيامين عاد إلى الإسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاثة عشر عاما . . ففرح الشعب كله بمجيئه» .

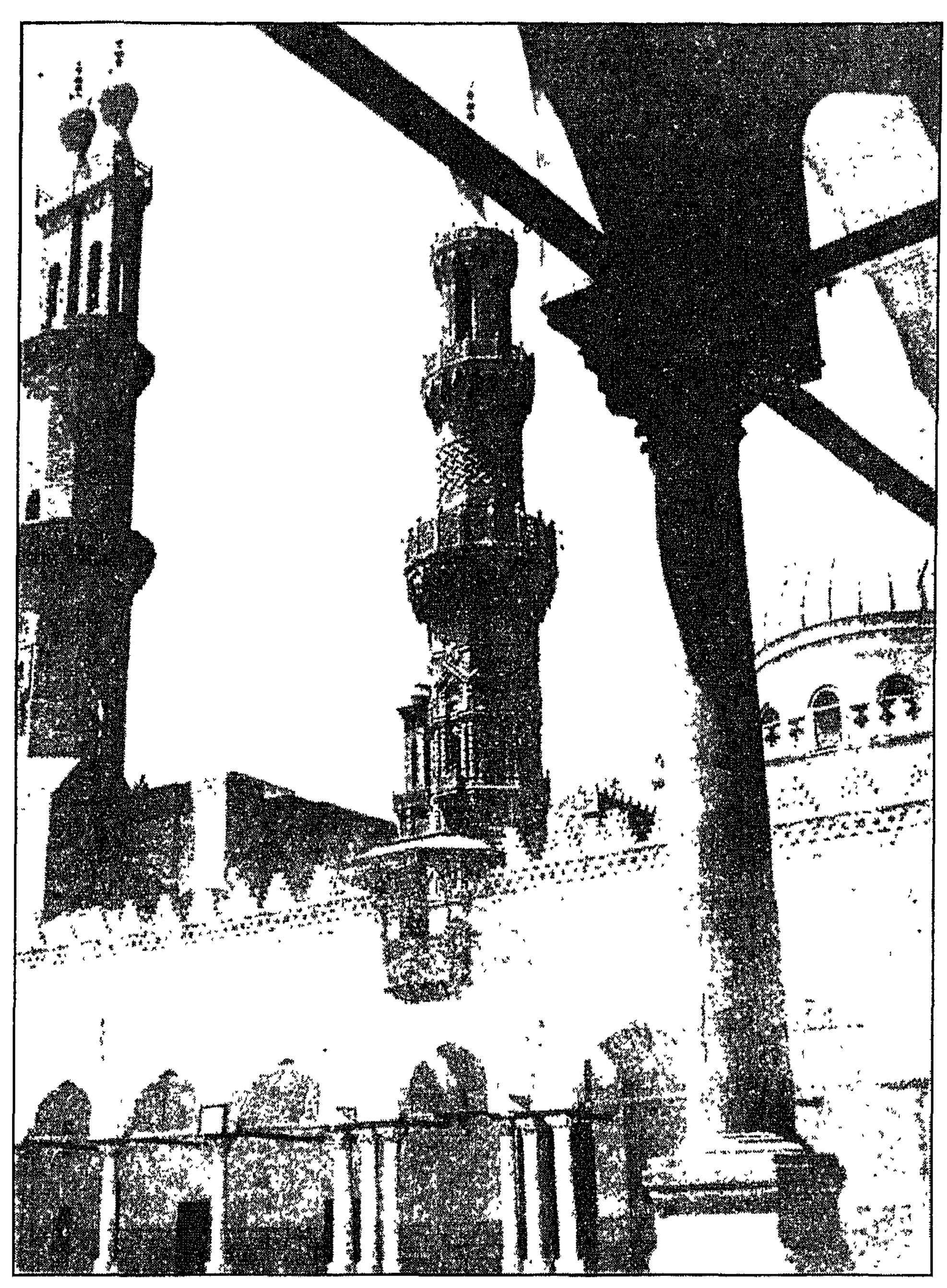
وذهب سانوتيوس وأعلم عمرو بوصوله وحينئذ أمر بإحضاره بكرامة وإعزاز ومحبة ، فلما رآه أكرمه وقال لأصحابه : إن فى جميع الكور التى ملكناها إلى الآن ما رأيت رجلا يشبه هذا .

وكان الأب بنيامين حسن المنظر جدا جيد الكلام بسكون ووقار ثم التفت إليه عمرو وقال : جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم . وانصرف من عنده مكرما مبجلا» .

(جـ) جاء فى تاريخ الأنبا يوحنا أسقف شبشير والذى كان معاصرا لأحداث الفتح الإسلام «أن عمرا لم يأخذ شيئا من أموال الكنائس ولم يرتكب عملا من أعمال السلب والنهب وأسبغ عليها الحماية طوال مدة حكمه» .

(د) جاء فى كتاب سير القديسين والمسمى «بالسنكسار» والذى يتلى منه عادة فصل يناسب كل يوم فى صلوات الكنيسة وذلك فيما يتعلق بسيرة الأنبا بنيامين وظروف حياته مايلى :

وقرّب عمرو بن العاص رؤساء الأقباط وأحسن معاملتهم فاتجه هؤلاء إلى إصلاح شئون الكنيسة التى كان قد اختل نظامها وتفرق شملها فتقدموا إلى ابن العاص وأعلموه خبر اختفاء البابا بنيامين طالبين عودته إلى كرسيه فاستدعاه ومنحه الحرية وأعاد له الكنائس التى كان قد اغتصبها البطريرك



الجامع الأزهر من الداخل . . تحفة معمارية إسلامية وهو منسوب
إلى السيدة فاطمة الزهراء ومن ثم فهو فى الأصل شيعى وأصبح
الآن تعبيرا عن روح الإسلام كله . . ومنارة للفكر الإسلامى كله .

الملكى البيزنطى وأمره أن يتصرف فى أمورها كما يريد فاستطابت لذلك قلوب المسيحيين وشكروا حسن صنيع عمرو إليهم» .

ويبدو أن عمرو بن العاص كان متفهما ومقدرا لموقف المصريين الأقباط من ترحيبهم به لسخطهم على النظام البيزنطى وأتصور - بمفهومى كسياسى - أنه لابد أن يكون قد قطع على نفسه وعودا بأن يترك الأقباط وشأنهم فيما يتعلق بالعقيدة الدينية ، فضلا عن أنه قد خفف الضرائب عن الأهالى .

وتتفرد مصر فى أن لها علاقة مع الإسلام منذ الأيام الأولى ، إذ يروى المؤرخون أن الرسول ﷺ قد بعث برسائل إلى الحكام البارزين فى ذلك العهد فى السنة السادسة من الهجرة وكان من بينهم مقوقس مصر [٢٣] .

وكلمة «مقوقس» يونانية الأصل وتعنى «حاكم» وكان العرب يسمونه «عظيم القبط» ، أما اسمه الأصلى فكان «جرجس بن مينا» وهو مصرى رغم جذوره اليونانية منذ عهد البطالمة .

وفى تلك الحقبة كان الفرس قد داهموا مصر واستولوا عليها بالفعل لمدة عشر سنوات قتلوا خلالها ٨٠ ألف مصرى ، ٧٠٠ راهب ودمروا ٦٢٠ ديرا للرهبان والراهبات .

وعندما وطد هرقل حكمه فى بلاد الشام ترك المقوقس يحكم مصر ولكنه كان يميل إلى الأقباط ومن ثم كان لديه استعداد للتفاهم مع أى قوة يمكن أن يخلص بها الأقباط من اضطهاد البيزنطيين كما سبق القول .

ومن المعروف أن المقوقس قد أرسل هدية إلى «الرسول» جاريتين ودابتين وعسل وثياب وأن «الرسول» قد تزوج من «مارية القبطية» وقد ولدت «إبراهيم» الذى مات قبل أن يبلغ ستة عشر شهرا .

أما «أخت مارية» فقد تزوجها «جهم بن قيس العبدرى» وهى أم «زكريا بن جهم» والذى كان خليفة «عمر بن العاص» فى حكم مصر [٢٤] .

وهكذا توجد (لمصر) علاقة خاصة ومتميزة منذ فجر الإسلام ولكن بسرعة تحول الإسلام إلى قوة سياسية وعكسرية هائلة ولذلك فإن الحكام العرب - فى نشوة انتصاراتهم وفتوحاتهم وفى السنوات الأولى من عهد الخلفاء الراشدين - لم يحاولوا أن يفرضوا الدين الجديد مع الغزو ذاته ، إذ كان هدفهم الأساسى هو تثبيت أقدام الحكم فى المناطق المفتوحة ثم تجهيز الجيوش لتوسيع الإمبراطورية الإسلامية .

وكما دارت صراعات فكرية شديدة فى القرون الأولى للمسيحية حول «طبيعة المسيح» وحقيقة «الكلمة» (اللوجوس) - وقد ألمحنا إلى ذلك فيما سبق - كذلك دارت صراعات فكرية أدت إلى حروب وصراعات شديدة فى العالم الإسلامى من خلال ما يعرف بحركتى الخوارج والشيعة ، ورغم أنهما أخذتا شكل الخلافات المذهبية والتفسيرات لما جاء بالقرآن والأحاديث ولكنهما فى جوهرهما كانتا صراعا بين ما يمكن أن يسمى «مدرسة العروبة» و«مدرسة الإسلام» فالخوارج قامت حركتهم على أن الخلافة أو الإمامة أو الإمارة على المؤمنين ليست وراثية وإنما تحق لمن تختاره الجماعة ، أيا كان «ولو كان عبدا أسود» ولذا تجدهم لايعترفون بالخلافة فى عصر الراشدين إلا لأبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب حيث البيعة واضحة وصريحة ومؤكدة ، أما عثمان بن عفان فقد اعترفوا بشرعية خلافته فى السنوات الست الأولى منها وكذلك اعترفوا بخلافة على بن أبى طالب حتى معركة صفين ، وقد وصل فكرهم من الحدة والنقاء معا إلى «تكفير كل من حاد عن تعاليم الإسلام» إذ يعدونه «مرتدا» وجزاؤه القتل أو «الاستعراض» وهو ما يشار إليه الآن بمصطلح «الاغتيال الدينى» ورغم أن دعوة الشيعة قد بدأت - مثل الخوارج - دعوة إلى الشعوبية - أى الشعوب الإسلامية غير العربية - وتمثل احتجاج أبناء الأمصار المفتوحة على احتكار قريش لقيادة الأمة الإسلامية ، ولكنهم انتهوا سياسيا بعقيدة تخالف الخوارج لأنهم قاتلوا من أجل أن تكون الإمامة مقصورة على أهل بيت الرسول وأن الإمام وحده - من بعد الرسول - هو الذى يعرف «باطن الدين وجوهره» وهو وحده الذى يتأتى له التفسير والتأويل .

ولا أود أن أسترسل فى سرد تاريخ الفكر الإسلامى - فهذا يخرج عن نطاق هذه الدراسة - لأن مقصدى وهدفى الرئيسى منها هو التعرف على تأثير الإسلام على الشخصية المصرية عبر التاريخ وفى مراحله المختلفة .

على أن الأمر الذى استوقف نظرى عند قراءتى لتاريخ هذه الحقبة هو أن المصريين (الأقباط) لم يشتركوا - لا فى قليل أو فى كثير - فى الصراع الحاد بين الفرق المختلفة فلم نسمع أنهم انحازوا إلى الخوارج أو إلى الشيعة ، فلا هم كانوا مع العراق وأهل الكوفة ولا انحازوا لأهل الشام ودمشق وأتصور أنهم قد اتخذوا هذا الموقف غير الطبيعى - والذى يخالف مواقفهم السابقة فى المرحلة الفرعونية أو المرحلة المسيحية وذلك - من وجهة نظرى - للأسباب الآتية :

أولا : استمر المصريون لايتحدثون إلا اللغة القبطية قرونا طويلة بعد دخول العرب إلى مصر ، ولذلك فإن تتبعهم للصراع حول التفسيرات المختلفة للقرآن والسنة خصوصا فى القرن الأول للهجرة ، لم يكن بالعمق والفهم الكافيين ، فى وقت لم يكن هناك سبل لنشر الفكر إلا من خلال التجمعات فى الأسواق أو أماكن العبادة ، ولذلك لم يدرك المصريون أبعاد ما يجرى حولهم فى البلدان العربية أو الصراعات بين فرق الإسلام المختلفة ، مكتفين بأنهم قد تخلصوا من اضطهاد بيزنطة .

ثانيا : حتى أولئك الذين كانوا على بينة من الأمر - وهم بالتأكيد قلة من المثقفين ومن يعرفون القراءة والكتابة أو قريبين من الحاكم - آثروا الصمت والسلامة ، فقد عانوا طويلا من خلال الصراعات المذهبية فى القرون الأولى من المسيحية واستمر اضطهادهم بسبب تمسكهم بمذهب «الطبيعة الواحدة» .

□ □ □

واستمرت السنوات تجرى طوال فترة حكم الخلفاء الراشدين وهى فترة وجيزة جدا على أى حال فقد قُتل على بن أبى طالب عام ٤٠هـ وأسس معاوية بن أبى سفيان الدولة الأموية ، واتخذ دمشق عاصمة للخلافة واستمر الحكم الأموى من عام ٤٠هـ (٦٦١م) حتى ١٣٢هـ (٧٥٠م) وتولى الخلافة فى تلك الحقبة ١٢ خليفة ، ويناظرها فى ولاية مصر ٢٥ واليا (فى عهد الدولة الأموية وحدها) ، وربما كان أهمهم هو «عبد الله بن عبد الملك بن مروان بن الحكم» (٨٦هـ ٧٠٥م إلى ٩٠هـ - ٧٠٩م) إذ إنه قد أصدر أمرا بأن تكون محررات الدواوين بالعربية ، وكانت حتى عهده تكتب - لو اضطر الأمر - بحروف قبطية . أى أنه حتى نهاية حكم الأمويين كانت الديانة المسيحية هى الغالبة بوضوح كما كانت اللغة القبطية هى السائدة بوضوح فى المعاملات والحوار بين الكافة .

وتولى بنو العباس مقاليد الخلافة الإسلامية لفترة طويلة جدا امتدت من (١٣٣هـ - ٧٥٠م إلى ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م) ومرت بمراحل كثيرة متغيرة ومختلفة وبلغت الدولة العباسية أوجها فى عهد هارون الرشيد ، وتولى مصر فى عهد الدولة العباسية ٩٦ واليا بما فيها محاولات الاستقلال فى عهد ابن طولون والإخشيد .

ورغم أنه توجد علاقة أكيدة بين تحول المصريين من المسيحية إلى الإسلام وبين

تحولهم من اللغة القبطية إلى اللغة العربية ، إلا أننا سنكتفى هنا أن نوضح فى إيجاز كيف تحولوا من المسيحية إلى الإسلام وكيف استمرت الديانتان معا ، وفى معايشة لنحو أربعة أو خمسة قرون ولكن الأمر المثير للدهشة هى أن المصريين جميعا (مسلمين ومسيحيين) قد تحولوا جميعا من القبطية إلى العربية فى ذات المرحلة والفترة ، إلى أن تقهقرت اللغة القبطية وأصبحت متداولة فى الأديرة والكنائس فقط وسنعود إلى ذلك فيما بعد عند الحديث عن «الانتماء العربى لمصر» .

وهناك نظريات وآراء كثيرة عن الأسباب التى دعت المصريين المسيحيين ـ وعبر قرون ـ أن يتحولوا من المسيحية إلى الإسلام نذكر منها :

أولاً : يبدو أن الخلافات المذهبية المعقدة التى أثيرت عبر المجامع المسكونية ـ كما سبق التفصيل ـ قد أوجدت حالة من البلبلة وعدم الفهم عند المواطن البسيط العادى ، وبدلا من صراعه مع سلطة الإمبراطورية الحاكمة والقابضة حول أن «للمسيح طبيعة واحدة أم طبيعتان» وجد إجابة جاهزة وسهلة ومباشرة فى شعارات الإسلام البسيطة أن «لا اله إلا الله» وأن «لا كهنوت فى الإسلام» .

ثانياً : عند دخول المسيحية مصر تكونت الكنيسة كتنظيم ـ سرى تحت الأرض ـ يدعو للتبشير بها كأنه «حركة تحرر» فانتشرت المسيحية بسرعة وفى يسر ، حسبما ذكرنا قبل ذلك وكجزء من الاحتجاج على الاضطهاد الرومانى وكجزء من حركة تحرير العبيد .

ثالثا : رغم البداية الرائعة لملابسات دخول عمرو بن العاص إلى مصر ، ولكن مع استقرار الحكم وتتالى الخلفاء فى دمشق وبغداد ظهرت بعض قرارات وتعليمات تعامل الأقباط كذميين ، فالخليفة العباسى المتوكل (توفى فى ديسمبر ٨٦١م) أمر بإجبار أهل الذمة على لبس الطيالسة العسلية والزنانير وأن يضعوا على رءوسهم القلانس المختلفة الألوان .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن مثل هذه الإجراءات التى طبقت على قبط مصر ، كان الولاة يتساهلون فى تنفيذها فى معظم الأحيان وأن التمسك بها كان يقل تدريجيا حتى وإن تم تنفيذها بدقة وقت صدورها وأن هذا الأمر صحيح وثابت تاريخيا (ومن هنا ظهر المثل الشعبى : الغربال الجديد له شدة) .

رابعا : لقد أدرك الفلاح المصرى أن الإسلام فى صوره الأولى البسيطة لايفرض «مؤسسة دينية دنيوية» وأن العلاقة الدينية ستكون مباشرة بينه وبين ربه مما يسمح له بأن ينقل معه إلى الإسلام ما يستهويه من طقوس وعادات من دياناته القديمة سواء تلك التى مارسها فى المسيحية أو تلك التى أخذها معه عبر الفرعونية والتراث القديم .

إن ثقة المصرى البسيط المتدين قد اهتزت ـ عبر التاريخ ـ فى مؤسساته الدينية ، فقد عرف أن كهنة آمون قد تحالفوا مرات متعددة مع الفاتحين والغزاة ، فقد رحبوا بالإسكندر لتخليصهم من الفرس ونصبوا بطلميوس الأول فرعونا من نسل الآلهة مقابل المحافظة على أملاكهم ومعابدهم ورد مانهبه الفرس منها ، ثم تحالفوا بعد ذلك مع ولاة الإمبراطورية الرومانية وذلك فى سبيل الحفاظ على امتيازاتهم ومصالحهم وبدعوى الإبقاء على المعتقدات والمعابد ومن ثم هرع المصريون القدماء إلى المسيحية فى بحر فترة زمنية قليلة وكأنهم ينتقمون من المؤسسة الدينية التى تخلت عنهم .

وعندما دخل العرب مصر قامت المؤسسة الدينية مرة أخرى والتى تحولت إلى المسيحية بالتحالف والخضوع للفاتحين ، وكان ذلك بدعوى إنقاذ الكنيسة من اضطهاد هرقل إمبراطور بيزنطة ، وآمنت الكنيسة نفسها ومصالحها وأديرتها ، ولذلك ـ وتحت ضغوط أخرى سبق الإشارة إليها ـ برر المصريون الأقباط لأنفسهم التخلى عن المؤسسة الدينية والانضمام إلى الدين الجديد الصاعد والذى يعطى أصحابه مميزات من ضمنها أنه لا يحتوى على «مؤسسة دينية قابضة ومسيطرة» .

وإن هذه الدولة المركزية التى يسيطر عليها الوالى وتملك كل شىء ، قد أوجدت على مر العصور والقرون حالة من الخضوع والسلبية لازالت آثارها موجودة حتى الآن وكان ذلك مثار تعليق وتندر كثير من الكتاب والمفكرين نذكر منها بعض العينات :

يرى أرنولد توينبى أن الفلاح المصرى ـ على مر التاريخ ـ كان ينظر إلى ممثلى السلطة ـ وعلى رأسهم حاكم الدولة ـ نظرة إجلال بلغ حد التأليه والتقديس ولذلك كان يذعن لأوامرهم بصورة شبه مطلقة وأصبحت طاعة الحاكم وكل من يمثله واحدة من أبرز صفات الفلاح المصرى(٢٥) .

ويصل الباحث المصرى كمال المنوفى إلى ذات النتيجة وبتبرير مماثل ، فيرى «أن الفلاح المصرى يتصور أن الثورة على الحاكم المسلم ، مهما بلغ جوره ، شىء مرذول ،

وذلك عملا بفتوى الإمام أحمد بن حنبل والقائلة بأنه على الرغم من أن الحاكم الجائر لا يطاع فى معصية ، فإنه لايجوز الخروج عليه ، لأن ذلك يعنى استبدال الأمن بالخوف وإثارة الفتن والعنف وتهديد كيان الأمة ووحدتها ، ولذلك فإنه من الحكمة أن تصبر الرعية على جور الحاكم عملا بحكمة وجوب تحمل أخف الضررين[٢٦] .

أما عباس محمود العقاد فكان له رأى مختلف من منطلق أن الإنسان المصرى ينظر إلى السلطة نظرة الشك والريبة وليس التقديس والخوف ، وأن الفلاح يرتبط بالأمة والحياة القومية عن طريق روابط الأسرة التى تشكل له ضمانا ما ضد القسوة والظلم . . وأن الفلاح كان دائما متحفزا للتغيير ، غير أن الفلاح فى ثورته يريد أن يرى الصفوف حوله ولايحب أن يخاطر وحده[٢٧] .

وهذه الصفة «للجماعية فى العمل» هى ظاهرة مصرية واضحة فى كل رقائق الحضارة على تتاليها لأنها نابعة من ظروف الحياة وواقعيتها ، فالعمل فى القرية عمل جماعى والعمل فى الغيط والحقل مشاركة بين الرجل وزوجته وأولاده ، وأعمال الرى والسيطرة على الفيضان لن تتم إلا من خلال تنظيم جماعى على مستوى الدولة المركزية وحماية الرقعة الزراعية من غارات البدو لم يكن من الممكن تحقيقه دون تعاون بين جملة قرى[٢٨] .

ولذا فإن الشخصية المصرية لابد أن تكون «تجميعية تجمعية» تسعى لأن تقف على المصلحة المشتركة والأرضية التى تجمع ولا تفرق .

□ □ □

ورغم أن هناك روايات كثيرة حول ظروف وأسباب وملابسات التحول إلى الإسلام ، إلا أن هناك شبه إجماع على أن «مصر لم تبد كبلد ذى أغلبية إسلامية إلا فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر[٢٩] كما أن انتشار الإسلام كان فى الوجه البحرى أولا ثم امتد إلى الصعيد ، أما بلاد النوبة فقد ظلت مسيحية بأكملها حتى القرن الرابع عشر[٣٠] . وكل ذلك يعنى أن تعايش الديانتين استمر داخل آلاف العائلات ولقرون طويلة ، وهذا ما أوجد هذه الألفة التى نلمس استمراريتها حتى الآن ، وهو الأمر الذى حرصنا على إبرازه فى فصل سابق .

وإذا كانت قد مرت على مصر فترات اضطهاد لسبب أو لآخر ، فالملاحظ هو أن الاضطهاد لم يكن مقصورا على الأقباط وإنما عند وجود موجة اضطهاد بسبب توجهات من الخليفة أو تعليمات من الوالى فإن الاضطهاد كان عاما وشاملا للمصريين جميعا .

والوجه الآخر ـ المنطقى ـ هو أنه كلما كان الخليفة أو الوالى أكثر سماحة وقلل من الضرائب على المصريين جميعا ، كان الشعب كله أكثر رضا ، وفى تلك الفترات كان الاضطهاد على الأقباط غير واضح أو ملحوظ بل كانوا ينعمون بحرياتهم فى ممارسة طقوس ديانتهم فى وقت لم يكن فيه أمر حقوق الإنسان مطروحا أو معروفا .

وفى هذا الأمر كان الأقباط «كأقلية ذمية» فى ظروف أفضل بكثير من الأقليات أو «الملل» المماثلة فى باقى أنحاء الدولة الإسلامية ولعل ذلك كان راجعا إلى طبيعة الأقباط الصبورة والمتحملة والتى كانت تقبل الاضطهاد المحتمل دون ضجر واضح فضلا عن وجود نصوص مأثورة توصى بقبط مصر خيرا .

□ □ □

ومن قراءاتى ولما هو متاح من معرفة بالتاريخ لاحظت أن الحقبة الزمنية الطويلة من عام ٦٤١م (الفتح العربى لمصر) حتى عام ٩٦٩م (عندما دخل جوهر الصقلى الفسطاط وهى فترة تمتد لما يزيد على ٣٠٠ سنة كانت فترة رتيبة بطيئة مملة ، ونعرف عنها «أقل القليل» وفيها ومن خلالها استسلم المصريون وقبلوا الأمر الواقع فقد استقبلوا العرب ـ ليس كفاتحين ـ ولكن كمنقذين لهم من نير الرومان ، فإذا بهم يحكمون بعشرات من الولاة المتعاقبين والغرباء عن البلاد فكان هناك ٦ ولاة فى فترة الخلفاء الراشدين وأعقبهم ٢٥ واليا فى عهد الخلافة الأموية وتلا ذلك ٩٦ واليا طوال فترة الدولة العباسية ومجمل القول أنه فى خلال الفترة من ٦٤١م إلى ١٢٥٨م تولى فيها ٢١٣ واليا حكم مصر ، أى بمعدل نحو ثلاث سنوات للوالى ، وبقراءة جدول ولاة مصر كانت مدة حكم بعضهم ، عدة أيام أو أشهر وامتدت لآخرين سنوات معدودة .

ومنذ حكم الإسكندر حتى حكم عبد الناصر ، عاش المصريون على أمل التغيير إلى الأفضل ، فكلما سمعوا بوفاة إمبراطور أو خليفة أو وال ، كانوا

يتوقعون حكما أعدل وظروفا أحسن ، وفى النهاية ومع كثرة التغيرات استسلموا للأمر الواقع .

فى بعض الأحيان كانوا يساعدون طرفا ضد طرف بأمل أن يفضى ذلك إلى تحسن الأحوال ، وأعتقد أن المرة الأخيرة التى قاموا فيها بهذه المحاولات - والتى كانت تنتهى دائما إلى إحباط - هى عندما ساعدوا الفاطميين على دخول مصر ، ورحبوا بالفعل بالخليفة المعز لدين الله الفاطمى (رمضان ٣٦٢هـ - يونيو ٩٧٣م) وتحولت مصر إلى دار خلافة (أى يحكمها الخليفة ذاته) بعد أن كانت ولقرون دار إمارة (أى يحكمها الأمير أو الوالى من قِبَل الخليفة وأصبحت القاهرة عاصمة هذه الخلافة الجديدة (بخلاف خلافتين أخريين ، واحدة فى بغداد هى امتداد للخلافة العباسية وأخرى فى الأندلس هى امتداد للخلافة الأموية) .

وفى تقديرى فإن البداية الحقيقية لحقبة الحضارة الإسلامية فى مصر . . تبدأ من حكم الفاطميين مصر فهى التى شهدت التحول الأكبر من المسيحية إلى الإسلام فى عهد الحاكم بأمر الله ثم حدث التحول من اللغة القبطية إلى العربية فى فترة بعد ذلك بنحو قرن .

ولايجوز الحديث عن مصر الفاطمية بغير الحديث عن الأزهر تلك المؤسسة الدينية الكبرى التى قامت لتكون جامعا ثم لم تلبث أن صارت جامعة وقد سميت بالأزهر نسبة إلى فاطمة الزهراء ابنة الرسول ﷺ .

فقد وضع حجر الأساس فى بناء الأزهر فى يوم السبت ٢٢ جمادى الأولى عام ٣٥٩هـ الموافق الثانى من إبريل عام ٩٧٠م - كما ورد فى المقريزى - وتوخى جوهر الصقلى أن يكون المسجد فى موقع متوسط من العاصمة الجديدة القاهرة .

وأقيمت أول صلاة بهذا الجامع الجديد بعد نحو عامين فى يوم الجمعة ٦ رمضان عام ٣٦١هـ وقد لاحظ المصلون أن أول خطبة ألقيت على منبر الأزهر تضمنت تغييرات هامة فى متن الخطبة فقد أمر «جوهر» بقطع الدعاء للخليفة العباسى واستبداله «بالحاكم الفاطمى» وأمر جوهر بأن يكون الدعاء فى الخطبة كالآتى : «اللهم صلى على محمد المصطفى ، وعلى عَلِىّ المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول ، الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، وعلى الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله» .

كما أضاف إلى الآذان عبارة «حى على خير العمل» وكل هذه الإضافات من تقاليد الفكر الشيعى ، الفكر الرسمى للدولة الفاطمية .

وبعد حضور المعز لدين الله إلى مصر ، بدأ الأزهر يباشر مهمته فى الدعوة إلى المذهب الجديد ، وجلس قاضى القضاة أبو الحسن بن النعمان فى صحن الأزهر يقرأ مختصر أبيه (أبو حنيفة النعمان بن حيون) فى فقه الشيعة ، وحضر الدرس جمع حافل من وجوه الدولة وعلمائها وأثبت القاضى أسماء الحاضرين .

فكانت هذه أول حلقة للدرس بالأزهر .

وعلى مر العصور سار الأثرياء والأمراء والكبراء على نهج الخلفاء الفاطميين ، فتنافسوا فى إقامة حلقات الدرس وتشييد الأروقة للمجاورين - طلبة الأزهر - وصارت مساكن يأوى إليها طلاب العلم وأعدت بجانبها محلات للغسيل وأخرى للوضوء وغيرها لطبخ الطعام بحيث لايحتاج الطالب إلى مغادرة الأزهر إلا نادرا(٣١) .

وهكذا تحول الأزهر إلى أقدم جامعة دينية فى وقتها ولعل فى ذلك إحياء لتراث جامعة عين شمس الفرعونية ثم جامعة الإسكندرية فى الحقبة اليونانية - الرومانية ثم مدرسة الإسكندرية اللاهوتية فى القرون الأولى للمسيحية . . فجاء الأزهر ليكون منذ إنشائه وحتى الآن منارة فكرية للعالم الإسلامى .

وعندما قام الفاطميون بإنشاء دولتهم ومقر الخلافة استعانوا بعدد هائل من الموظفين ، إذ أنشأوا خمسة عشر ديوانا (وكان كل ديوان أشبه بالوزارة) وتزايد عدد المصريين (مسلمين وأقباطا) الذين شغلوا كافة المستويات من الوظائف فى هذه الدواوين .

وتحولت القاهرة لتكون أقوى مقرات الخلافات الثلاث من خلال حركة ثقافية مزدهرة بإنشاء كل من الجامع الأزهر ودار الحكمة وأصبح الجامع الأزهر منذ تلك الحقبة وإلى الآن مصدر معرفة وفكر وفقه ، وأتصور أن هناك تشابها فى الزخم الثقافى فى هذه الفترة يناظر ما تمتعت به مصر فى القرون الأولى للمسيحية عندما كانت مدرسة اللاهوت بالإسكندرية هى مصدر المعرفة وكانت مكتبة الإسكندرية هى المرجع لكل ما يكتب ، لأنه بنفس الطريقة تحول الأزهر ليكون قبلة العلماء وطلاب العلم والمعرفة فى كافة أمور الدين والدنيا من كل الأقطار دون تفرقة فى

الجنس أو اللغة أو الطبقة وقدم الأزهر عبر العصور إسهاما حضاريا يرتكز على العقلانية والتوجهات المنطقية المتطورة والمتقدمة عما حولها بمقاييس ذلك الزمن ، «فما بال قوم ينكرون على مصر حقها فى أن تفاخر بأنها حمت العقل الإنسانى مرتين : حين أوت فلسفة اليونان وحضارته أكثر من عشرة قرون وحمتها وحين أوت الحضارة الإسلامية وحمتها إلى هذا العصر الحديث(٣٢) .

ومن خلال العلماء الوافدين من كافة أركان الأرض إلى الأزهر جاءت معهم مصادر معرفة جديدة ، أدت إلى إثراء الفكر القومى المصرى . وحتى بعد أن انتهى حكم الفاطميين ظل الأزهر محافظا على هذا التراث وهذه الممارسات بالانفتاح على كافة الدول الإسلامية إلى يومنا هذا .

وعلى سبيل المثال ، فإن فكرة تسجيل كتاب عن «مشاهير العرب» جاءت أصلا من خليل المرادى ـ وهو قاض من دمشق وقد طلب المرادى من الشيخ مرتضى الزبيدى ـ وهو يمنى من زبيد ـ وكان يدرس فى القاهرة أن يعاونه فى جمع التراجم ، فطلب الزبيدى من تلميذه عبد الرحمن الجبرتى ـ وهو أصلا من جبرت فى الحبشة ـ أن يعاونه ، وانتهى الأمر بأن انفرد الجبرتى بهذه المهمة والتى أسفرت عن كتاب «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» والذى يعتبر من أهم المراجع لتاريخ مصر(٣٣) .

أما دار الحكمة فقد جمع فيها الفاطميون كل ما كان فى القصور من كتب ومراجع ووضعت فى متناول العلماء وطالبى الدراسة والبحث ولذلك فإن هذه الحقبة هى التى أكسبت اللغة العربية الطابع القومى وتحولت تدريجيا من لغة الفاتحين إلى لغة المثقفين وطبقة الموظفين فى الدولة .

وكان طبيعيا أن يكون دخول الفاطميين هو نقطة تحول من السنة (أو الإسلام بشكل عام دون تخصيص مذهبى) إلى الشيعة ، ومن الطبيعى أيضا أن لاتكون القضية هى مسألة حوار واقتناع مذهبى بقدر ما كان التحول نتيجة سخط المصريين جميعا (من ظل على ديانته المسيحية ومن أسلم) على دولة العباسيين ، فقد ساهم ذلك فى أن يتحول جانب من المسلمين إلى الشيعة ، وأن يسلم كثير من الأقباط ويتحولوا إلى الشيعة كذلك .

لم تدم فترة الازدهار النسبى طويلا فقد أدى تفكك الأمة الإسلامية وتقسيمها إلى ثلاث خلافات إلى إغراء وطمع الصليبيين على غزو المنطقة وفى لحظة معينة

اضطر حكام مصر إلى الاستعانة بحاكم الشام نور الدين بن زنكى ، فارسل إليهم بعض قواده ومنهم أسد الدين شيركوه ومعه ابن شقيقه «صلاح الدين يوسف بن أيوب» وقد تمكنا من هزيمة الصليبيين عند الإسكندرية عام ١١٦٧م وكان ذلك مدخلا لانتهاء حكم الفاطميين وبداية لحكم الدولة الأيوبية لمصر والذى استمر نحو ٨٢ عاما ولكنه استمر يحكم (فى ظل استقلال مصر) وتحت مظلة الخلافة العباسية كما كان يحكم ابن طولون والإخشيد .

ولم يكن صلاح الدين مصريا ولا عربيا (لأنه كردى المولد ، ولكنه بذكائه وجسارته أدرك الحلقة الرئيسية فى صراع تلك الحقبة ، وأن لا انتصار دون وحدة لصف العربى فعبأ العالم العربى إلى أن استطاع أن يحقق انتصارا مرموقا فى معركة حطين .

وفى حوار لى مع الزعيم ياسر عرفات فى مدينة الجزائر عام ١٩٨٧ حول الندوة التى نظمتها اللجنة المصرية لمنظمة تضامن الشعوب الآسيوية والأفريقية فى القاهرة لمناسبة مرور ٨٠٠ سنة على انتصار حطين أبدى إعجابه بما قاله البابا شنودة من أن هذه الحرب تسمى «الحرب الصليبية» عند الغرب لأنهم اتخذوا من الصليب شعارا ومبررا للغزو ولكن العرب كانوا أكثر ذكاء وفطنة إذ يسمونها «حرب الفرنجة» من منطلق أنهم رأوا غزوة حضارية من الفرنجة (أى الأجانب أو الأغراب) للبلاد العربية . وكيف أن الصليبيين لم ينجحوا فى استمالة أقباط مصر إليهم على اعتبار أنهم يحاربون تحت راية الصليب ، وحارب الأقباط إلى جوار المسلمين للدفاع على أرض الوطن ، أرض المسلمين والأقباط معا .

وقد عقب ياسر عرفات على تعليقى قائلا : إننا الآن لا نحارب اليهود كديانة ولكننا نحارب الصهيونية باعتبارها غزوة حضارية ضد شعبنا مثل غزوة الفرنجة تماما ولذا فإننا كشعب فلسطينى نحارب جنبا إلى جنب ـ مسلمين ومسيحيين ـ دون تفرقة ومن هنا كان جورج حبش ونايف حواتمه يحتلان مواقعهما المتقدمة فى صُلب المنظمة ، وهذا ما تلمسه فى كل موقع فى الأرض المحتلة وفى الضفة والقطاع حيث الألفة والمحبة والتآخى واضحة بين المسلمين والمسيحيين مثلما هو الحال فى مصر (وقد أكدت الانتفاضة هذا المعنى) ولذلك فإننى كنت قلقا أشد القلق عندما سمعت أخبار القلاقل المتكررة والفتنة الطائفية فى مصر ولكننى كنت ولازلت متأكدا من أن مصر سوف

تتجاوزها عندما تحل مشكلة فلسطين لأن ذلك سيقلل التوجه الطائفى ويزيد التوجه الوطنى .

وامتدت على مصر فترة مظلمة كئيبة هى حقبة حكم المماليك والعثمانيين (من ١٢٥٢م حتى عام ١٨٠٥ عندما عين محمد على واليا على مصر) وهى فترة طويلة تمتد لنحو ٦٥٠ عاما كان حكم مصر فى يد حكام غير مصريين إذ كانوا خليطا من الأتراك والشراكسة والروم والروس وأقلية أوروبية .

ففى فترة المماليك كان الحكم تحت مظلة الخلافة العباسية والتى انتهت بقيام الدولة العثمانية ولكن فتحها لمصر كان على يد السلطان سليم الأول عام ١٥١٧م . وكان ذلك حين أغار العنصر التركى على هذه الأقطار الإسلامية فى حوض بحر الروم فردها إلى انحطاط بعد الرقى ، وإلى جهالة بعد العلم ، وإلى ضعف بعد القوة»[٣٤] .

ولا أود أن استرسل فى سرد الأحداث التاريخية - فهى معروفة وليس هذا موقعها ، كما وأنها ليست تخصصى الأصيل - ولكن الحقبة الأخيرة من هذه الرقيقة للعصر الإسلامى لم تكن إضافة إلى الشخصية المصرية بقدر ما كانت بصمتها سالبة ومملوءة بالتخلف ، فقد فقد المصرى «خربوشه» وفاعليته وسلم أمره إلى الله وتركها سداحا مداحا لمن هو أقدر على حمل السلاح وعمل المؤامرات وقتل الآخرين من الحكام ليحكم هو بدلا منه (هكذا كانت القاعدة أيام المماليك) وامتدت هذه الحقبة الأخيرة قرونا طويلة ولدت لدى المصرى إحساسا بكراهية الحاكم والصبر على أخطائه ، اتسامه بالسلبية والتخلف والصبر والإحباط «ولو أن الله قد عصمنا من الفتح العثمانى لاستمر اتصالنا بأوروبا وشاركنا فى نهضتها . . ولكان للحضارة الحديثة شأن غير شأنها الآن»[٣٥] .

غير أن هذه الرقائق فى مجموعها من الفرعونية إلى نهاية العهد العثمانى أوجدت تأثيرا حضاريا ممتازا وطيبا يدل على خامة أصيلة تلمع إذا احتكت بمناخ جيد ، ويدل على ذلك قدرة المصرى المهاجر إلى أمريكا واستراليا على التأقلم السريع واستيعاب كل منجزات العصر ولكن الأمر فى مصر يحتاج إلى «نظام» أو منظومة System تفجر هذه الطاقات المدفونة والمتراكمة وتضعها فى إطارها الحضارى الدافع إلى التقدم .

هوامش ومراجع الفصل الثالث

أولاً : الانتماء الفرعونى :

١ ـ د . جمال حمدان : شخصية مصر عبقرية المكان : الناشر : عالم الكتب ١٩٨٠ ص ٤٥ .

٢ ـ د . هنرى بريستد : فجر الضمير ترجمة د . سليم حسن : مكتبة مصر عام ١٩٨٠ ص ٦٣ .

٣ ـ د . لويس عوض : مقدمة فى فقه اللغة العربية ، الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٨٠ ص ١٧ .

٤ ـ د . هنرى بريستد : مرجع سابق ص ٤١٢ .

٥ ـ د . طاهر عبد الحكيم : الشخصية الوطنية المصرية ، قراءة جديدة لتاريخ مصر : دار الفكر والدراسات والنشر والتوزيع ـ القاهرة ١٩٨٦ ص ٧٢ وما بعدها .

٦ ـ د . هنرى بريستد : يؤكد هذه المعلومات فى مرجع سابق ص ٤١١ .

٧ ـ د . ناصر الأنصارى : موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم ـ دار الشروق عام ١٩٨٧ ص ١٢ .

٨ ـ تفضل الصديق د . هنرى رياض ـ المدير السابق لكل من المتحف المصرى بالقاهرة والمتحف الرومانى بالإسكندرية ـ بمراجعة التواريخ والمادة العلمية لكل من العصر الفرعونى والعصر اليونانى ـ الرومانى .

ثانياً : العصر اليونانى ـ الرومانى :

٩ ـ د . ناصر الأنصارى : مرجع سابق ص ٣٩ .

١٠ـ د . ناصر الأنصارى : مرجع سابق ص ٤٠ ، ٤١ .

١١- د . طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر - دار المعارف بمصر عام ١٩٣٨ ص ١٧ .

١٢- د . لويس عوض : مقال بالأهرام بتاريخ ١٦ يوليو ١٩٨٨ .

ثالثا: العصر القبطي:

١٣- شيد الملك قسطنطين على أطلال مدينة «بيزنطة» القديمة ، مدينة جديدة أسماها على اسمه القسطنطينية ، وأصبحت عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، وكان قسطنطين أول إمبراطور مسيحى للإمبراطورية الرومانية .

١٤- د . حسين مؤنس : مصر ورسالتها - الطبعة الرابعة عام ١٩٧٣ ص ٢١ .

١٥- د . وليم سليمان قلادة : المسيحية والإسلام على أرض مصر - كتاب الحرية ١٩٨٦ ص ٨٣ .

١٦- كان إريوس كاهنا لكنيسة الإسكندرية وتذهب تعاليمه إلى أن الله واحد فى الجوهر غير قابل للتعدد ولا للتجزئة ، وأن المسيح مخلوق وله بداية وأن ابن الله هو الكلمة «اللوغيوس» التى صدرت عن إرادة الله الخالقة وأن الكلمة هى أولى مخلوقات الله وأنها وجدت قبل الزمان وقبل كل العصور .

١٧- ذهب نسطور إلى أن المسيح المتجسد أقنومان ، أحدهما إلهى ويعلو على الآلام والموت ، والآخر بشرى يتعرض للآلام والموت .

١٨- د . مصطفى الفقى : الأقباط فى السياسة المصرية - مكرم عبيد ودوره فى الحركة الوطنية دار الشروق ١٩٨٥ - ص ٢٠ .

١٩- أبو سيف يوسف : الأقباط والقومية العربية - مركز دراسات الوحدة العربية بيروت القاهرة عام ١٩٨٨ ص ٣٩ .

٢٠- د . مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ص ٣٦ .

رابعا: العصر الإسلامي:

٢١- أبو سيف يوسف : مرجع سابق ص ٤٣ .

٢٢- د . وليم سليمان قلادة : مرجع سابق الفصل الأول ص ٢٠ .

٢٣- حامد سليمان : من القبطية إلى الإسلام - قصة فتح مصر - المكتب العربى للمعارف - القاهرة ١٩٨٨ ص ٢٧ .

٢٤- حامد سليمان : مرجع سابق ص ٣٠ .

٢٥- Arnold Toynbee, Astudy of History, Oxforod Press 1955 Vol 9 P. P. 515 .

٢٦- د . كمال المنوفى : الثقافة السياسية للفلاحين المصريين - بيروت دار ابن خلدون ص ٩٧ - ١٩٨٠ .
٢٧- د . طاهر عبد الحكيم : مرجع سابق ص ٦٨ .
٢٨- د . طاهر عبد الحكيم : مرجع سابق ص ٦٩ .
٢٩- د . طاهر عبد الحكيم : مرجع سابق ص ٩٧ .
٣٠- د . حسين مؤنس : مرجع سابق ص ٩٧ .
٣١- جمال بدوى : جريدة الوفد القاهرة ٥ أكتوبر ١٩٨٩ .
٣٢- د . طه حسين : مرجع سابق ص ٣٩ .
٣٣- د . محمد أنيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث - دار النهضة العربية بالقاهرة ص ١٨٣ .
٣٤- د . طه حسين : مرجع سابق ص ٢٨ .
٣٥- د . طه حسين : مرجع سابق ص ٣٧ .





الفصل الرابع

انتماءات بحكم المكان

- الصراع بين «مدرسة الإسلام» و «مدرسة العروبة» صراع قديم .
- الجامع الأزهر يحيى تراث جامعة الإسكندرية القديمة .
- «حرب الفرنجة» وليست «الحروب الصليبية» .
- الأقباط ليسوا سلالة نقية للفراعنة .
- الدول العربية بين مجموعة «أحادية الديانة» و «ثنائية الديانة» .
- الانتماء إلى البحر المتوسط يخص المثقفين .
- اليونان أثرت فى مصر بقدر ما أثرت مصر فى اليونان .
- ليس هناك تناقض بين الانتماء العربى والانتماء الأوسطى .
- مصر لا تعرف التفرقة العنصرية .
- مستقبل مصر مع أفريقيا .



ثانيا: انتماءات بحكم المكان

علاوة على هذه الرقائق أو الأعمدة الأربعة التاريخية بحكم الزمان والتى أوضحناها فى الفصل الثالث السابق يتبقى انتماءات ثلاثة جغرافية بحكم المكان نلقى على كل منها الضوء فى هذا الفصل الرابع .

العامود الخامس: انتماء مصر العربى

قبل أن نتحدث عن واقع العلاقات والروابط بين مصر والعرب كما نعرفها فى العصر الحديث سواء كانت فى حقبة عبد الناصر أو بعدها ، لابد من الرجوع إلى الوراء كثيرا لنتأكد أن العلاقة بين مصر والعرب تسبق بقرون عديدة ظهور الإسلام ذاته .

ولا أجد أفضل من أن أقتبس بعض فقرات من الدراسة القيمة والجادة والتى أخذت سنوات من المفكر أبو سيف يوسف ، بعنوان : «الأقباط والقومية العربية» ، والتى قام بها بتكليف من «مركز دراسات الوحدة العربية» والذى كان حريصا على إلقاء الأضواء التاريخية على هذه العلاقة المصرية - العربية :

- «على الرغم من أن فتح العرب لمصر ، يمثل نقلة كيفية فى تاريخ الهجرات العربية إلى مصر ، فإن هذا لا ينفى أن سكان شبه الجزيرة - حتى قبل أن يسموا عربا - كانوا على اتصال بشعب مصر منذ زمن يسبق عصر قيام الأسر الفرعونية .
- فى أوائل عصر الأسر دخل العرب مصر فى أعداد كبيرة عن طريق ساحل إريتريا واستقروا بها ، كما أن الأسر المصرية الغازية التى عبدت «حورس» كانت عربية ودخلت مصر عن طريق مدينة «مصوع» .
- شكلت سيناء أيضا مدخلا هاما رئيسيا من مداخل هجرة القبائل البدوية ومن بينها القبائل العربية .
- أن ما تركه عصر الأسرات الفرعونية من نقوش وكتابات يثبت أن العرب كانوا - فى حدود عام ٢٠٠٠ ق . م يسكنون الصحراء الغربية والشاطئ الأعلى للنيل واستوطنوا جبال سيناء والمنطقة الصحراوية الممتدة بين مصر وفلسطين .

■ يذهب بعض الباحثين إلى أن القرون الأربعة أو الخمسة الأولى التى سبقت انتشار الإسلام كانت بمثابة المرحلة التحضيرية لتعريب «إقليم الشرقية» فى مصر ، فقد بلغ تركز القبائل الرحل فى شرق الدلتا حدا دعا الإدارة المحلية إلى تسمية هذا الإقليم باسم « الإقليم العربى» وفى اليونانية يسمونه «أرابيا» وقد عرفه القبط تحت اسم «ترابيا» أو «طرابيا» .

■ وبعد فتح العرب لمصر شهدت البلاد مرحلة جديدة ونشطة من هجرات القبائل العربية جاءت أصولها من الجزيرة العربية ولدينا هنا خمس هجرات رئيسية :

- الأولى : جاءت من الفتح وضمت أعدادا كبيرة من العرب المسيحيين .
- الثانية : جاءت بمقتضى سياسة مخططة من خلفاء بنى أمية .
- الثالثة : كانت فى عهد الخليفة العباسى المتوكل .
- فى العصر الفاطمى وفد من المغرب قبائل من البربر تحمل أنسابا عربية وجاءت من المشرق دفعات أخرى من العرب .
- فى القرن السادس الهجرى ساعد صلاح الدين الأيوبى بعض العشائر العربية على أن تستقر فى الحوف الشرقى مكافأة لها على اشتراكها فى قتال الصليبيين[١] .

■ وخلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة بلغ مجموع القبائل العربية وبطونها التى وفدت إلى مصر وأقامت بها ٢٤٤ قبيلة وبطنا : منها ٦٠ قبيلة وبطنا من عدنان ، ١٧٢ قبيلة وبطنا من قحطان ، هذا غير عدد آخر من التجمعات الخاصة والقبائل المجهولة [٢] .

وعلاوة على هذه الموجات من الهجرة العربية ، هناك موجات أخرى تلتها أو سبقتها من جنسيات ودول كثيرة بعضها قديم والآخر حديث فهناك الأتراك والشراكسة وقت المماليك والعثمانيين ولابد أن يكون قد تم تزاوج فى فترة الحملات الصليبية (فى المنصورة وفى غيرها) وفى العصور الحديثة جاءت الحملة الفرنسية ثم جاء الاستعمار البريطانى وهناك جاليات كبيرة من اليونانيين والإيطاليين هاجرت من بلادها فى ظروف مختلفة فى القرن التاسع عشر وبعده ، وقد أقاموا فى المدن والريف لسنوات طويلة وهناك بعض الأرمن جاءوا هاربين قبل وأثناء مذبحة الأرمن بواسطة الأتراك عام ١٩١٥ .

وإذا كانت أمريكا تدّعى أنها بوتقة الانصهار Melting Pot للجنسيات والشعوب التى غادرت إليها عبر القرون الأربعة الأخيرة وتزعم أنها قد كونت من هذا الخليط العجيب ما يسمى «بالشخصية الأمريكية» فلمصر أن تتباهى بأنها أقدم «بوتقة انصهار» فى العالم ، وأن نتاج هذا الانصهار هو سبيكة واحدة متجانسة نظرا للعمق التاريخى لهذا الانصهار ولأنه تم عبر قرون أطول .

ولذلك فإن الحديث عن النقاء العرقى فى مصر هو حديث سخيف وغير مقبول ، لأن الواقع يدحضه ، فلا يوجد قوم يزعمون أنهم من «سلالة نقية للفراعنة» ، كما لا يوجد من يزعم أنه يحمل «دماء عربية نقية» أو أنه «تركى لحما ودما» . فقد ذابت تلك العناصر التى دخلت فى ظروف مختلفة وامتزجت ، فتولدت شخصية مصرية تحمل بعض الملامح أو الخلفيات أو الانتماءات من هنا وهناك .

وإذا كان الأقباط كثيرا ما يتوهمون أنهم يحملون أصولا فرعونية فما ذلك إلا رد فعل طبيعى كأقلية تود أن تؤكد انتماءها لهذا الوطن وحده دون سواه ، ففى الأقباط أشخاص ببشرة ناصعة البياض وعيون شديدة الزرقة أو «الخضار» وشعور تحمل لون الذهب ، فمن أين لهذه العائلات كل ذلك إلا من خلال اختلاط ما مع الفرنسيين أو مع بعض العائلات المسيحية التى هاجرت من الشام نتيجة الاضطهاد هناك ، ففى ذات العائلات من لديهم بشرة سمراء وتقاطيع فرعونية ، فهذه ظاهرة متكررة فى العائلة الواحدة لكل من الأقباط والمسلمين .

وإذا وجد من يدعو لما يسمى «بالقومية القبطية» مثلما قامت جماعة هزيلة سمت نفسها «الأمة القبطية» فى الخمسينيات فإنها فقاعات لابد من وجودها «لتحقيق الذات» لبعض المتعصبين - ولا توجد أمة بدون بعض المتعصبين - ولكن جماهير الأقباط قاومتها فى حينها ثم تركتها تموت فى هدوء ، لأن الأقباط - بذكائهم التاريخى - يعرفون أن استمرارهم وبقاءهم هو فى الانتشار والتداخل والمعايشة المشتركة .

ومن هذا المنطلق أكد كل زعماء الأقباط المدنيين (فضلا عن البابا شنودة باعتباره الزعيم الروحى للأقباط) أنهم لا يقرون مبدأ قيام حزب مستقل للأقباط ، وكان ذلك فى يناير ١٩٨٩ عندما تقدم زمرة من بسطاء الأقباط بطلب إنشاء حزب أسوة بباقى الأحزاب ، ولكن عندما لمسوا المقاومة من كل الأطراف الشعبية والحكومية وعدم الرغبة فى شق مصر ، تقدموا هم بطلب آخر رسمى للجهة المختصة يسحبون الطلب

الأول وقد قام ماجد عطية الصحفى المعروف بمجلة «المصور» بجهد كبير وراء الكواليس فضلا عن تحقيقاته الصحفية التى أكدت وعززت وحدة الشعب المصرى .

على أن التساؤل الذى استغرق كثيرا من الباحثين هو لماذا وكيف تخلى المصريون فى العهد العربى عن لغتهم القبطية (وهى امتداد للغتهم المصرية القديمة) مع أن مصر قد غزيت بحضارات وشعوب أخرى قبل العرب (مثل الفرس والأشوريين واليونانيين والرومان) ولكنها لم تؤثر فى لغة مصر ؟ ثم لماذا استجاب المصريون جميعا لتغيير اللغة ولم يقتصر الأمر على من تحولوا إلى الإسلام مثلما حدث فى إيران أو أفغانستان أو بعض الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى حيث اعتنق الشعب الدين دون تغيير اللغة فقد تحولت إيران مثلا إلى الإسلام ولكنها تمسكت بلغتها الفارسية رغم قربها من العراق التى كانت مركزا للخلافة العباسية لنحو خمسة قرون .

كل هذه أسئلة جديرة بالفحص ولكننى سأتناولها فى عجالة بهدف الوصول إلى أن الانتماء العربى لمصر هو انتماء مقبول تسرب للمصريين حسب مصلحتهم وبرضاهم ودون عنف .

أظن أنه من المنطقى وجود علاقة جدلية بين التحول إلى الإسلام وبين انتشار اللغة العربية . فمن المؤكد أن كل من تحول إلى الإسلام رغب فى أن يتعلم اللغة العربية ، وتدريجيا أصبحت اللغة العربية لغة الدواوين والدين ولغة المثقفين والفكر وأصبح حتما أن يتعلمها كل من له طموح فى وظيفة أو رغبة فى مكانة .

وفى رأى العالم الأثرى المصرى أحمد كمال أن اللغة المصرية القديمة واللغة العربية هما من أصل واحد ، وقد وضع قاموسا به آلاف المفردات المصرية المتشاركة فى المبنى والمعنى مع المفردات العربية ، والمؤرخ المصرى سليم حسن يذهب إلى أن ٦٥ ٪ على الأقل من اللغة المصرية القديمة تتشابه مع اللغة السامية ، هذا التشابه وهذه الجذور المشتركة هما ما يفسر ان استمرار الكثير من المفردات والتعبيرات المستخدمة حاليا فى مصر ، وخاصة فى اللغة الدارجة والتى يقدرها الباحث التاريخى المصرى محرم كمال بالآلاف أصلا أو اشتقاقا ولكننا فى هذا البحث نميل إلى ما هو أوسع من التفسير الفيلولوجى لهذه الظاهرة . فالقرون الأربعة التى استغرقتها اللغة العربية كى تصير اللغة السائدة فى مصر ، سمحت للمصريين أن

ينطقوا من لغتهم السابقة تلك المفردات والتعبيرات التى تحمل مضامين تاريخية أو وجدانية ويطعموا بها اللغة الجديدة التى اكتسبوها وليطوعوا بعض مفردات اللغة الجديدة ليعبروا بها عن بعض ما كانوا يعبرون به بلغتهم القديمة أو ليزاوجوا بين مفردات من اللغة القديمة وأخرى من اللغة الجديدة(٣) .

فلا عجب إن كانت الأمثال الشعبية والتشبيهات العامية جزءا عاديا من كلام المصرى من الفلاح البسيط حتى عضو مجمع اللغة العربية ، وها هى اللهجة ومفردات اللغة العربية كما هى تنطق فى مصر ، مقبولة ومنتشرة فى أغلب بلدان الأمة العربية من خلال التليفزيون والمسلسلات .

فلعصور وقرون طويلة - ربما من القرن السابع حتى القرن العاشر أو الحادى عشر - وجد فى مصر عدة مجموعات بشرية لها أوضاع مختلفة فيما يتعلق باللغة :

(أ) عرب مهاجرون لا يتحدثون إلا العربية ولكنهم يتحدثون بعض كلمات قبطية يكتبونها بحروف عربية .

(ب) مصريون قبلوا الإسلام ويتحدثون القبطية والعربية ولكنهم يحثون أولادهم على تعلم العربية (وربما يدفعونهم على ترك القبطية لمصالح ذاتية يومية) .

(جـ) أقباط مسيحيون تمسكوا بديانتهم ويتحدثون القبطية (وربما يعرفون بعض كلمات عربية يكتبونها بحروف قبطية) ولكنهم مصرون على أن يتعلم أولادهم العربية لكى يجدوا لهم مكانا فى وظيفة حكومية .

(د) أقباط مسيحيون متمسكون بالقبطية تمسكهم بالمسيحية ولا يتحدثون إلا القبطية وغالبا ما كونوا عدة قرى أو عائلات معينة فى الصعيد ، إذ يقول المقريزى (شاهد التاريخ للقرن الخامس عشر) : «اعلم أن ناحية «درنكة» هى من قرى النصارى الصعايدة ، ونصاراها أهل علم فى دينهم وتفاسيرهم فى اللسان القبطى ، ونساء الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية» (٣) .

وقد قام مثقفو الأقباط بترجمة بعض كتب التراث الدينى القبطى إلى العربية منها كتب «الميامر» والمدائح والمواعظ الروحية ، وسير الآباء القديسين وتواريخ البيعة المقدسة وغيرها ، وقد ساهم فى ذلك ومنذ القرن العاشر الميلادى ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين وسعيد بن بطريق بطريرك القبط الملكانيين وفى القرن

الحادى عشر تبرز أسماء جديدة : ميخائيل بن بدير القبطى ، وموهوب بن منصور ، وأبو المكارم أسعد بن الخطير وغيرهم وفى القرن الثانى عشر نجد البطريرك القبطى مرقص بن زُرْعَة وغيره .

وفى هذه المناخ من التحول الحكيم إلى اللغة العربية ، صدر قرار من البطريرك غبريال بن تريك (١١٣١ - ١١٤٥م) يقضى بأن تستخدم اللغة العربية فى صلاة القداس وكافة الخدمات فى الكنيسة وذلك بجوار اللغة القبطية ، وهو الأمر الذى لا زال ممارسا حتى الآن فى مصر ، وتقهقرت اللغة القبطية إلى الأديرة ولولا ذلك لاندثرت اللغة القبطية وأصبحت لغة تاريخية مثل الهيروغليفية أو المسمارية أو الآرامية أو اللاتينية .

على أن التفاعل لم يكن فى اتجاه واحد ، بل تفاعلت الحضارة الإسلامية والعربية - وهذا هو سر قوتها واستمرارها - مع حضارات البلاد التى فتحتها ، ففى مصر نقلت إلى العربية بعض الكتب القبطية التى تناولت البحث فى الكيمياء والصناعة ، وقام قبط مصر بالدور الأساسى فى بناء الأسطول العربى وذهب عدد من العمال القبط إلى الشام فى العصر الأموى واستعانوا بهم فى بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى ، وفى إعادة بناء الجامع النبوى فى المدينة ، وازدهرت الفنون والزخارف القبطية وأصبح لها طابع مميز فى أنواع الأخشاب والتطعيم بالعاج مما أدى إلى شهرة فن النسيج القبطى ، فلبس الخلفاء والوجهاء النوع المعروف باسم «القباطى» ، كما كسيت الكعبة بالقباطى المصرية .

أيا ما يكن من أمر ، فإن المصريين جميعا قبلوا اللغة العربية ، وبرع الأقباط فى إتقان هذه اللغة من وقتها وحتى الآن ولذا فإننا عندما نؤكد أن فى مصر شعبا واحدا ، لا نكون مفتعلين أو نلوى ذراع الحقيقة فمن غير المستطاع التفرقة بين مصرى وآخر ، لا من ناحية حجم الجمجمة أو الشكل أو العرق أو المظهر الخارجى ، ولا من ناحية اللغة واللكنة أو التكوين الثقافى والنفسى ، فالنكتة التى تضحك القبطى هى ذاتها تضحك المسلم ، قد تكون هناك فروق طبقية تبدو فى المظهر ونوع الملبس بين سكان الوجه البحرى وسكان الصعيد أو بين سكان الريف وسكان المدن - وهذه كلها أمور طبيعية فى كل موقع فى العالم ، ولكن لا توجد فروق بين المسلم والقبطى من بين المنتمين إلى ذات البيئة والمستوى الاجتماعى ، بخلاف ما تلمسه فى أمريكا - بلد الحضارة والديمقراطية - من فروق عرقية ظاهرة بين الأسود والأصفر والأبيض !

على أن العارفين بالممارسات عبر السنين يدركون الفروق من خلال الأسماء ، فإذا احتوى الاسم الثلاثى أو الرباعى أسماء مثل : محمد أو محمود أو أحمد أو مصطفى أو طه أو أبو بكر وعثمان وخالد وعبد الغفار وما إلى ذلك من الأسماء الإسلامية الواضحة كان صاحبها مسلما ، وإذا احتوت أسماء من الإنجيل أو من الأسماء الفرعونية أو القبطية القديمة مثل : بطرس وبولس ويوحنا ومرقص واثناسيوس وجورجيوس وبسطوروس وأحمس وإيزيس وراداميس وما إليها فإن صاحبها يكون مسيحيا . . وقد تلاحظ أنه فى وقت «المد الحضارى» أو عند وجود «مشروع قومى» مشترك للشعب مثل أوقات ثورة ١٩١٩ وما بعدها تكون الأسماء للمواليد مشتركة مثل سعد ومكرم ومحسن وجميل ولطيف وزاهر وفائق وفريد وما إلى ذلك ، ولكن هذه الفترات ليست ممتدة لأجيال وبالقدر الكافى الذى يوجد أسماء مشتركة تمثل ثلاثة أو أربعة أجيال متعاقبة ومن ثم تختفى ظاهرة الاستفسار الردىء عن الاسم الثلاثى فى الامتحانات الشفوية كما يحدث عادة من بعض المتعصبين فى كليات الطب بالذات !!

على أن هذه الصلة الحميمة بين المصريين والعرب والتى استمرت من مطلع التاريخ وحتى القرن الخامس عشر ، وهذا التفاعل بين الحضارة العربية والحضارة المصرية ، وكذلك الترجمة المتبادلة بين اللغة القبطية واللغة العربية كل ذلك قد انحصر وخبا فى عهد المماليك وعهد الخلافة العثمانية ، لأنهم كحكام لا يمتُّون «للأمة العربية» أصلا ، لا لغة ولا عرقا ولا حضارة ، ولذلك فقد عملت الدولة العثمانية على أن يموت تدريجيا هذا المزج الحضارى المصرى العربى الإسلامى وحاولوا وأد «التوجه العربى» ودفعوا إلى الصدارة «التوجه الإسلامى» ، ولعل جزءا مما نشكو منه الآن فى الصراع بين «التيار الإسلامى» ، وتيار «القومية العربية» يعود إلى هذه القرون الخمسة من الظلام المملوكى العثمانى .

وقد عبر عن ذلك د . حسين مؤنس[٤] بتعبير بليغ : «لم يزل الأمر على ذلك حتى بلغ ذروته عندما وقعت مصر فى أيدى الأتراك العثمانيين ، فهبط عليها هذا التيار الكثيف الذى حال بين ما وقع فى أيديهم وبين بقية العالم ، ولم يعد لهذا الموقع إلا أهمية ضئيلة وظل كذلك إلى نهاية القرن الثامن عشر» .

ومما لا شك فيه أن الحقبة الإسلامية ونتيجة ظروف تاريخية مختلفة ربطت مصر بكثير من الشعوب العربية شرقا وغربا ، ونكتفى هنا بطرح العلاقات الخاصة مع



أزياء متعددة تعبر عن انتماء مصر العربى

حمد الباسل باشا من زعماء الحركة الوطنية وثورة ١٩١٩ - زيه بالطنبوشة يؤكد أصوله الليبية تعبيرا عن الوطنية العربية فى بداية القرن العشرين .

مواطنان مصريان : الأول من سيناء بالعقال مثل أهالى فلسطين والجزيرة العربية والآخر من الصحراء الغربية ، ربما من ذات القبيلة الممتدة فى ليبيا .





الشام والحجاز «ففى عهد الإخشيد تم ربط مصاير الشام بمصاير مصر ، وإذا استثنينا بعض فترات القلاقل ، استطعنا أن نقول أن مصر والشام كانتا بلدا واحدا طوال العصور الوسطى ، فالدولتان الطولونية والإخشيدية كانتا مصريتين شاميتين فى آن واحد ، وكذلك معظم عصر الدولة الفاطمية إلى نهاية أيام الحاكم بأمر الله ، وعندما تقلص وضعف أمر الفاطميين تقلص ظلمهم فى شمال الشام ولكن بقى فى جنوبه وهو فلسطين(٥) .

أما العلاقات الخاصة والمتميزة بين مصر والحجاز فتعود إلى وقت العباسيين «عندما بدا لخلفاء بنى العباس أن الحل المعقول لمشكلة الحجاز هى ضمه إلى مصر وأن يعهدوا فى أموره إلى محمد بن طفج الإخشيدى الذى أقام الدولة الإخشيدية فى مصر واستبد بها فأسندوا إليه ولاية مكة والمدينة وخطب لحاكم مصر على منابر الحجاز مع الخليفة العباسى : وبذلك أصبحت الدولة المصرية تشمل مصر والشام والحجاز .

ومن ذلك الحين أصبحت مصر مسئولة عن الحرمين الشريفين وأهلهما فكانت مصر هى المسئولة عن مهبط الوحى ، وكان عاملها مكلفا بأن يعنى بأمر الحج ويقوم على المسجد الحرام ومسجد المدينة والمزارات .

«ومن لطائف التاريخ أن البيت العتيق الذى بناه إبراهيم وإسماعيل ابن هاجر المصرية ، تم تجديد بناؤه بعد ذلك ، وعنى به بعض الخلفاء الراشدين بعض العناية ، ثم قامت بإدراته مصر بعد ذلك . فبنته على أيام الظاهر بيبرس ، وأنفقت عليه أموالا طائلة ، بل قام سلطان مصر بيبرس يبنى بيديه مع البنائين إلى أن تصدع بنيانه أيام الأتراك العثمانيين ، فقام المصريون على بنائه وأرسل والى مصر كل ما يلزم لهذا البناء ، وبعث البنائين ، ثم أعيد بناؤه على أيدى المصريين أيام محمد على ، حتى هذه المرة الأخيرة التى قامت المملكة العربية السعودية فيها ببناء ذلك البيت الأكرم ، قام البناء على تصميم وضعه مصرى(٦) . ورسم فى القاهرة ونفذ فى الحجاز على أيدى مهندسين مصريين»(٧) .

وقد ظل الأمر على هذا النحو وكانت مصر ترسل سنويا المحمل والصرة إلى مكة والمدينة كل عام وأذكر وأنا طفل كيف أننا جميعا - أقباطا ومسلمين كنا نحتفل بهذا العيد القومى يوم إرسال المحمل حيث تحمل «الصرة» وهى الأموال من الفضة والذهب وكذلك الكسوة وهى الغطاء الذى كانت له إدارة حكومية خاصة تحمل

هذا الاسم فهى المسئولة سنويا عن شراء القطيفة ثم عمل كل المشغولات والزخارف والآيات بخيوط من الفضة أو الذهب وتوضع الكسوة على جمال وتسير فى الشوارع من الأزهر حتى منطقة العباسية فى المنطقة المسماة الآن بالجبل الأحمر .

وظل الأمر كذلك إلى سنوات قليلة بعد الحرب العالمية الثانية وظهر البترول فى السعودية وتغيرت الموازين الاقتصادية والسياسية .

وعلى أى حال ، ونتيجة هذا التاريخ الطويل للحكم الإسلامى فى المنطقة بكل ما يحمل من عصور حضارة وعصور ضعف انقسمت الدول العربية إلى مجموعتين حضاريتين أساسيتين .

المجموعة الأولى : وهى جملة الدول التى استطاعت أن تبقى على ديانتين أساسيتين (بصرف النظر عن قضية وجود اليهود فقد كانوا غالبا فى حالة «جيتو» فيما عدا تداخلهم مع الشعب فى المغرب) وهما المسيحية والإسلام ، وذلك فى كل من مصر ودول منطقة الهلال الخصيب (سوريا - لبنان - الأردن - فلسطين - العراق) .

وهذه الدول استطاعت - فى مجملها - فيما عدا لبنان - أن تعبر الصراعت الطائفية بفضل «الانتماء العربى» ففى العراق - شاهدت شخصيا - كيف تعيش الطوائف المسيحية - وهى مختلفة وعديدة وصغيرة - فى أمان ومودة وتكاد لا تجد أى نوع من المضايقات أو الاضطهادات ، وترعى الدولة هذه الأقليات وتوفر لها الاعتمادات المالية لبناء الكنائس ، ولا يوجد قيود على بنائها إلا القيود العامة على أى مبان ، ويتم ذلك من خلال إدارة خاصة بهم تتبع وزير الأوقاف ، العراقى ، ويشترك المسيحيون العراقيون فى الحركة الثقافية والسياسية دون أى عوائق إلى الحد أنهم يحتلون مواقع قيادية فى الصفوف الأولى دون أى حساسية أو اعتراض من أحد وربما كان الفضل راجعا إلى القبضة الحديدية والفكرية لحزب البعث العربى هناك .

المجموعة الثانية : وهى مجموعة الدول أحادية الديانة وفى هذا الأمر تختلف الدول والشعوب الواقعة فى المشرق عن تلك الواقعة فى المغرب ، فكل دول الجزيرة العربية (السعودية - اليمن - دول الخليج) هى دول أحادية الديانة ولذلك فإن انتماءها إلى العروبة هو استمرار وتأكيد لانتمائها إلى الإسلام وربما لا يرون الوحدة

العربية إلا من خلال الإسلام ، وذلك على الرغم من أننى لم ألحظ اتجاهات عدائية للمسيحية فى اليمن أو فى دول الخليج .

أما السعودية فإنها ومع تدفق البترول تود أن تأخذ موقع القيادة للعالم الإسلامى كله ، ولذلك فقد توحدت هذه الدول - فيما عدا دولتى اليمن واللتان أصبحتا جمهوريتين لكى تكون مجلس التعاون الخليجى - وربما اختاروا صفة «الخليجى» لأن اليمنيين لا يقعان على الخليج وكان من المفروض أن تسمى هذه المجموعة عام ١٩٨١ التعاون العربى ، ولذا فإن الفرصة كانت سانحة ليأخذ هذه الصفة «التعاون العربى» آخرون يقعون فى القلب .

أما فى المغرب العربى فقد اختلطت الأوراق نظرا لأن هذه المناطق قد تأثرت بحضارات الجزء الشمالى من البحر المتوسط إذ تم استعمار إيطاليا لليبيا لسنوات وتم احتلال فرنسا لتونس والجزائر لعشرات السنوات . على الرغم من أن نمط الحياة بدوى أساسا ولقرون طويلة فى ليبيا والجزائر والمغرب فإن المزج الحضارى مع أوربا قد أوجد ذلك النمط الغريب والمختلف فى هذه الدول ، فليبيا تنادى بالجماهيرية والتى تعنى نوعا من الإسلام التقدمى والثورى ولكنه غير محدد الملامح ، فلا هو بالتوجه السلفى النقى ولا هو بالتوجه التقدمى النقى ، وهذا هو سر الخلط وتباين التوجهات حول النظام ، وتونس هى مزيج من الإسلام ومن الانتماء البحر أوسطى ولذلك فالنظام يود إرضاء التيار السلفى وفى ذات الوقت يتمنى أن تصبح تونس قطعة من أوروبا وينطبق نفس الشىء تقريبا على الجزائر والمغرب بصور متباينة قليلا .

وهكذا اختلطت الأوراق فى المغرب العربى ، ولم يعد هناك تفرقة بين الكفاح ضد الاستعمار أو الكفاح ضد المستعمرين المسيحيين من إيطاليا أو فرنسا أو إسبانيا واختلطت المعالم بين حركة الاستقلال وبين الإسلام وكان طبيعيا أن يظهر الهلال على علم الجزائر كرمز لحركة التحرير الوطنى .

ومن هذا المنطلق كان طبيعيا أن تتجمع هذه الدولة فى «اتحاد المغرب العربى» لتقاربها حضاريا ولأنها بالفعل تختلف عن الدول أحادية الانتماء فى الجزيرة العربية ، كما وأنها تختلف عن دول الوسط والتى شكلت مجلس التعاون العربى لأنها ـ حضاريا ـ ثنائية الديانة وبالتالى فتلك الأخيرة أكثر جذبا للعالم العربى وأكثر قبولا فى العالم الغربى وأوروبا رغم محدودية مواردها البترولية .

ومن هذا التقسيم للعالم العربى إلى مجموعتين يتضح دقة وأهمية موقف مصر .

لأنها رغم انتمائها إلى المجموعة الأولى وأن بها ديانتين ، فإن لثقلها الحضارى والتاريخى والبشرى ولموقعها الجغرافى فى قلب العالم العربى ، أصبحت هى «الطبّة» التى ترجح أى من كفتى الميزان فى المنطقة فإذا انحازت مصر إلى «الأمة العربية» وصارت جزءا منه ـ كما كان الحال فى فترة حكم الرئيس عبد الناصر ـ اتجهت المنطقة كلها إلى «القومية العربية» .

ومن هنا كانت أهمية أن يعقد مركز دراسات الوحدة العربية ندوة فى القاهرة فى سبتمبر ٨٩ لكى يوجد المواءمة بين «الإسلام» و«العروبة» فمع المد الإسلامى المعاصر ، لم يعد التيار العربى «العلمانى» قادرا على الوقوف على قدميه ، وقد زاد الأمر صعوبة أن مبادئ «القومية العربية» كانت نتاجا فكريا المسيحيى بلاد الشام كمخرج من التبعية العثمانية ومحاكاة للنضج الذى تم فى القرن التاسع عشر لفكرة «القومية» لبلاد أوروبا المختلفة . . وهكذا تمر «القومية العربية» الآن بمنعطف تاريخى هام .

فمع هزيمة ١٩٦٧ ضُربت «القومية العربية» ، وفى عهد السادات انتقلت مصر من «التدين» إلى «التعصب» وأصبحت كلمة «العلمانية» مرادفة لكلمة «الإلحاد» وأن فصل الدين عن الدولة يعنى «الكفر» وتم ضرب «الناصرية» فى الجامعات ليحل محلها «الجماعات الإسلامية» وبتأييد وتمويل من الدولة(٨) ، وبذلك انتقلت مصر من فكر القومية العربية إلى فكر التيارات الإسلامية بتوجهاتها المختلفة ، وبحيث إذا مالت مصر إلى التوجه الإسلامى مالت المنطقة كلها إلى التوجه الإسلامى» .

ومن هنا فإن الصياغة المبدعة للتدين والمعايشة الثنائية بين المسيحية والإسلام والتى وصلت إليها مصر عبر قرون فيها الخلاص لنفسها ولأمتها العربية ، وهى أن مصر ارتبطت بالدين طوال تاريخها ولذلك فإن شعب مصر شعب متدين ولكنه لايميل إلى التعصب سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين ، وهو شعب قبل فكرة «تعدد الأديان» وارتاح لهذه الأرضية المشتركة ـ كما سبق القول ـ وأمكنه أن يجد حلا موفقا بين ما يسمى «الماديات والروحانيات» ، بمعنى أن يعمل ويجد ويكدح وينتج ويعرف ما يجرى حوله من تقدم علمى وتكنولوجى ويستوعبه ويساهم فى ذلك على قدر المستطاع ، ولكنه لم يغفل الدين ولديه إحساس حقيقى بالحماية فى ظل قوى إلهية تحرسه وترعاه يلجأ إليها وقت الأزمات وبذلك أمكنه إيجاد صياغة تكفل له التوافق بين العقل والجسد أو بين الحسيات والروحانيات ولكن التدين لدى

المصريين لايعنى التعصب ولايعنى كراهية الآخرين . كما لايعنى التواكل والكسل أو العيش فى الغيبيات والأوهام .

ولذلك فإننى لا أملّ أن أكرر التشبيه الهندسى وهو أن مصر هى عمود الخيمة للأمة العربية وللمنطقة ، فإذا انكسر أو اختفى العمود الأوسط أصبحت الخيمة قطعة من القماش ملقى بها فى «الساحة الدولية» ، رغم ما تحتوى من خيوط فضية أو ذهبية ، كما أن هذا العمود الأوسط وبدون القماش المكون للخيمة يصبح مجرد قطعة من الخشب تعتصرها الرياح والأنواء دون غطاء أو أوتاد . أو هكذا تصورت مصر طوال حكم السادات وبالذات منذ توقيع معاهدة كامب ديفيد .

وعليه فإن حماسى لانتماء مصر العربى ،ليس مسألة عاطفية أو رومانسية ولكنها مصلحة مصر المحورية - ليس فى الماضى والحاضر - وإنما فى المستقبل أيضا وفى الجوانب الاقتصادية والسياسية والحضارية معا . ومن سخريات القدر أنه أثناء الحقبة المظلمة بعد كامب ديفيد ، كانت مشاكل مصر الاقتصادية غير ملموسة نتيجة عائدات أجور العمال المصريين الذين زحفوا وعمّروا كافة بلدان البترول العربية فى وقت التوسع العمرانى الهائل والذى أعقب زيادة أسعار البترول عقب حرب ١٩٧٣ فكانت مصلحة متبادلة ، ولكننى أسائل القلة من المعادين لخط مصر العربى أين كان يمكن لكل هذه الملايين من المصريين أن يتوجهوا - رغم كل قدراتهم ومهاراتهم المهنية - ما لم يكونوا متحدثين باللغة العربية وهى صلب وعصب الانتماء العربى ؟

فأنت - كمصرى عربى - تجول وتصول غربا وصولا إلى المغرب ، وتجد نفسك وكأنك فى مصر بسبب اللغة ولكن ما أن تعبر البوغاز إلى جبل طارق وأسبانيا حتى تجد نفسك فى بلاد غريبة عنك ، ثم تصول وتجول شرقا فى بلاد الشام والهلال الخصيب ، وتجد نفسك بين أهلك وتتحدث نفس اللغة وتستمع إلى نفس الشعر والأدب وتشاهد ذات الأفلام السينمائية وتجدهم مرحبين بك إذ يعرفون هم فى الجانب المقابل الكثير عن مصر لأنها أم الثقافة العربية ، ليس فقط من خلال اللغة والأدب ولكن - فى العصر الحديث - من خلال التليفزيون والمسلسلات وغيرها ثم من خلال آلاف المدرسين للغة العربية وغيرهم من المصريين الذين قضوا سنوات عمرهم فى السعودية والخليج يساهمون فى نهضتها . . ثم تعبر أنت الخليج العربى والمسمى بالفارسى وتتجه إلى إيران - ورغم أنهم مسلمون - ولكنك تجد نفسك غريبا وفى بلاد أجنبية وفى حاجة إلى مترجم لكى تفهم !

ومن هنا فإن انتماء مصر العربى هو انتماء مصلحة اقتصادية وحضارية وسياسية ولم يكن عبثا أن جاء فى المادة الأولى من الدستور أن «الشعب المصرى جزء من الأمة العربية يعمل على تحقيق وحدتها الشاملة» .

أما أصدقائى وزملائى من القوميين العرب ومن يعيشون حلم «الوحدة العربية» ومن يقسمون ويفرقون بين «القوميين العرب» الذين يرون أن «الشعب العربى كله أمة واحدة» وبين «القطريين» الذين يعتبرون أن كل دولة عربية هى «قطر» داخل الأمة العربية ، أقول لأصدقائى أنتم بالفعل حالمون ، لأن الأمة العربية لن تتكون وتتجمع كأمة واحدة قبل عشرات وربما مئات السنين ، ليس لأن القطريين يقاومون وليس لأن الاستعمار لايود وحدة العرب ، ولكن لأن «الظرف الموضوعى» لواقع الدول العربية الحالية لايؤدى إلى الوحدة أو حتى الاقتراب منها ممثلة فى الآتى :

- هناك قوة هائلة بين مجموعة الدول البترولية وبين مجموعة الدول الفقيرة غير البترولية فروق اقتصادية شاسعة ، ولن تقل هذه الفجوة الاقتصادية بين ثراء البترول وما يسمى «خط الفقر» فى يوم وليلة .
- هناك الفوارق بين الدول المكتظة بالسكان (مثل مصر والسودان وسوريا) وبين دول محدودة السكان (مثل السعودية وليبيا ودول الخليج) وهى فوارق تبدو ـ على السطح ـ كما لو كانت مشجعة على التوحد ـ ولكن الواقع أنها معرقلة للوحدة لأن الدول قليلة السكان غنية ولا تود أن تقع فريسة فقر الدول ذات الكثافة العالية .
- هناك دول عاشت الديمقراطية وتتطلع لأن يكون نظامها مستقرا وفق تعدد الأحزاب وبحيث يمكن أن تنتقل السلطة فى يسر من حزب إلى آخر ، مثل مصر وتونس ، وقد تكون فى طريقها لذلك بالفعل ، وهناك دول لاتسمح بمجرد الحديث عن تشكيل نقابات أو تمثيل نيابى أو حتى وجود دستور أو مساءلة للحاكم .

إن ما حدث فى أوروبا الغربية من خلال فكرة السوق الأوروبية المشتركة هو نتاج واقع اجتماعى واقتصادى وسياسى جعل هناك تقاربا حقيقيا بين تلك الدول والشعوب فهناك مستوى معيشة فى ألمانيا لايختلف كثيرا عن إنجلترا أو الدنمارك وكل الدول قابلة لفكرة إحداث التغيير فى نظام الحكم من خلال صندوق الانتخابات وليس من خلال البندقية وها هى تُعدّ نفسها لخطوات أكبر فى اتجاه الوحدة الاقتصادية عام ١٩٩٢ . وكلها مؤمنة لحد التزمت بحقوق الإنسان .

العامود السادس: انتماء مصر للبحر المتوسط

من المؤكد أن هناك علاقة جدلية بين التاريخ والجغرافيا ، فالحقبة التاريخية المسماة باليونانية ـ الرومانية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالانتماء الجغرافى لمصر من خلال إطلالها على البحر الأبيض المتوسط ، وإذا كانت هناك علاقة بين مصر وباقى الشعوب ، فالعقل المصرى منذ عصوره الأولى عقل ، وإن تأثر بشىء ، فإنما تأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما تبادل مع شعوب البحر الأبيض المتوسط(٩) .

لقد جاء الفتح العربى وغزو الصليبيين من الجانب الشمالى الشرقى لحوض البحر الأبيض المتوسط ، ومن هنا فإن تاريخ مصر كان هو تاريخ البحر الأبيض المتوسط على وجه التقريب ، فإذا استقرت أمور مصر وتيسرت أحوالها عَمُر هذا البحر بالنشاط وانتعشت موانيه ، وأنت تستطيع أن تؤرخ تاريخ البحر الأبيض فى تاريخ الإسكندرية ، أما قبل إنشائها فلم يكن لهذا البحر ـ ككل مترابط ـ تاريخ ، إنما كان هناك نشاط محدود فى هذا الجانب أو ذاك(١٠) .

وهذه العلاقة الجدلية بين التاريخ والجغرافيا واضحة ومؤكدة أيضا فى العلاقة بين انتماء مصر إلى العالم العربى وبين الحقبة التاريخية الإسلامية ولكن صلة مصر بالعرب أسبق وأشمل وأوسع .

أما الحقبة الفرعونية فإنها تعبر فى بعض مراحلها متأثرة بالانتماء الأوسطى فضلا عن الانتماء الجغرافى لحوض وادى النيل الأفريقى وإلى المنطقة العربية معا فى آسيا وأفريقيا .

ومهما يكن الأمر فإن انتماء مصر إلى مجموعة دول البحر المتوسط قد وصل إلى نقطة تحول جديدة فى العصور الحديثة مع الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ والتى كان لها معان ثقافية بعيدة المدى ، دل عليها عدد العلماء والمتخصصين المرافقين للجنود والضباط الفرنسيين ، واهتمامهم بتسجيل الآثار المصرية وما صاحبه من اكتشاف شمبليون لحجر رشيد وفك رموزه ، وقد أعقب ذلك إرسال محمد على للعديد من المصريين فى بعثات إلى أوروبا كمقدمة لنقل مصر من ظلمة العهود العثمانية إلى بداية عصر النهضة ، وما أعقب ذلك من إنشاء لصناعات جديدة مصاحبا لنمو الحركات الفكرية وتطور الأفكار الديمقراطية وحقوق الإنسان ، وأدى كل ذلك إلى

إقلال حجم السخرة فضلا عن رفع الجزية عن الأقباط فى عهد سعيد عام ١٨٥٦ .

وقد أوجد كل هذا المناخ فى العصر الحديث الفرصة لرفع شعار «مصر للمصريين» مع ثورة عرابى فجاء أحمد لطفى السيد لكى ينشئ «حزب الأمة» ويؤكد «حق المواطنة» كجزء من تراث البحر المتوسط والذى كان قد نضج بعد «عضر النهضة» وبروز فكرة «القومية» فى أغلب بلدان أوروبا فى القرن التاسع عشر وتلاه كثيرون كان أبرزهم د . طه حسين وربما كان متأثراً بدراسته فى فرنسا وزواجه من فرنسية رغم أن تعليمه الأساسى كان فى الأزهر ولعله هو أول من قال بأن هناك «أعمدة متعددة» للثقافة فى مصر وأوحى إلىّ بهذه «الأعمدة السبعة» ، فكان طه حسين فاتحة لمدرسة ليبرالية كاملة من المتأثرين بانتماء مصر للبحر المتوسط وجزء من حضارته وأكمل المشوار بعده توفيق الحكيم وحسين فوزى ولويس عوض وحسين مؤنس وعشرات آخرين .

ويتوهم البعض أن هناك معركة بين من يؤثرون انتماء مصر إلى حضارات البحر المتوسط ومن يرفضون أن يكون لمصر انتماء آخر بخلاف الانتماء إلى الأمة العربية ، والواقع هو أن ما قصدته من هذا الكتاب هو محاولة توفيقية ـ وليست تلفيقة ـ بين هذه الانتماءات كلها لأننى لا أجد تعارضا بينها ، فعلى الرغم من أن الانتماء العربى ، لابد وأن يسبق الانتماء البحر أوسطى ، فإننى أرى أن الانتماء الأخير متمم للأول وليس نقيضا له وبالذات من منطلق أن هناك دولا عربية كثيرة تشارك مصر فى الإطلال على البحر المتوسط وتفاعلت مع حضاراتها بدرجات متفاوتة فهناك علاقة بين لبنان وفرنسا وبين سوريا وتركيا وبين فلسطين وقبرص وبين المغرب وأسبانيا وكان لحضارة الفينيقيين تأثير كبير على بلدان البحر المتوسط وعلى العرب فى مراحل تاريخية سابقة .

ومن غير الممكن أن ننكر التشابه فى العادات والتكوين النفسى بين أهالى المدن الساحلية فى مصر مثل الإسكندرية وبورسعيد وبين الشعوب المماثلة والمقابلة من أهالى مدن مثل بيريه وأثينا فى اليونان أو مدن لارنكا وليماسول فى قبرص أو نابولى وجنوه فى إيطاليا .

إن ارتباط مصر مع باقى شعوب البحر المتوسط لايعنى المواطن المصرى العادى فى أعماق الريف أو الصعيد بقدر ما يعنى جمهور المثقفين المصريين وبالذات أولئك الذين تأثروا بحضارة الغرب أو استكملوا جزءا من دراستهم فى أوروبا وهم فى ذلك

يعتقدون أن الانتماء البحر أوسطى سيزيد من حجم الممارسات الديمقراطية فى مصر وبحيث يكون نقل السلطة من نظام إلى نظام من خلال الانتخابات وهذا مالم يحدث لمصر ولا مرة واحدة حتى الآن عبر تاريخها الطويل ، ولسنا فى هذا الأمر أقل من قبرص على سبيل المثال .

هذا وفى العصور الحديثة سكن مدن وريف مصر الكثير من اليونانيين والايطاليين وبعض منهم تعلموا العربية وأصبحوا ينطقونها بلكنة واضحة مميزة ، إلى الحد أنهم أدخلوا إلى المسرح شخصيات فكاهية تعبر عن يونانى متمصر يعيش فى نسيج المناطق الشعبية المصرية .

ولعل أبرز مثال على ذلك المغنية الفرنسية الشهيرة داليدا والتى نشأت فى حى شبرا وأدخلت إلى أوروبا أغنيات ذات نكهة وكلمات مصرية صميمة مثل «سالمة يا سلامة» . رغم أنه كان فى استطاعتها أن تخفى هذا الجانب من حياتها تماما .

واستمرت العلاقات الثقافية والحضارية بين مصر وفرنسا دون عوائق ، وتدعمت فى الوقت الراهن إلى القدر أن فرنسا قد رغبت فى افتتاح معرض «مصر عبر العصور» فى ذات الوقت الذى احتفلت فيه بمرور ٢٠٠ عام على الثورة الفرنسية . فى ١٤ يوليه ١٩٨٩ ، وقد كتبت وقتها فى «الأهرام» بأن يتعدل اسم المعرض ليكون «الرقائق الحضارية الأربع لمصر» ، فقد كان بالمعرض معروضات من العصر الفرعونى إلى العصر الإسلامى حسبما ذكر فى هذا الكتاب فى فصل سابق .

ورغم أن الولايات المتحدة الأمريكية تقدم لمصر معونات مالية ضخمة ، إلا أن كل من فرنسا وإيطاليا تعطى البعد الثقافى والحضارى أهمية أكبر ويبدو ذلك واضحا فى المراكز الثقافية التى يرتادها المثقفون المصريون بحرية وفى يسر وذلك تعبيرا عن الصلات الثقافية والحضارية الخاصة لمصر مع دول وحضارات حوض البحر الأبيض المتوسط والتى تتدعم مع الوقت .

العامود السابع: انتماء مصر لأفريقيا

من بين هذه الأعمدة السبعة يبدو جليا أن العمود الفرعونى والعمود اليونانى ـ الرومانى ، لهما امتداد تاريخى إذ يعودان إلى الماضى ، وإن كانا يؤثران فى الشخصية المصرية إلى يومنا هذا ، ولكن لاتوجد مجموعة بشرية تدعو إلى عودة أو سيادة تراث العصر الفرعونى أو الرومانى .

أما العمودان التاريخيان القبطى والإسلامى فهما يعيشان ويتعايشان معا بحكم أن فى مصر إسلاما وفى مصر مسيحية كذلك ، أما العمود العربى ، فهو عمود متين وثابت ، أثر فى الماضى ويؤثر فى الحاضر ، وسيؤثر فى المستقبل ، ولكننى أرى أن العمود السادس وهو الانتماء إلى البحر المتوسط فهو خافت التأثير تحس به عن بعد ولايفرض نفسه فرضا ويمكن أن يلجأ إليه المثقفون فى لحظات الأزمات وأراه انتماء كامنا سيتفجر فى القرن القادم حضاريا وسياسيا .

أما العمود الأخير ـ وهو انتماء مصر إلى أفريقيا ـ فأراه المستقبل لمصر .

ولا أود أن أغوص فى الماضى البعيد أو القريب لأثبت أن هناك علاقات تاريخية بين مصر وأفريقيا[١١] . فهذا أمر أكاديمى ومفتعل ـ فى رأيى ـ على أى حال ، لأن أهل أفريقيا يفرقون بين شعوب تعيش شمال الصحراء حيث الدول العربية الأفريقية (المطلة على البحر المتوسط) وهى شعوب ليست زنجية سوداء وبين شعوب أفريقيا التى تعيش فى «قلب أفريقيا» وهى كلها تتميز بلون البشرة الأسود وبالتقاطيع الزنجية المعروفة ، وفى هذه الخصوصية فإن السودان يتمتع بالقبول لدى كل من الشعوب العربية والأفريقية لأن سكان الجزء الشمالى يتحدثون العربية وهم مزيج من الزنج مع أصول عربية وينتمون فى مجموعهم إلى الإسلام بينما الجنوب هو جزء من صلب أفريقيا السوداء ويتحدثون العربية أحيانا ولكن بلكنة واضحة ، ولذلك فإن لمصر مصلحة استراتيجية فى إنهاء الحرب الأهلية فى السودان ، ليس فقط لأنها تكوّن العمق الاستراتيجى لمصر ، وليس فقط لتأمين مياه النيل ، ولكن لأن وحدة السودان ـ إذا انتهت الحرب الأهلية ـ ستكون التعبير الحى للحلقة التى توصل شمال أفريقيا العربى بقلب وجنوب أفريقيا الأسود .

على أن لمصر وضعا خاصا فى أغلب دول أفريقيا السوداء من منطلق العرفان بالجميل للمساعدات الهائلة (عسكريا وسياسيا وماديا) لحركات التحرر الوطنى إبان حكم الرئيس عبد الناصر ومن خلال وزيره الهمام محمد فائق والذى كان قد عهد إليه بقضايا أفريقيا ، وأذكر الآن التحية التى تلقيتها عندما مثلت مصر فى مؤتمر الدول غير المنحازة لمناسبة المشاركة فى أعياد واحتفالات الرئيس مانجستو بالعيد الرابع لثورة أثيوبيا فى ١١ سبتمبر ١٩٧٨ (لازلت أذكر هذا التاريخ لأن التقويم فى أثيوبيا مطابق لتقويم الشهداء القبطى منذ أن كانت أثيوبيا تابعة من الناحية الدينية للكنيسة القبطية ويحتفلون بعيد رأس السنة لديهم مع رأس السنة القبطية) . عندما ألقيت كلمة مصر (باسم حزب التجمع) وذكرت اسم عبد الناصر دوت القاعة كلها بالتصفيق فنظرت وأشرت بأصبعى إلى اللوحة المرسومة فى قاعة «منظمة الوحدة الأفريقية» فى أديس أبابا لألفت النظر إلى صورة عبد الناصر ضمن زعماء أفريقيا والذين أسسوا هذه المنظمة فى الستينيات .

وعندما انتخب الرئيس مبارك رئيسا لمنظمة الوحدة الأفريقية فى يوليو ١٩٨٩ ، كتبت فى جريدة الأهالى (عدد ١٩٨٩/٩/٢) :

«ولاشك فى أن كثيرا من الفضل يعود إلى العمل الدؤوب الذى قام به د . بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية مما يؤهله للترقية من أومباشى إلى شاويش* حتى تم تجديد وتدعيم الصلة مع أفريقيا وهو الأمر الذى توج فى نهاية الأمر بأن يصبح الرئيس مبارك رئيسا لمنظمة الوحدة الأفريقية» .

إن رؤيتى هى أن الانتماء الأفريقى لمصر هو انتماء للمستقبل ينبع ذلك من أن زيادة السكان فى مصر تقفز بمعدلات خرافية وفلكية ، ويصعب تصديق الأرقام التى تذاع الآن عن تعداد مصر عام ٢٠٠٠ وكيف أنها ستصل إلى ٧٠ مليونا وفى عام ٢٠٣٠ ستتجاوز المائة مليون .

ولا أعتقد أن المنحنيات التى يرسمها الخبراء لزيادة السكان ستسير وفق هذه التنبؤات لاعتقادى أن الحياة لابد أن تكيف وتصحح نفسها بنفسها وأن المعدلات الحالية لابد أن تقل كثيرا وإلا أصبحت الحياة مستحيلة ، ليس فى هذا الوادى الضيق فحسب ولا حتى مع خطط غزو صحراء مصر لأنها - على أى حال - فى

* كتبت هذه العبارة ونشرت فى جريدة الأهالى وفهم مدلولها د . بطرس غالى وابتسم قبل أن يعين سكرتيرا عاما للأمم المتحدة فى أواخر ديسمبر ١٩٩١ .

حاجة إلى استثمارات فلكية ليست متوفرة فى حدود الرؤية المنظورة ، وهذه قضية أخرى ليس هذا موقعها .





مصريان من أهالى النوبة الجديدة
فى كوم أمبو تعبيرا عن الانتماء الأفريقى لمصر.

على أى حال ، لا سبيل لشعب مصر لكى يستمر فى توفير عمل لكل سكانه ولاستمرار الحضارة فى أرضه إلا من خلال الانتشار إلى كل من العالم العربى والأفريقى وإلى كل بقاع الأرض لو أمكن ، مستفيدين من أن مصر قد سبقت الآخرين فى التعليم الجامعى وفى وجود قاعدة من الحرفيين والمهارات اليدوية المطلوبة .

إن العالم العربى مفتوح أمام العمالة المصرية على كافة مستوياتها ووفق الظروف المتغيرة فى الأقطار العربية وسيظل كذلك وليس هناك من حواجز ـ لأن اللغة تسهل الهجرة علاوة على وجود علاقات قائمة بالفعل ، ولسوف يستمر تدفق البشر من مصر وغيرها حيث الكثافة السكانية عالية إلى الدول الأقل كثافة والتى تحتاج بالفعل إلى اليد العاملة وسوف تسهل هذه العملية كلما زادت العلاقات السياسية خصوصا إذا تدعمت من خلال المشروعات الاقتصادية المشتركة .

أما أفريقيا ، فإن الأمر يختلف ، ذلك أن شعب مصر غير مؤهل للهجرة إلى أفريقيا بعد ، كما أن أفريقيا غير مؤهلة لاستقبال مصريين كأصدقاء وليسوا كمستعمرين .

فالأمر إذن يحتاج إلى إعداد ـ ومن الآن ـ ولتكن نقطة البداية بأن نطور مناهج التعليم والثقافة والإعلام لكى نعرف أفريقيا ، بشكل أعمق ، وعلى وزارة الخارجية المصرية أن تجهز خططا وأفكارا لكى تهيىء المناخ الدبلوماسى والسياسى وتحاول مصر الآن ـ ومن خلال الحركة الدبلوماسية النشيطة ـ أن تخلق قنوات اتصال مع أغلب دول أفريقيا وسيكون ذلك هو التمهيد الأساسى للمستقبل وعلى وزارة التعليم العالى أن تمهد من الآن ـ وكما مهدت للانتماء العربى ـ أن تتوسع فى عدد البعثات للدارسين فى جامعات مصر من كل بلدان أفريقيا على تباين مواقعها .

إن أفريقيا هى مخزون العالم فى التوسع الزراعى وفى اكتشاف كنوز الثروة المعدنية والغابات ومصادر الطاقة المائية والمسماة «بالجديدة والمتجددة» ، وهذا الأمر يحتاج إلى استثمارات هائلة ، وليس من سبيل أمام العالم المتقدم (رأسماليا أو اشتراكيا) إلا المساهمة فيه من أجل بقاء الحياة على هذا الكوكب ، ولكن الأمر يحتاج إلى عقول ممثلة فى مهندسين وزراعيين وبيطريين وأطباء وإداريين وغيرهم ، كما تحتاج فوق ذلك إلى يد عاملة فى كافة مجالات الزراعة والتشييد والصناعة والطرق والمواصلات والخدمات وغيرها .

لن تحتكر مصر كل هذا الحجم فى العمل ، ولعلها غير قادرة ، ولكن مصر لابد أن تساهم فهى دولة من العالم الثالث ومستوى الأجور للعمال والمهنيين المصريين يقل كثيرا عن أجور الفئات المماثلة والمقابلة المستوردة إلى أفريقيا من العالم الغربى ، ولدى المصريين قبول أكثر من أهل الغرب .

وقد اكتشفت الصين الشعبية هذا الأمر وأرسلت بالفعل عشرات المجموعات للعمل فى أفريقيا ويقومون الآن . . ومن خلال الشركة الصينية للهندسة المعمارية بإنشاء عشرات المشروعات الإنشائية فى كافة أنحاء أفريقيا حتى أمكنهم أن يقتحموا مصر ذاتها بإنشاء عشرات المشاريع للإسكان وإنشاء قاعة المحاضرات والمؤتمرات بمدينة نصر بالقاهرة والمدن السياحية الجديدة على الساحل الشمالى وغيرها . . ولا بأس من تعاون مثمر بين الصين ومصر فى فتح مجالات التشييد فى أفريقيا .

ولعلى أختم الحديث عن هذا العمود الأفريقى المستقبلى بما ذكره د . حسين مؤنس : ولدت مصر أفريقية ، ومازالت تشعر بأفريقيتها والتزاماتها حيال تلك القارة على مدار التاريخ ، ولقد اجتذبها البحر الأبيض فأدخلها فى نطاقه الحضارى وشغلتها آسيا واحتوتها فى نطاقها قرونا طويلة ولكن شعب مصر كان - ولايزال - يشعر بأفريقيته حريصا عليها فخورا بها ، ولا يزال الصعيد وأهله موضع فخار مصر ومصدر قوتها وحصنها الذى تركن إليه ، وهذا الفخر بالصعيد وأهله هو فى ذاته فخر بالعنصر الأفريقى فى تكويننا(١٢) .



هوامش ومراجع الفصل الرابع

١ ـ أبو سيف يوسف ـ مصدر سابق ـ الفصل الثالث : تكوين مصر العربية ص ٤٧ وما بعدها .

٢ ـ د . طاهر عبد الحكيم : مصدر سابق ص ١٠٢ .

٣ ـ أبو سيف يوسف ـ مرجع سابق ص ٧٢ عن المقريزى «كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية» ج ٢ ـ ص ٥٠٦ .

٤ ـ د . حسين مؤنس ـ مرجع سابق ص ٣٠ .

٥ ـ د . حسين مؤنس ـ مرجع سابق ص ١١٨ .

٦ ـ من معلوماتى الشخصية أن الذى قام بالتصميم هو المرحوم الدكتور محمد هلال أستاذ الخرسانة فى جامعة القاهرة .

٧ ـ د . حسين مؤنس ـ مرجع سابق ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

٨ ـ د . ميلاد حنا ذكريات سبتمبرية ـ دار المستقبل العربى ١٩٨٦ ـ الفصل الأول : «الطريق إلى سبتمبر» ص ٩ وما بعدها ص ١١٨ .

٩ ـ د . طه حسين ـ مصدر سابق ص ١٦ .

١٠ـ د . حسين مؤنس ـ مرجع سابق ص ٣١ ، ص ١٣١ .

١١ـ د . حسين مؤنس مرجع سابق ـ الفصل الثالث ـ مصر وأفريقية ص ٣٩ وما بعدها ، ص ١٢٥ .

١٢ـ د . حسين مؤنس ـ مصدر سابق ص ٣٩ .

الفصل الخامس

نظريات حول الانتماءات

- داخل كل مصرى أعمدة سبعة ولكن بأشكال مختلفة .
- تبدأ الانتماءات بالارتباط بالأسرة والقبيلة .
- الانتماء إلى دفعة ١٩٤٨ ينقلك إلى «مراكز القوى» .
- الشخصيات العامة لاتفوز عادة فى الانتخابات المحلية .
- ليس فى مصر تنظيم يعبر عن الفلاحين .
- الانتماء الدينى يتقوى مصرياً وعالمياً .
- نظرية الانتماءات بين الثراء السمح والأحادية المتعصبة .

أولاً : الانتماءات الجماعة

أعمدة سبعة داخل كل مصرى

إن هذه الأعمدة السبعة موجودة داخل كل مصرى ولكن بدرجات متفاوتة ، ومختلفة ولذا فهناك «تباديل وتوافيق» مختلفة فى أحجام هذه الأعمدة ، وفق التركيبة النفسية والثقافية كل منا ، بل ويختلف حماسنا لهذا الانتماء أو ذاك وفق تغير الظروف العامة للمجتمع ووفق تغير الظروف الشخصية لكل منا عبر رحلة الحياة ولكن ذلك لاينفى الحقيقة الموضوعية الراهنة وهى أن هذه الأعمدة السبعة فى مجملها مسيطرة على التركيبة النفسية لكل مصرى ، فالأستاذ نجيب محفوظ ـ على سبيل المثال ـ قال بعدما حصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٨ أنه نتاج الحضارتين الفرعونية والإسلامية ، وعندما قرأت كتاباته بعمق وجدت داخله كل الأعمدة السبعة بقدر أو بآخر ولكنه بحكم النشأة فى القاهرة الفاطمية تأثر بشكل واضح بالحضارة الإسلامية وفق الممارسات المصرية فى تلك الحقبة الزمنية ومن قراءاته تحمس وإعتزه بانتمائه للحضارة الفرعونية .

ان أى زائر للمتحف البريطانى فى لندن أن يلمس تداخل هذه الرقائق من الحضارات المصرية المتعاقبة فعندما تزور المعروضات لتراث الحقبة الفرعونية سيجد متداخلا مع معروضات الحقبة اليونانية ـ الرومانية وهى بدورها متداخلة تماما مع المعروضات القبطية وتلك الأخيرة متداخلة بالفعل مع الفنون الإسلامية الأكثر حداثة ونلمس ذلك بشكل أوضح عند زيارة متحف النوبة بمدينة أسوان حيث يعرض الآثار لكل الحقب والرقائق الحضارية فى معرض واحد مثلما نلاحظ فى أقسام الحضارة المصرية لكل من معرض اللوفر فى باريس والمتحف البريطانى فى لندن .

وفى هذا الأمر فإن السائح الذى يزور مصر لاينبغى أن يكتفى برؤية المتحف المصرى بميدان التحرير حيث الآثار الفرعونية ولايكتفى أن يزور منطقة الأهرامات وأبو الهول أو مناطق الآثار الفرعونية المختلفة فى بنى حسن والأقصر ولكنه سيجد معابد لاتقل أهمية فى إسنا وكوم أمبو وأدفو لتعبر عن الحقبة اليونانية ـ الرومانية ،

فيغريه ذلك على زيارة المتحف الرومانى بالإسكندرية فيعود إلى القاهرة ليزور المتحف القبطى بمصر القديمة ويعرج على كنيسة أبو سرجة حيث يقال إن المسيح قد اختبأ بها فيزور كل الكنائس القديمة بهذه المنطقة وبغيرها من مناطق القاهرة فيجد أنها متداخلة ومتعايشة فى القاهرة الفاطمية حيث الأزهر والقلعة وجملة المساجد القديمة والتى تعبر بصدق عن مصر الإسلامية فيدخل إلى المتحف الإسلامى ليتأكد أن لمصر حضارات تبدو مختلفة ـ لأنها متباينة بالفعل ـ ولكنها متصلة ومتداخلة وتركت بصماتها على المصرى المعاصر بأشكال مختلفة ، وعندما نتمعن فى الأعمدة السبعة نلمس العلاقة بين الزمان والمكان ، فمصر البحر أوسطية قد أفرخت تراث الحقبة اليونانية ـ الرومانية ، ومصر العربية هى حصاد لمصر الإسلامية ، ولكن يتبقى لمصر حضارة متفردة وانتماء لايشاركها أحد فيه ، وهو الانتماء إلى حضارة الفراعنة ولذلك أدهش كثيرا عندما ألتقى بأى مصرى لايعتز بانتمائه الفرعونى خصوصا وأن كل أدبيات العالم تشير إلى أثر هذه الحضارة على كافة أوجه النشاط البشرى فى مجال الدين والحكمة والشعر والأدب والقصة والسحر والأسطورة والقانون والمعاملات والعقود والرياضة والعلوم الطبيعية والفلكية ، وفى مجال الفن يتصور البعض أن الإعجاز كان فى بناء المعابد والأهرامات ولكن ذلك لم يكن إلا نتيجة مهارات فى النحت والقدرة على نقل هذه الأحجار باقتدار لم نعرف كنهه إلى الآن ولكن بجوار ذلك كان النقش والرسوم على الخزف والأحجار وصناعة المعادن والزجاج ومعدات الحفر والنحت وأعمال النجارة وأشغال العاج والنسيج وباختصار اكتشاف الممارسات والقوانين الأساسية لمهارات وقدرات الإنسان فى مطلع التاريخ .

ورغم أن شعب مصر كله شعب واحد ـ كما سبق أن أكدنا ـ ولكن لبعض مناطقه وأقاليمه خصائص تؤكد قربه إلى عمود دون آخر ، فشعب منطقة السواحل المطلة على البحر المتوسط تشعرك بالحقبة اليونانية الرومانية وعندما تمر قرب محطة الرمل بالإسكندرية تجد محطة «سوتر» والآثار الرومانية التى تؤكد الانتماء إلى شعوب البحر المتوسط أكثر من غيرها ، كما وأن أهالى بلاد النوبة ومحافظة أسوان يشعرونك بقربهم من أهالى السودان حيث توجد بالفعل عائلات يعيش جزء منها فى مصر وجزء آخر فى شمال السودان ومن ثم فهم أقرب إلى الإحساس بأفريقيا .
كما أن أهالى الصحراء الغربية هم بدو يعيشون على الرعى ، وهم عرقيا امتداد

لقبائل تعيش فى ليبيا وكذلك بدو سيناء وأهالى الشرقية لهم أصول وعادات عربية تلمسها فى زيهم وطريقة النطق لمخارج بعض الكلمات العربية مما يدل على انتماء عربى قوى .

خلاصة القول ، إذن ، هى أن الشخصية المصرية الوطنية قد تأثرت تاريخيا بهذه الرقائق الأربع من الفرعونية إلى الإسلامية ، فضلا عن تأثرها بالانتماءات الجغرافية لأنها تقع فى قلب البلاد العربية فضلا عن تأثرها بحضارات حوض البحر المتوسط ثم أفريقيا .

ولكننا فى كل هذا لسنا ـ كأفراد ـ قوالب ثابتة أو نمطا واحدا ، بل يختلف كل منا فى رؤيته لهذه الأعمدة السبعة ومدى قرب أو بعد أى منها من كل واحد منا ، وهذا الاختلاف ـ لا الخلاف ـ هو فى النهاية الذى تتكون منه كل شخصية على حدة .

كان المصريون القدماء يضعون فى القبر العديد من التعاويز أو التمائم حماية للقبر والجسد من الشرور ، وهذه التميمة على شكل طائر يفرد جناحيه وبرأس آدمى وهى تمثل فى مجملها ـ عند المصرى القديم ـ الروح المسماة «با» .



ثانياً : الانتماءات الشخصية الفردية

يبلغ عدد سكان العالم نحو خمسة آلاف مليون إنسان موزعين بين قارات وأقطار كثيرة ، ويضمهم أوطان وبلدان ومناطق وأجناس وأيديولوجيات متباينة ، ولكننا جميعا كبشر لنا نفس القسمات الرئيسية : عينان وأنف وأذنان وفم وذات العدد من الأسنان والتركيبة البيولوجية الواحدة تقريبا ، ورغم ذلك فإنه لايكاد يوجد شخص يطابق الآخر تماما فى الطول والعرض والملامح ولون البشرة ، اللهم إلا فى أحوال نادرة لبعض التوائم ، ومن هنا فإن الطبيعة والمنطق يصلان إلى ذات النتيجة من أنه يوجد نفس الاختلاف فى التركيبة النفسية والقدرة العقلية ودرجة الذكاء والتوجهات حتى تتباين التصرفات تجاه الحدث الواحد أى أن لكل منا شخصيته المتفردة رغم أن هناك خصائص تجمعنا جميعا كبشر ، ومن هنا الاهتمام بإلقاء الأضواء على خصائص الشعوب التى توضح الملامح العامة لشخصية هذا الشعب ، أو ذاك ، وهكذا كان الاهتمام بدراسة ملامح الشخصية المصرية ، فكتب كثيرون فى هذا الأمر منذ مطلع القرن كنوع من «اكتشاف الذات» ، وسيظل هذا الأمر موضع اجتهادات مختلفة وفق المراحل التاريخية التى تمر بها الأمة .

إذا كنا قد أوضحنا فى الفصلين السابقين الظروف التاريخية للرقائق الحضارية التى أعطت الشخصية المصرية هذه الانتماءات الحضارية الأربعة ، وفوقها انتماءات ثلاثة بحكم الموقع وأسميناها جميعها بالأعمدة السبعة للشخصية المصرية ، فمن المؤكد أن هذه الانتماءات السبعة تعطى ميزة ونكهة خاصة للشخصية المصرية بشكل عام ولكنها أعمدة وعوامل ليست متساوية فى الطول أو القدر أو الأفضلية لدينا جميعا ، ولعلها مثل الآت الموسيقى المختلفة والنغم المتباين لكل منها ، تعطى فى مجموعها سيمفونية بديعة بهذا التناغم الصادر منها كلها ، وبمعنى آخر ـ مثل أى سيمفونية ـ تعتمد على عزف وأداء الآلات المختلفة من البيانو والكمان والفلوت والتشيلّو وغيرها ، وأنها فى مجملها مثل الإبداع فى العمل والتأليف الموسيقى تتوقف إلى حد كبير على حسن استخدام الآلات والتناسق بين النغم ، وهذا ما يحتاج لمهارة المايسترو أو «القائد السياسى» .

ففى مرحلة ما ـ مثل حقبة عبد الناصر ـ كان الصوت الأعلى هو للانتماء العربى وظهرت نظريات «القومية العربية» تجسيدا لفكر «حزب البعث العربى» وما

إليها ، وفى الحقبة ما بين ثورة عرابى وثورة يوليو كان النغم الأساسى هو أن «مصر للمصريين» ومن ثم إحياء لتراث الحقبة الفرعونية وطوال فترة الحكم العثمانى كان النغم الرئيسى هو لانتماء مصر إلى «الأمة الإسلامية» وطمس معالم العمود الفرعونى .

وعندما جاء الرئيس السادات ورغب فى ضرب «الناصرية» وأعاد لمصر اسمها ، حاول دفع انتماء مصر الإسلامى كجزء من ضرب «القومية العربية» وعندما وقع معاهدة كامب ديفيد ، واتخذ مؤتمر القمة العربى قراره بطرد مصر من الجامعة العربية عام ١٩٧٩ ، بهدف «عزل مصر» ، استطاعت مصر أن تبقى على الساحةالدولية من خلال انتماءات أخرى كثيرة ، فكان أن زادت الروابط مع دول «البحر المتوسط» ومن خلالها تدعمت الصلة مع مجموعة دول السوق الأوروبية ثم اهتمت الدبلوماسية المصرية بدعم وتوطيد العلاقات مع دول أفريقيا ، وأخيرا تمكنت مصر من أن تعود إلى رابطة «المؤتمر الإسلامى» فى يناير ١٩٨٧ إلى أن عادت رسميا إلى الجامعة العربية مرة أخرى عام ١٩٨٩ .

وفى الفترة الليبرالية من عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٥٢ اهتم كثير من المثقفين المصريين بالتركيز على ارتباطات مصر بحضارات دول البحر المتوسط ، ولكن الصراع كان شديدا مع التيار الإسلامى ممثلا فى جماعة الإخوان المسلمين ومصر الفتاة والتى نادت بتكوين وتدعيم مركز مصر بين الدول الإسلامية والعربية .

خلاصة القول ، هى أن هذه الباقة الفريدة من الارتباطات والانتماءات تعطى فرصا هائلة لأى قائد أو حزب سياسى لأن يسخرها كلها أو بعضها بمهارة وفن ، وفق ظروف مصر والمنطقة والعالم سياسيا واقتصاديا وعسكريا ، فالدول متعددة الانتماءات أكثر مرونة وتحملا للصعاب والأزمات والصدمات والمشقات من تلك التى لم يخصها تاريخها وموقعها إلا بعدد هزيل من الانتماءات ومن ثم أصبحت مصر بالفعل أكثر حيوية وفاعلية فى المنطقة ولها قدرة على الاستمرارية فى الحياة والوجود ، والمساهمة فى الحضارة الإنسانية على كل مستوى .

□ □ □

على أن ما يقال عن الدول وعن الشعوب ، يقال أيضا عن الأفراد ، فأى إنسان منا ـ بحكم كونه عضوا فى مجتمع يحتوى على ملايين من البشر ـ لا بد أن يرتبط

بعشرات الانتماءات وذلك أن الشخص الناجح والمتحضر هو القادر على تنمية هذه الانتماءات وتنويعها مع خلق التوازن بينها وفق قدراته وظروفه والمرحلة التاريخية التى يحياها .

أما الشخص الذى يركز على انتماء واحد فغالبا ما يقوده ذلك إلى التعصب والانحراف وربما الاتجاه إلى العنف والإرهاب فى سبيل هذا الانتماء المنفرد .

وتبدأ سلسلة الانتماءات ، لكل منا ، مع ولادته فيكون الانتماء إلى الأسرة هو اللبنة الأولى من بناية تتالى الانتماءات ، فكل منا يعتز بانتمائه الأسرى ، غير أن الشخص الذى يكرس كل وقته لأسرته فقط دون أى انتماء آخر غالبا ما يكون أنانيا غير سوىّ ويقدم للمجتمع أبناء غير أصحاء نفسيا ومنعزلين لأنهم لا يفكرون إلا فى مصلحتهم الشخصية دون مصلحة الوطن أو غيرهم من البشر .

وبعد فترة الطفولة يأتى الانتماء إلى المدرسة وتتكون الروابط بين الأطفال ثم بين الشباب مع تقدم مراحل الدراسة ، وكثيرا ما نسمع عن الدعوة لحفلة لخريجى كلية الحقوق فى سنة معينة ، فإذا بكثير منهم قد احتلوا مواقع مختلفة فى الدولة ويساندون بعضهم بعضا بحكم هذا الانتماء الطارئ الذى عبر ومضى ، من منطلق أنهم «دفعة واحدة» وربما كان المثل الفريد الذى تم فى سبتمبر ١٩٨٨ عندما اجتمع خريجو «كلية فيكتوريا» بالإسكندرية وقد حضر هذا الاحتفال الملك حسين فجاء ذلك تأكيدا لانتماء مصر العربى .

وقد أدى هذا الانتماء غير الأساسى إلى بعض المآسى عندما قام «الضباط الأحرار» بثورة يوليو ١٩٥٢ ، فاختار أعضاء مجلس قيادة الثورة أقرانهم وزملائهم «ودفعتهم» فى مناصب رئيسية غير مؤهلين لها وأسموهم «أهل الثقة» بدعوى أن تأمين إخلاصهم للثورة يتقدم إتقانهم ومعرفتهم بالقواعد الإدارية والفنية بالشركات والمؤسسات والهيئات التى تربعوا على قمتها حتى قيل إن شمس بدران قد سيطر على الجيش فى الفترة السابقة لحرب يونيو ١٩٦٧ من خلال زملائه وإخوان فرقته خريجى الكلية الحربية عام ١٩٤٨ ورُفع فى تلك الحقبة شعار أن «أهل الثقة أفضل من أهل الخبرة» وقد أدى ذلك لمآسى التى نعرفها الآن يوما بعد يوم .

ويتكوّن مع الانتماء الأسرى والدراسى انتماء إقليمى جغرافى للحى أو القرية أو المدينة أو المحافظة ، وكان هذا الانتماء هاماً وقوياً فى القرن الماضى ، ومع تغير القيم الحضارية وتغير ظروف الحياة التى تدفع إلى الانتقال والحركة وتوافر سبل

المواصلات والهجرة ، يقل الإحساس بالانتماء الإقليمى إلى المحافظة أو المديرية أو القرية ولعل أقوى «الارتباطات ما نعرفه عن «أهالى بلاد النوبة» ومحافظة أسوان وكيف أن تماسكهم الإقليمى أصبح بديلا للضمان الاجتماعى المشترك . وقد لاحظت أثناء تواجدى فى مجلس الشعب كيف يلعب الانتماء الإقليمى دوره فى التكتلات والصراعات ، فمثلا ، المجموعة البرلمانية لمحافظة الإسكندرية كانوا يتعاونون ويقومون بالاتفاقات الجانبية فى الكواليس ليفوزوا بعدد أكبر من مواقع رؤساء اللجان أو المواقع المتقدمة فى الأحزاب ويضغطون لمناقشة مشاكل الأسكندرية بطريقتهم الخاصة ، أما نواب الصعيد فيشعرون أن محافظاتهم لاتفوز بالقدر الكافى من الخدمات والمرافق من المياه والمجارى وكهربة الريف وغيرها .

ويلعب الانتماء الإقليمى دوره فى المناورات الحزبية وكافة ألوان الحياة ، رغم أن مصر من أقدم الدول المركزية فى العالم وأن هناك ـ فى أغلب العهود ـ سيادة واحدة لحاكم واحد منذ الملك مينا ـ ورغم ذلك يلعب الانتماء الإقليمى دوره فى مصر فى كافة نواحى الحياة بما فيها الانتخابات ، فعضو مجلس الشعب أو المجلس المحلى ما هو إلا شخص يستثمر بذكاء انتماءه الإقليمى (وعلاوة على الانتماء الأيديولوجى) ، ففى أحوال كثيرة تكون نقطة البداية هى العصبية المحلية أى الانتماء إلى أسرة أو إلى عائلة كبيرة مميزة أو جماعة أو نقابة ، وفى أحوال نادرة إلى قبيلة كما هو الحال فى سيناء والصحراء الغربية ، ولكن الشخص الذى يعتمد على الانتماء المحلى وحده يكون أحادى الانتماء ومن ثم لايستطيع أن يتحول إلى شخصية عامة ، ويظل نفوذه السياسى والاجتماعى محدودا على أى حال ، وهؤلاء هم الكثرة فى مجلس الشعب ، إذ يظلون محتفظين بكراسيهم رغم تغير التنظيم السياسى مثلما شاهدت المجالس النيابية بالفعل أعضاء احتلوا نفس المقاعد منذ عهد الاتحاد القومى إلى الحزب الوطنى مرورا بالاتحاد الاشتراكى وحزب مصر .

على أن الوجه الآخر للعملة ، ما هو معروف وملموس من وجود شخصيات عامة كثيرة لها شهرتها على مستوى الوطن كله ، ولكنها تغافلت عن أن تنمى ارتباطها بمنطقة معينة ولذلك ، فبالرغم من أن لها قبولا وطنيا عاما ، فإنها غير قادرة على خوض معركة انتخابية فى منطقة بذاتها .

ولاشك فى أن الانتماء الطبقى يلعب دورا أساسيا فى حركة المجتمع خصوصا إذا كانت الممارسات الديمقراطية تسمح بتشكيل التنظيمات بحرية وعقد الاجتماعات التى تعبر عن الانتماء الطبقى وعلى قمتها الانتماء إلى نقابات

العمال النقابات للعمال أو الفلاحين وكذلك لكافة الفئات الاجتماعية والاقتصادية الأخرى بما فيها حالياً جمعيات رجال الأعمال .

فالطبقات الثرية لم يكن لها فى أى وقت من الأوقات معوق لتكوين تجمعاتهم الطبقية ، فإن لم يكن ذلك فى شكل أحزاب سياسية ، فإنها موجودة بالفعل فى صور أخرى مختلفة ، فيعبر عنها من خلال الغرف التجارية واتحادات الصناعات ثم لديهم السبيل الاجتماعى للتكتل داخل النوادى الرياضية والاجتماعية المختلفة وبحيث أصبح الانتماء إلى النوادى المشهورة هو السبيل إلى اقتحام هذه الطبقات وتعبيرا عن «جواز المرور» من طبقة إلى أخرى ، فهناك نوادى الطبقات الثرية من كبار ملاك الأراضى وممثلى السلطة من كبار الموظفين ينضمون ويجتمعون فى النوادى الرياضية المعتادة الموجودة فى عاصمة أو بندر كل محافظة فهى منتدى «الحكام» والفئات القادرة ، وهناك النوادى الرئيسية بالقاهرة مثل نادى الشمس وهيلوليدو ثم نادى اسبورتنج بمصر الجديدة ونادى اسبورتنج بالجزيرة ونادى الصيد بالدقى وغيره ثم يتربع فوق هذه كلها نادى السيارات الذى كان يسمى قبل ١٩٥٢ «بنادى السيارات الملكى» ، وقد تمكنت هذه النوادى ـ وفى غفلة من الزمن ـ ووقت الاستعمار والملكية من الاستيلاء على قطع ومسطحات ومواقع ممتازة من أرض مصر ، يستمتع بها القلة ويزعمون أنهم قد اكتسبوا حقوقا وامتيازات استقرت مع مرور السنوات والأزمنة .

وكنت أتصور أن الحكومة ـ والتى تشكو من العجز المستمر فى ميزانيتها ـ أن تفكر فى فرض رسوم إضافية لحسابها عند قبول طلبات الأعضاء الجدد لهذه النوادى مثلما تفرض مجالس إدارة هذه النوادى رسوما باهظة أخرى نظير القبول للعضوية وتتراوح هذه المبالغ بين ألف وخمسة آلاف جنيه للأسرة وأحيانا يكون الدفع بالدولار وقد تفرض الحكومة ضريبة أخرى سنوية على العضوية لأن الانتفاع بأرض مصر وفى القطع الممتازة له ثمن يمول الخزانة العامة .

أما الطبقات الشعبية من العمال والفلاحين فقد ناضلوا طويلا لكى يتمكنوا من حقهم فى تنظيم صفوفهم فى شكل نقابات ، وحتى الأربعينيات ـ وفى عهد إسماعيل صدقى بالذات ـ كان الانتماء إلى النقابة العمالية صنوا للانتماء إلى الحركة الشيوعية كلاهما يستوجب المحاكمة والاعتقال ، وقبل أن تتمكن الحركة النقابية للعمال من أن تكوّن تنظيماتها المستقلة ، جاءت ثورة ١٩٥٢ وأعدمت

خميس والبقرى زعيما الحركة العمالية فى كفر الدوار كجزء من تدعيم وترسيخ الحكم الوليد وقتها وترتب عن ذلك أن جمدت الحركة النقابية إلى أن احتاجت الثورة لتأييدهم فى حركة مارس ١٩٥٤ ، فابتكرت الدولة منذ ذلك الوقت الممارسات التى استطاعت من خلالها أن تسيطر على النقابات العمالية والاتحادات العامة واكتشفت الحل فى أن يكون رئيس الاتحاد العام للنقابات هو الوزير الذى يمثل الطبقة العاملة فى الحكومة وأصبح «زيتنا فى دقيقنا» .

أما الحركة الجماعية للفلاحين من الأجراء الزراعيين أو صغار الملاك فقد كانت تحت المجهر عبر السنوات والقرون لكى لايُسمع لها صوت ولايكون لها «خربوش» وحتى فى عهد عبد الناصر ومع إعطاء الفلاحين والعمال نصف عدد المقاعد فى مجلس الشعب ، لم يسمح إلا لتنظيم يسمى «الاتحاد العام الزراعى التعاونى» ولكن الحركة كلها كانت مرة أخرى فى جيب الحكومة وتحت وصايتها ، وعندما فكر رئيس جرىء لهذا الاتحاد فى أن يكون للاتحاد استقلالية ضُرب وضرب معه الاتحاد ذاته . وفى أحد المؤتمرات الدولية التى حضرتها عام ١٩٨٨ فى بغداد وقف فرد فى زى الفلاحين وخطب باسم «أربعة ملايين فلاح مصرى» ، وابتسم بعض العارفين ببواطن الأمور وحقيقتها .

والفئات الوسطى تجد لنفسها مكانا للتنظيم فى صور شتى فى كل من المدن والريف من خلال نوادى وروابط صغيرة أو عن طريق جمعيات خيرية أو اتحادات للموظفين وتأخذ ذلك أحيانا مظلة تنظيم له صورة الانتماء الجغرافى مثل رابطة أبناء إدفو أو المنوفية أو رابطة موظفين لوزارة أو مصلحة أو غيرها .

غير أن أبناء الطبقة المتوسطة أو الشعبية والذين استطاعوا من خلال مجانية التعليم فى عهد عبد الناصر تجاوز حاجز التعليم العالى وحصلوا على شهادة جامعية ، فقد انضموا إلى ساحات أخرى لها صبغة سياسية واجتماعية يعمل حسابها وذلك من خلال النقابات المهنية والتى كانت ـ ولا زالت ـ أهم وأقوى تنظيماتها ممثلة فى نقابة المحامين والتى تشكلت فى مطلع القرن ومع الحركة الوطنية المصرية وبداية لحركة النهضة الليبرالية .

واستمرت نقابة المحامين معقلا للحريات العامة ومعبرة عن ضمير مصر لسنوات طويلة ، بسبب أن أعضاءها ـ فى الأغلب الأعم ـ غير ملتزمين بقيود الوظيفة

الحكومية ، ولهم من دراستهم القانونية ما يمكنهم من تبنى قضايا الحركة الوطنية والحريات العامة وحقوق الإنسان وكافة ألوان الفكر .

وبعد الحرب العالمية الثانية سرت العدوى لفئات أخرى كثيرة ، فتكونت نقابات للمهندسين والأطباء والصحفيين والزراعيين والمعلمين ومن يسمون أنفسهم «بالتجاريين» وغيرهم .

وعندما كنت عضوا بمجلس الشعب شاهدت الصراعات والحوارات فى شأن إنشاء نقابة جديدة لخريجى معهد الطب الطبيعى ، وهى مرحلة بين الطبيب وبين المهنة التى كانت تعرف منذ سنوات «بالمجبراتى» وهى صنعة مصرية قديمة كادت تنقرض وسوف تنقرض مع إنشاء هذه النقابة الجديدة ، وكان الصراع واضحاً حول أحقية هذه الفئة فى تكوين نقابة وتم منع الآخرين (غير المؤهلين) من ممارسة هذه المهنة .

وتعتمد كل النقابات المهنية فى تمويل مواردها على ضرائب غير منظورة تفرضها القوانين الصادرة بإنشائها ، فنقابة المحامين «كالمنشار» تأخذ رسوما على كل قضية وتصادر «أتعاب المحاماة» التى تصدر وفق الأحكام لحسابها ، ونقابة الصحفيين تفرض أتاوات على كل الإعلانات ، ونقابة المهندسين تحصل على نسبة لكل شكارة أسمنت ، ونقابة الزراعيين عن كل شكارة سماد وهكذا .

وبعض النقابات لها ثقل سياسى وبعضها الآخر يكتفى بدور رعاية مصالح الأعضاء وصرف المعاشات «ومصاريف الجنازة» وما أشبه ، ومن النقابات التى لها دور سياسى نقابتا المحامين والصحفيين ، ولذلك تولى الحكومة ـ أى حكومة ـ أهمية كبرى لنتائج الانتخابات بهما . وتصادف أن انتخبت وكيلا لنقابة المهندسين فور «حركة التصحيح» التى أعقبت «انقلاب ١٥ مايو ١٩٧١» ، وأصبحت النقابة بالفعل مركزا هاما للتحركات السياسية من خلال قيادة المهندس عبد الخالق الشناوى وزير الرى الأسبق والذى فاز بأغلبية كبيرة ليكون نقيبا للمهندسين ضد ممثل الحكومة فى ذلك الوقت ، وقد أصبحت النقابة فى تلك الفترة مسرحا للصراعات السياسية فى مصر عشية حرب أكتوبر ١٩٧٣ حينما طرد عشرات الصحفيين وتم اعتقال مئات الطلاب ، فكانت نقابة المهندسين مركز التجمع للأنشطة السياسية لكافة النقابات والتيارات السياسية الأخرى من منطلق أنه لم يكن مسموحا أن يجرى أى تحرك سياسى ـ فى تلك الفترة ـ خارج نطاق التنظيم

السياسى الوحيد أعنى بذلك «الاتحاد الاشتراكى العربى» . وحيث كان الأستاذ إبراهيم شكرى - زعيم حزب العمل حاليا - أمين نشاط المهنيين فى الاتحاد الاشتراكى .

□ □ □

وأعتقد أن الانتماء الأيديولوجى أو الحزبى أو الفكرى أرقى كثيرا من الانتماءات الأخرى التى سبق ذكرها ، فمن غير الممكن للفرد أن يختار أسرته أو بلدته أو إقليمه ولكن مع النضج يتم التلاقى على أساس فكرى أو عقائدى أو أيديولوجى ، ومع النمو الديمقراطى وازدياد المسطح المتاح واستقرار الأوضاع والممارسات فى مجال الحريات العامة لسنوات طويلة ، (بحيث يصبح الرجوع عنها أمرا صعبا) ، يزداد عدد التنظيمات التى تتكون على أسس فكرية .

ومن هنا كانت أهمية الدعوة لتخفيف القيود على إنشاء الأحزاب ، رغم أن كثيرين لازالوا متخوفين من رفع القيود على إنشاء الأحزاب على أساس دينى .

أما الأحزاب على أسس طبقية فهى موجودة بالفعل فاليسار يدافع عن الطبقات الفقيرة والمقهورة بشكل عام وعن طبقة العمال والفلاحين بشكل أكثر تحديدا ، أما الأحزاب الليبرالية فإنها تدافع عن مصالح الطبقة الرأسمالية الوطنية وهكذا ، ولكن أن يتكون حزب على أساس طبقى بمعنى أن تقتصر عضوية الحزب على العمال وحدهم أو على ملاك الأرض الزراعية وحدهم أو على أصحاب عمارات التمليك وحدهم . أو أصحاب الشركات الصناعية أو التجارية وحدهم وما إلى ذلك ، فهو إجراء - حتى وإن رفعت عنه القيود القانونية أو التشريعية - سيولد أحزابا طبقية هزيلة إذ إن قيام أى حزب يعتمد أساسا على وجود برنامج (ربما يكون مشتقا من فلسفة أو أيديولوجية معينة) ولكن العضوية لابد أن تكون مفتوحة لكل الشعب ، فهناك كثير من أعضاء حزب «التجمع اليسارى» ينتمون اقتصاديا إلى الطبقات الثرية وربما انحدر البعض منهم من أصول إقطاعية من زمن يمتد إلى ما قبل ١٩٥٢ . . وفى الجانب المقابل هناك آلاف من العمال والفلاحين يؤمنون عن اقتناع بأفكار يمينية من منطلق أن الرزق هو عطية من الله يعطيها لمن يشاء بغير حساب . .

وقد تصور البعض أن دعم الانتماء الأيديولوجى والفكرى والحزبى هو من باب «الوجاهة» أو محاكاة للنمط الغربى للحضارة ، ولكننى أراه ضرورة حتمية لكل شعوب الأرض لأنه لم يأت من فراغ ولكنه وسيلة فعالة وواقعية لإمكان فك التناقضات فى المجتمع بطريقة سليمة ومتحضرة وبحيث يمكن انتقال السلطة من انتماء فكرى مثلا فى حزب سياسى أو مجموعة مؤتلفة من الأحزاب إلى انتماء مقابل آخر دون الحاجة إلى انقلابات أو تفجرات ولذا فإن العمل على بث روح الإنتماء الفكرى والحزبى هو جزء من التثقيف العام لكافة الفئات إذ إن الأحزاب السياسية هى المدارس الحقيقية لتنمية قدرات ومواهب وحماس الأفراد للانتماء القومى لكافة الفئات والذى يؤدى فى المدى البعيد إلى الأمن والاستقرار والحضارة والرقى وبحيث يعتاد الناس الاستماع إلى وجهات النظر المختلفة ، ومن ثم يقل التعصب فى كافة صوره وينمو الإحساس بالرضا والتعايش مع التعددية أى الاختلاف الأيديولوجى والاختلاف الدينى فهذا هو سر استمرار ورقى الحياة .

وقد نحتاج إلى استرسال يخرج عن الغرض الرئيسى لهذا الكتاب لو رغبنا فى أن نعدد كافة الانتماءات التى يكتشفها الإنسان لنفسه من خلال معايشته بين أبناء وطنه والتى تختلف من مرحلة زمنية إلى أخرى ، وصولا إلى الانتماء للبشرية جمعاء ، فكل التحركات العالمية المتعلقة بحقوق الإنسان ومكافحة التلوث والاهتمام بالطفولة والمسنين ورقى المعارف والتقارب بين الشعوب وحركات السلام وغيرها ، إنما تدل على أن هناك جانبا داخليا إنسانيا عاطفيا يربط بين كل البشر ويقدر ما بينهم من اختلاف وتباين يؤدى أحيانا إلى صراعات باردة أو ساخنة ، إلا أن هناك ولاشك قدر كبير ومسطح هائل مشترك تقف عليه البشرية والإنسانية جمعاء وكلما ازداد الإنسان رقيا وثقافة كلما خفت لديه نعرة التعصب والتشدد لانتماءات لا فضل له فيها على كل مستوى مثل الانتماء للأسرة أو للدين أو حتى للوطن! ولذلك فإن ظواهر الأمور تدل على أن البشرية سوف تنتقل إلى حقبة جديدة من التآلف الإنسانى وأتصور أن منتصف القرن الحادى والعشرين سوف يشهد نقطة تحول جديدة فى العالم بحيث تصبح الحروب العالمية غير ممكنة وتوضع القنابل الذرية فى المتاحف كما تختفى العقوبات البدنية ويقل كثيرا ممارسة التعذيب فى السجون وتخف حدة التعصب الأعمى للأديان أو الأيديولوجيات وحتى للأوطان .

هناك تباين وانتماء آخر بسبب النوع أى الجنس Gender أى وفيما إذا كان الإنسان ذكرا أم أنثى ، ولذلك تجد - فى أى جلسة أو احتفال بين الأصدقاء - كثيرا - ما يجلس النساء سويا يناقشن مشاكل الإنسان الداخلية والعاطفية «ومسك سيرة الناس» ، ويتجمع الرجال ليناقشوا أحوال الحياة السياسية وهى كثيرا ما تكون أحاديث دون فاعلية ومجرد ثرثرة ، ومن هنا ظهرت حركات «تحرر المرأة» ولكن المؤكد هو أن المرأة لن تحصل على حقوقها فى أى مجتمع بمفردها ودون أن يشاركها فى ذلك الرجل المتحرر ، وقد تلاحظ أنه كلما ارتقى المجتمع كلما تمكنت المرأة من الحصول على وضع متكافئ للرجل وكذلك كلما ناضلت المرأة والمجتمع من أجل حقوق أكثر للمرأة كلما ارتقى المجتمع ولابد من أن يغير الرجل فكره ونظرته إلى المرأة بأن تتحول من أنثى إلى إنسان ، فتختفى عندئذ التفرقة ويقل الإحساس بالتمايز بسبب الجنس أو النوع .

ومن ضمن الانتماءات الأساسية فى العالم الانتماء العرقى ويسمونه «الإثّنىّ» Ethnic ولعل أوضح مثال لذلك هو حال الأكراد فى العراق أو البربر فى الجزائر أو السود فى جنوب السودان وغيرها ، وفى مجتمع كالولايات المتحدة الأمريكية حيث يصورونه على أنه «بوتقة الانصهار» من خلال المحاولات المخططة لكى ينصهر كل المهاجرين فى «بوتقة واحدة هى أمريكا» ، تظل الفروق العرقية واضحة ، خصوصا بالنسبة للسود الذين لاقوا – ولا زالوا يلاقون – ألوانا مختلفة من التفرقة .

ولذلك فإننا فى مصر نفخر بأننا لا نمارس أو نتفهم ما يجرى بسبب التفرقة العنصرية أو العرقية ، ليس فقط لأننا بالفعل أقدم «بوتقة انصهار» حيث تقابلت وامتزجت عشرات الأجناس عبر آلاف السنين – ولكن لأن إحساسنا بالفروق بسبب اللون أو الشكل غير موجود أصلا ، فهناك أشخاص كثيرون لهم بشرة بيضاء وعيون زرقاء (ويسمونها أحيانا خضراء) وربما شعر أصفر (وهو فى الحقيقة بنى فاتح أو ذهبى) وهناك فى الجانب المقابل أشخاص سمر أو سود البشرة والحدقة والشعر مثل أهالى أسوان . إن هذا التباين فى ألوان البشرة ليس موجودا فقط على طول البلاد وعرضها ولكنه موجود كذلك فى العائلة الواحدة ، فالتفرقة العنصرية غير معروفة فى مصر ولذا فإننا ندهش عندما نسمع عن «الهابرتايد» أى الاضطهاد بسبب اللون الأسود أو العرق الزنجى فى جنوب أفريقيا أو أمريكا وكيف يتحول هذا الصراع إلى حروب أهلية بين بعض البلاد .

وتختلف الشعوب فى إحساسها بالانتماء إلى جهة العمل ففى اليابان والصين وبلدان الشرق الأقصى تقاليد عريقة «تربط المواطن بجهة عمله» أى بالمنظمة التى ينتمى إليها سواء أكانت حكومية أم شركة قطاع خاص ، ويتمثل ذلك فى طول مدة الخدمة وبحيث إذا التحق بها الشاب أو الفتاة ظل فى خدمتها حتى سن الإحالة إلى المعاش ، كما يقضى الموظف طوال اليوم فى العمل الرسمى لمزيد من الإنجاز ، دون انتظار لمقابل ، وكما سمعت من مسئولين فى اليابان بتفوق الانتماء إلى جهة العمل على الانتماء الأسرى ، ويقال إن ذلك أحد أسباب تفوق اليابان فى كافة مجالات الإنتاج .

أما فى أمريكا فلها منطق آخر ، فالعرف العام أن عقود العمل كلها لمدد محددة سلفا كان تكون لمدة عام أو أكثر وحتى أساتذة الجامعات أو الوظائف الحكومية فعقودهم تكون لسنوات محدودة ، قد تجدد أو لا تجدد ، ولذلك فالطموح الشخصى مقرون بالتنقل من وظيفة إلى أخرى ومن ولاية إلى ولاية ولذلك فإن «الفردية» و «الأنا» فى تضخم ، وقد أمكن من خلال هذا النظام إيجاد المنافسة الشديدة بين البشر والأفراد وأن تقدم المجتمع يتحقق من خلال هذا التنافس الشديد حتى أصبحت أمريكا هى طموح وأمل كل المغامرين فى العالم فهذه هى فلسفة النظام الرأسمالى .

وفى مصر الولاء للدولة ، والأمان فى العمل - أى عمل - فى حضن الحكومة ومنذ قرون طويلة ومنذ عهد الفراعنة تسيطر الدولة على أنشطة كثيرة حتى ظهر المثل الشعبى الذى يقول «إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه» . .

□ □ □

على أن الانتماء الدينى هو من الانتماءات الهامة والتى أصبح لها موقع خاص ليس فى مصر والشرق الأوسط وحده ، ولكن فى مواقع كثيرة من العالم ، والمفروض أن يكون الانتماء الدينى قضية فردية وشخصية ، وإذا به يتحول إلى انتماء جماعى له وزنه السياسى ، فالرئيس ريجان يبشر فى أمريكا بأن الإنجيل هو الكتاب الأول الذى يسترشد ويهتدى به ، ولا زالت أوروبا تتحدث عن «حضارتها المسيحية» ، وعندما كنت فى النرويج منذ سنوات دهشت من العدد الهائل من الشباب الذين يرتادون الكنائس منبهرين بشخصية وجاذبية وحجج أسقف شاب جديد استطاع أن يمزج المسيحية بالقيم العصرية وأن يعطى راحة نفسية للشباب الضائع بين الخمور والمخدرات والجنس .

وقد خصصت بعض الشركات الكبرى فى أمريكا محطات خاصة عبر نظام خاص يسمونه «نظام الكابلات» بحيث تعمل المحطة لساعات طوال فى إرسال برامج معينة فى تخصص محدد وكانت إحداها للتبشير المسيحى فقط ، بحيث تقدم المحطة ترانيم وخطبا ومواعظ دينية وتفسيرات وتاريخ «كله دين فى دين» وأصبح لهذا المجال نجومه الذين يحصلون على «الملايين» لأن لهم أتباعا ومعجبين أيضا «بالملايين» إلى حد أن أحدهم قد أقدم ليكون مرشحا للحزب الجمهورى للانتخابات التى كانت تجرى فى نوفمبر ٨٨ ، وحمدا لله أنه قد خرج من الحلبة وإلا كنا فى كوكب آخر غير الذى نعرفه .

ومنذ أن زرعت إسرائيل فى المنطقة ، خصوصا بعد هزيمة ١٩٦٧ ، اتجه الأفراد والجماعات إلى أماكن العبادة بشكل متدفق ونما الشعور الدينى فى مصر (إسلاميا ومسيحيا) وسرت ذات التوجهات إلى كافة بلدان الشرق الأوسط من المغرب حيث مزج الملك الحسن حضارة أوروبا بالإسلام إلى إيران شرقا حيث الحكومة تحاول أن تصدر الثورة الدينية إلى كل مكان ومن لبنان شمالا حيث كانت الحرب الطائفية لسنهات إلى السودان حيث حرب دينية - طائفية - عنصرية - عرقية ومن غير المعقول أن لا يصيب مصر الرذاذ فهى تقع فى قلب المنطقة .

وكان من مظاهر تعاظم ونمو الانتماء الدينى أن زاد عدد المصلين الذين يؤدون العبادات فى الجوامع والكنائس بشكل هائل ، وأصبحت الصلاة فى الميادين العامة أيام عيد الفطر وعيد الأضحى من الظواهر التى تبهج نفس المتدينين وفى ذات الوقت تضع قوات الأمن فى حالة تأهب واستعداد .

ثم انتشرت الكتب والثقافة الدينية بشكل واسع لدى المسلمين والأقباط ، وتأسست دور نشر جديدة متخصصة فى المطبوعات الدينية ، وتباع هذه الكتب بأسعار زهيدة تقل أحيانا عن ثمن الورق .

وكان طبيعيا أن تلهث الدولة وراء هذا الزحف الجديد ، فاحتلت البرامج الدينية ساعات طوال من إرسال الإذاعة والتليفزيون وأصبح لهذه البرامج نجومها وأئمتها تشبها بالحال فى أمريكا ، ورغم تضاعف البرامج الدينية مرات عديدة ظلت البرامج المقابلة التى تخص الأقباط مقصورة على برنامج واحد يذاع صباح كل أحد لكى تنقل فقرات من القداس وجزءا من العظة لمدة جزء من الساعة ، وهى ممارسات

موجودة ولم تتغير بالزيادة أو النقصان منذ عشرات السنين عندما كانت هناك برامج إذاعة مسموعة فقط .

وحتى الصحافة أصابتها الحمى فظهرت صفحات كاملة من كافة الجرائد الحزبية والقومية تنشر الفكر الدينى ، وزادت الجرعات التى تدعو إلى التدين ونشر الفضائل فقط ، فامتلأ الجو كله بمناخ دينى هائل غير مسبوق فى مصر منذ قرون . وتكوّن فى القمة «شركات توظيف الأموال» تحت شعارات دينية ثم نشطت الأحزاب والجماعات والهيئات الإسلامية وارتكزت كل تلك التنظيمات على جماعات متشددة من الشباب واختلطت الأوراق بين كل تلك الجماعات والمجموعات والتنظيمات .

وكان طبيعيا أن ينعكس كل ذلك على «الأقباط» وكانت البداية تحت شعار «نهضة روحية» من الوعظ وزيادة عدد الكنائس ثم اشتد الحماس وتجسد فى رسامة عشرات من الأساقفة الشبان فى كثير من المحافظات ، وكذلك رسامة عدد هائل من الكهنة المثقفين من خريجى الجامعات ، وقد أثر ذلك كله على زيادة الأنشطة داخل الكنائس ولم يعد الأمر مقصورا على الصلاة أيام الأحد والجمعة كما كان الحال حتى أواخر الستينيات ، وإنما امتد وتوسع النشاط ليشمل الأطفال والشباب فيما يسمى «حركة مدارس الأحد» والتى تحوّل اسمها ليصبح «التربية الكنسية» حتى تكون جزءا من تنظيمات الكنيسة فلا تخضع لإشراف وزارة الشئون الاجتماعية وإن كانت لم تسلم من إشراف غير مرئى لجهات الأمن ، وظهرت أنشطة جديدة غير مسبوقة وتكونت لها تنظيماتها فيها يسمى بـ «الأسقفيات العامة» مثل «أسقفية الخدمات» والتى تقوم بالرعاية الاجتماعية لكثير من الفئات المقهورة مثل القاطنين فى حى الزبالين بالقاهرة وخدمة الفقراء والمحتاجين والمسنين حتى امتد النشاط ليشمل تقديم دراسات خاصة للشباب فى مجالات اللغات والآلة الكاتبة والسكرتارية وغيرها وكذلك تكوين فصول ومعاهد للتدريب المهنى للصناعات والمهن والحرف فى الميكانيكا والكهرباء والسباكة وغيرها .

وامتد النشاط والحركة والحيوية إلى الأديرة والتى كانت فى مطلع القرن أماكن مهجورة ، ولم يقتصر الأمر على الأديرة القائمة ، وإنما تم إحياء أديرة قديمة كانت مهجورة بالفعل ، ونما العمران والبناء فى الأديرة القائمة وتوسعوا فى المكتبات والدراسات والترجمة ، وتوسعوا أيضا فى استصلاح الأراضى واستنباط نباتات

وثمار جديدة تناسب الصحراء المحيطة بالأديرة ، وأصبحت الأديرة هى المكان الذى يتطلع إليه عشرات من خريجى الجامعات يرجون ويلحون ويأملون أن «ينالوا البركة» بالموافقة على انضمامهم إلى «سلك الرهبنة» والذى بمقتضاه يتبتل الراهب ويعيش دون زواج ويتفرغ تماما للعمل الدينى ، ووفق التقاليد الكنيسية يصلون عليه «صلاة الموتى» عندما يلبسونه «إسكيم الرهبان» تعبيرا عن انقطاع صلته بعائلته وعالمه القديم ودخوله عالما جديدا هو عالم الدين والتقشف والعبادة إلى أن يتم اختياره أسقفا فيعود مرة أخرى إلى الحياة المدنية ويمارس نشاطه بين البشر العاديين .

وامتد النشاط الرهبانى ليشمل حركة «الرهبة بين الآنسات المتبتلات» وأغلبهن من خريجات الجامعات أيضا وشاهدت بنفسى معاناة بعض العائلات القبطية نتيجة إصرار بناتها (أو أولادها) على دخول سلك الرهبنة ورفض عروض الزواج أو العمل فى وظائف ممتازة .

وكان طبيعيا مع هذا الرواج الدينى الكاسح فى كل من الجامع والكنيسة وفى ضوء أن منطقة الشرق الأوسط على فوهة بركان سياسى يتخذ الدين مظهراً للصراع ، أن اتجهت بعض الهيئات الداخلية والخارجية لتعضيد هذا التيار أو ذاك .

وانتشرت وتوسعت الأنشطة الدينية المصرية إلى الخارج فأرسل الجامع الأزهر العديد من القيادات الفكرية إلى عواصم الدول حيث توجد تجمعات ومراكز إسلامية فى كل من آسيا وأفريقيا وأحيانا فى أوروبا وأمريكا ، وكذلك تواجدت الكنيسة القبطية فى بلدان شتى فى أمريكا وكندا وإستراليا لخدمة المهاجرين المصريين الأقباط ثم تواجدت فى أفريقيا للتبشير مثلها مثل الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية الموجودة هناك منذ مرحلة الإستعمار فى أوائل القرن الماضى ، وسافر الأنبا شنودة فى رحلة استغرقت أربعة أشهر لزيارة الكنائس القبطية فى إنجلترا وكندا وأمريكا ثم إستراليا فى النصف الثانى من عام ١٩٨٩ .

وقد دهشت أن حضر إلىّ خلال عام ١٩٨٧ السيد إدريس البنا وكان وقتها نائب رئيس مجلس رأس الدولة فى السودان وقبل أن يحكم عليه بالسجن ٤٠ عاما فى ٣٠ يونيو ١٩٨٩ ، جاءنى وطلب منى أن نقابل البابا شنودة للتشاور معه ، فيما إذا كان ممكنا إقامة مركز للكنيسة القبطية المصرية فى جنوب السودان كبديل للكنائس الغربية ، من منطلق أنهم يعرفون فى الخرطوم مدى التزام الكنيسة القبطية بالخط الوطنى وإنها - إذا قدر لها أن تحل محل الكنائس الغربية - ستكون عونا للحكومة

السودانية على إنهاء الحرب الأهلية فى الجنوب وستعمل على المعايشة بين الأديان والأجناس مثلما هو الحال فى مصر .

وكلما زاد النشاط الدينى فى مصر زاد احتمال وجود تصادم بين الأنشطة الدينية الإسلامية والأنشطة الدينية المسيحية ، فمثلا إذا رغب الأقباط فى إنشاء كنيسة ثم قاموا بشراء قطعة الأرض ، فإن جماعات مقابلة تقوم بسرعة وتجمع المال اللازم لإنشاء مسجد أهلى أو حتى مصلّى بسيط بالقرب من ذات الموقع الأول وبحيث يكون إنشاء الكنيسة مستحيلا وفق القواعد المعمول بها منذ سنوات طويلة والتى لا تعطى ترخيص لبناء كنيسة إذا كانت على مقربة من مسجد .

ولذا فإن الأقباط يضطرون إلى الحيلة فى بناء الكنائس بأن يشتروا قطعة أرض فضاء ويرخصونها «عمارة سكنية عادية» وبعد الحصول على الترخيص يقومون بإنشاء سور من الخشب أو من المبانى على الواجهات وتبدأ عمليات البناء وبعد علوّه فوق سطح الأرض وفوق مستوى الأسوار يتضح أنه كنيسة وليست عمارة ، وعندئذ يصير الصراع مع السلطة من أجل الحصول على ما يسمى بالقرار الجمهورى اللازم لإنشاء الكنيسة وتضطر الدولة تحت ضغط الأهالى والأمر الواقع أن تستصدر القرار الجمهورى ، استيفاء للشكل .

عل أن المنافسة والصراع ليس قاصرا على بناء المساجد والكنائس فحسب وإنما تمتد إلى أنواع أخرى من النشاط الخيرى أو الاجتماعى ، فالمنافسة شديدة بالذات فى بعض مدن الصعيد حيث الوجود القبطى ملحوظ ، ففى مجال بناء المستشفيات مثلا قام أحد الأساقفة الشبان (وكانت مهنته الأصلية طبيب) والذى رُسم فى أحد مراكز محافظة المنيا ، وسخّر كل الموارد المالية للأسقفية لبناء مستشفى انفتاحى كبير لا يتفق مع هذه المنطقة ويقال إنه قد استعان بموارد مالية من الخارج .

وفى مجال كسب الشباب ، قامت الجماعات الإسلامية - بدعوى الدين بتجنيد آلاف الطلبة فى الجامعات وقدمت لهم خدمات هائلة ، ليس فقط فى مجال طبع الكتب والمذكرات بأسعار رمزية تقل عن التكلفة ، ولكن بتقديم مزيد من العون فى السكن والزواج إذا هم تمسكوا بكافة المظاهر الخارجية للتدين بإطلاق اللحى وبلبس الجلباب والطاقية والصندل ، واستمرارا لهذا الخط بدأ زى المحجبات

فى السيطرة على الطالبات الجامعيات ، وقد وجد ذلك هوى لديهن لتوحيد الزى واختفاء الفروق الطبقية ، والاستغناء عن أدوات التجميل وتصفيف الشعر وما إلى ذلك وهى فى مجملها قد أصبحت باهظة التكلفة .

وبدلا من أن يتوقف الانتماء الدينى عند حدود التدين - وهى ظاهرة مصرية قديمة - بدأ الاتجاه إلى التطرف والتكتل ومن ثم أصبحت احتمالات الاحتكاك والتحرش واردة ، خصوصا وأن بعض الجماعات فى مدن مثل المنيا قد سيطروا على بعض أحيائها الفقيرة وفرضوا أحاكمهم عليها مما اضطر مجلس المحافظة لأن يقر مبدأ إيقاف بيع «البيرة» فيها رغم أن ذلك مخالف للقانون العام حتى الآن ، ولكنه يعنى تخوف الحكام من بطش مثل هذه الجماعات فآثروا التراجع ، وقد صرح لى أحد قيادات هذا التيار : إننا لسنا فى عجلة من أمرنا .

ومن هنا فإن الانتماء الدينى قد خرج عن جماله وروحانيته وأهدافه التى تحافظ على الأخلاقيات السامية وأصبح سلاحا سياسيا يهدف إلى تغيير مقومات المجتمع الأسياسية والتحول من مبدأ المواطنة أى أن يكون الأساس فى التعامل هو المساواة إلى أن يكون الانتماء الدينى والهوية لها الأسبقية ! كما بدأ الصراع شديدا من الجانبين فى محاولات لتغيير ديانة ضعيفى النفوس وممن يعانون مشاكل اقتصادية أو نفسية أو عاطفية .

وإذا عدنا إلى الماضى القريب ، نجد أن هذه المظاهر لم تكن موجودة بسبب أن هموم واهتمامات المواطن المصرى كانت تدور حول ما يسمى بالمشروع القومى للوطن ، فمع إندلاع ثورة ١٩١٩ كان اهتمام المصريين جميعا - مسلمين وأقباط - هو حصول البلاد على الاستقلال وخروج الإنجليز من مصر ، فناضلوا معا لتحقيق هذا الغرض .

ومع ثورة يوليو ٥٢ التفت البلاد حول شخص الزعيم عبد الناصر ، ليس فقط لإتمام عملية الاستقلال وقد تمت عام ١٩٥٤ ، وليس فقط لعودة قناة السويس إلى مصر وقد عادت فى يوليو ١٩٥٦ ، . وليس فقط لبناء السد العالى وقد تحول مجرى نهر النيل عام ١٩٦٤ ، وإنما لبناء مجتمع جديد أكثر عدالة بتقريب الفوارق بين الطبقات ورفع مكانة مصر بين الأمم من خلال الانتماء العربى الأفريقى ومجموعة دول عدم الانحياز ، وشعر كل مصرى - مسلما وقبطيا - أن انتماءه المصرى موضع إحترام فى كل بقعة من العالم إلى أن كسِرت القومية العربية فى يونيو ١٩٦٧ .

ومنذ ذلك التاريخ (أى يونيو ١٩٦٧) وأحوالنا الطائفية ليست على ما يرام ولكن بفضل الكثرة من العقلاء تمكنت مصر من عبور فترة السادات وأحداث الخانكة عام ١٩٧٢ وأحداث سمالوط عام ١٩٧٩ ثم أحداث الزاوية الحمراء عام ١٩٨١ ، وكان قمة المأساة حركة الاعتقالات الشهيرة سبتمير ١٩٨١ .

ومن هنا ونحن نضع أسس دولة أكثر استقرارا وتعتمد على مؤسسات أكثر من اعتمادها على أفراد ، وجب أن نوضح أن الشرخ الذى حدث منذ أوائل السبعينيات لن يلتئم من تلقاء ذاته ولكن يحتاج إلى تضافر قوى كثيرة لإحياء روح الوحدة الوطنية كما كانت بعد عام ١٩١٩ .

على أن الأمر لن يؤتى ثماره ما لم تساهم الدولة - وهى صاحبة المصلحة الأولى فى وحدة الوطن - وذلك من خلال التوعية والمساهمة فى تشكيل العقل والوجدان الوطنى .



ثالثاً: نظرية الانتماءات
بين الثراء السمح والأحادية المتعصبة

إن الانتماءات العامة للشعوب (وهو موضوع الفصلين ٤،٣ بالنسبة للشعب المصرى) والانتماءات الشخصية للفرد (وهو موضوع هذا الفصل) هى فى جملتها صُلب الصراع السياسى فى عالمنا الحديث ، وهناك منهجان فى الممارسة العملية :

الأول : يدعو لتكريس انتماء واحد للشعب وتغذية هذا الانتماء للفرد سواء أكان ذلك الانتماء دينيا أو عرقيا أو مذهبيا فدولة مثل إيران تعتبر أن لها انتماء واحدا هو الإسلام وكذلك الحال بالنسبة للسعودية ، أما بالنسبة للانتماء العرقى فذلك هو الحال بالنسبة لإسرائيل لأنها تقول إن اليهود هم «شعب الله المختار» وكذلك الأمر بالنسبة لجنوب أفريقيا والتى كانت ـ إلى أن حكمها مانديلا تعطى السيادة للجنس الأبيض دون سكان البلاد الأصليين من السود ، وهكذا كانت ألمانيا الهتلرية حين كانت «ألمانيا فوق الجميع» وحيث وضعت أجناس البشر فى رتب فوق بعض فكان السود فى أسفل القائمة أما الأنجلو ساكسون من الألمان فهم وحدهم من «عرق» أرقى ويحق له سيادة العالم وحكمه .

أما سيادة المذهب السياسى أى الأيديولوجى على الدولة فكانت واضحة فى دول أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى حتى عام ١٩٩٠ والعقيدة عندها أن الحل الاشتراكى المبنى على الفكر الماركسى - اللينينى هو وحده الذى له الفوز فى نهاية الأمر فى كل موقع من العالم .

ولقد ثبت أن الإنتماء الواحد والوحيد للدولة والشعب هو تجسيد للتعصب ومثير للغرور وكراهية الآخرين .

أما المنهج الثانى فيحاول أن يكشف الانتماءات المتعددة لكل شعب وهى المحاولة التى تمثل العصب الرئيسى لهذا الكتاب - وذلك بهدف إلقاء الضوء على الشخصية الوطنية وأوجه التعدد والتنوع لها وفيها .

وهكذا استعرضنا فى الفصلين ٣ ، ٤ «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» وهى ليست بالضرورة كأسنان المشط متساوية متكافئة لكل مصرى ولكنها تكوّن فى مجملها المقومات الأساسية التى تؤثر على التركيبة النفسية والجماعية للمصريين .

وبجوار هذه الانتماءات العامة للشعب المصرى هناك عشرات الانتماءات الشخصية الفردية والتى استعرضنا بعضا منها فى هذا الفصل الخامس ، بعضها يولد مع الإنسان وهى إذن جزء منه ، وبعضها يكتسبه الفرد من الأيام وفق قدراته وظروفه وميوله ، ولعل هذه وتلك تكون فى مجموعها الملامح شخصية الإنسان .

□ □ □

وإذا ضربت بنفسى مثلا ، أستطيع أن أقول - مثل كل بشر - ولدت لأجد نفسى فى أسرة من الطبقة المتوسطة ونشأت فى حى شبرا بالقاهرة وعندما تزوجت كونت عائلتى الصغيرة والتى تشمل الزوجة وأولادى الثلاثة ولكن هناك الأسرة الكبيرة التى تمتد لتشمل الأخوات وأولاد العم ومن فى درجاتهم ولكننى لم أتوقف عند ذلك ، وتجاوزته مع انتمائى إلى مدينة سنورس بالفيوم حيث أسرة والدى ، وإلى قرية شنرى مركز الفشن حيث كان يعيش جدى لوالدتى ، فهذه كلها انتماءات موروثة ليس لى فيها أى فضل ، ولكننى مع سنوات النضج أعطيت أهمية أكبر لانتمائى المهنى وأعتز كثيرا بكونى مهندسا وتأثرت تصرفاتى وأفكارى كثيرا بالنظريات الهندسية والمنطق الرياضى وممارستى للهندسة الإنشائية فى مكتبى لسنوات طويلة إلى الحد أن داعبنى بعض زملائى فى مجلس الشعب بأننى «أهندس السياسة» وكان ردى بأن كتاباتى فى الإسكان وغيرها هى محاولة «لتسييس الهندسة» حتى أربط الهندسة والجامعة بمشاكل المجتمع .

ولى انتماء خاص اكتسبته من خلال عملى لمدة خمسة وأربعين عاما متواصلة فى كلية الهندسة جامعة عين شمس ، ومن بين الآلاف الذين يعرفوننى من خلال عملى العام ، أعتز كثيراً بمن درّستهم وتفاعلت معهم علميا داخل المدرجات من خريجى هندسة عين شمس وأشعر بأننى أيضا قريب إلى قلبهم بقدر ما هم قريبون إلى قلبى ولا زالت تربطنى ببعض منهم صداقة وطيدة إلى الآن .

وفوق كل ذلك وقبله فإن انتمائى الأصيل والكبير هو لمصر وشعبها ، ويعرف ذلك عنى كل أصدقائى ، من المصريين والعرب والأجانب على حد سواء .

ورغم هذا الثراء من الانتماءات فإن صلتى مع انتمائى القبطى لم تنقطع عبر السنين - وهذا أمر يحدث كثيرا لبعض المثقفين الاشتراكيين الذين يتركون

جذورهم وراء سراب انتماء جديد تحت شعار «الأممية» وما كتاباتى فى قضية الانتماءات كلها . . كما جاء فى هذا الكتاب أو كتابى الآخر الذى صدر عام ١٩٨٠ بعنوان «نعم أقباط . . ولكن مصريون» ، إلا . . إنعكاسا لهذا الاهتمام واعتزازا به خصوصا بعد أن اعتقلت مع الأساقفة والكهنة فى سجن المرج فى سبتمبر وأكتوبر ١٩٨١ .

ولأننى أشعر أن الوحدة الوطنية لن تعود بالخير والسعادة على أقباط مصر فحسب ، ولكنها سبيل مصر لتجاوز المخاطر والانتكاسات المحدقة بنا ، وأشعر أنه عندما أعبر بصراحة عن بعض الانفعالات التى يشكو منها الأقباط ويناقشونها فى مجتمعاتهم المغلقة ، أن فى ذلك حماية للوطن كله . . وأنه لن يقابل بغضب من أصدقائى وزملائى المسلمين ، من منطلق أن مواقفى السابقة تدل وتؤكد حبى وانتمائى لمصر كلها ، على الرغم من أن أصدقائى المقربين يعرفون ما كنت قد قاسيته خلال محاولاتى الالتحاق بخدمة الجامعة كمعيد ثم كمدرس عام ١٩٥٤ ثم من خلال تخطى حواجز الترقى للدرجات والوظائف وفق القواعد الجامعية المعتادة فقد تأخرت عن أقرانى الذين كنت أسبقهم فى أمور كثيرا لنحو عشر سنوات طويلة ، ولكن ذلك لم يترك رواسب داخلية ، بل كنت متفهما أنه طالما أن هناك حقوقا متساوية فى القضايا الأساسية ، وهى حق المواطنة والفرص المتكافئة فى التعليم والملكية ، فإن أى صعوبات هنا وهناك هى مسائل تصقل النفس وتصلب العود ، ويمكن تجاوزها .

وسأظل متمسكا - فيما تبقى من عمر - بانتمائى وانحيازى إلى فقراء مصر - فى مشكلة الإسكان وفى غيرها من مشاكل - لأن ذلك جزء من تكوينى العقلى وارتباطى بالفكر الاشتراكى وإن كان ذلك مقرونا - كما هو معروف لكثيرين - بقضية الديمقراطية والليبرالية وحريات الإنسان فهى لدىّ قضية أساسية ومحورية غير قابلة للتنازل أو الحلول التوفيقية فلا معنى للخبز بدون حرية .

وعندما أسافر إلى البلاد العربية أشعر بأهمية انتمائى إلى التيار العربى الوحدوى ، ثم تتوج كل هذه الباقة من الانتماءات الشخصية أو الجماعية بأننى كإنسان جزء من البشرية جمعاء ولهذا عملت بكل حماس فى تنظيمات حقوق الإنسان والمجتمع المدنى حتى صرت عضو مجلس إدارة وعضو مؤسس فى مؤسسة سيفكس Civicus العالمية وقد منحونى تقديرا دوليا عام ١٩٩٦ .

إن هذه المجموعة من الانتماءات كالآلات الموسيقية التى يصدر كل منها نغم ، ولكن العزف عليها كلها مجتمعة دون تنسيق سيحولها إلى صخب وضجيج دون أن تتحول إلى موسيقى ناعمه مريحه يطرب لها الإنسان ، ولذا فإن «المايسترو الماهر» هو الذى يقيم التوازن بين الانتماءات الوطنية وبين الطموحات الذاتية .

ومن خلال تعاملى مع الناس فى كل موقع داخل مصر أو خارجها أدركت أن الشخص المتعصب هو الذى يركز فى حياته على انتماء واحد دون أن يتفاعل مع كل أو بعض انتماءاته الوطنية أو الشخصية الأخرى ، فهى موجودة حوله ولن يبحث عنها طويلا ، وقد جاءت قناعتى تلك من خلال واقع ووقائع عشتها فى الحقبة الأخيرة والتى تجاوزت فيها الانتماء الدينى فلم يطغى على باقى الانتماءات ودعنى أقص بعض الوقائع التى تدل على المناخ العام الحالى للتعصب الدينى .

كانت القصة الأولى فى مبنى كلية الهندسة جامعة عين شمس (ربما قرب منتصف السبعينيات) وفى الظروف والمناخ الذى قام فيه نظام السادات ليكون مشجعا ومولا لحركات الجماعات الدينية ، وكجزء من ضرب الحركة الناصرية بين الشباب ، وكان هناك معرض للكتب الدينية ورغبت أن أتعرف على ما يجرى عرضه وأثناء تجوالى فى المعرض فُتح حوار مع أحد أفراد هذه الجماعة وكان ملتحيا ويلبس جلبابا وطاقية بيضاء (وكانت هذه الأمور جديدة على بلادنا فى الجامعة) وتطرق الحوار حول ملبسه ومدى ملاءمة ذلك إلى التجنيد بعد التخرج ودفعنى الحوار لأن قلت ألست أنا الأستاذ بكلية الهندسة أقرب إليك من المسلم فى أندونيسيا أو أفغانستان ، وقبل أن أكمل حوارى قاطعنى بحدة قائلا : هم أخوتى فى الإسلام ومستعد أن أحارب معهم ! !

أصابنى الغم والهم لأول مرة - وربما الوحيدة - خلال عملى الجامعى والذى امتد الآن لنحو نصف قرن ، وأدركت أننا مقبلون على عصر يسوده التعصب الأعمى ولذلك لم أدهش كثيرا عندما وصلنا إلى أحداث الزاوية الحمراء عام ١٩٨١ .

أما الواقعة الثانية فكانت فى شهر ديسمبر عام ١٩٨٧ عندما كنت فى زيارة لأمريكا وكندا لحضور مؤتمرات تتعلق بالسنة الدولية لإيواء من لا مأوى لهم ودعانى لفيف من الأقباط المهاجرين للقاءات وحوارات ، كانت تدل فى مجملها على لهفة الأقباط لمعرفة ماذا يجرى فى مصر وإلى أين المصير ؟

وكان هناك لقاء فى مركز الهيئة القبطية الأمريكية فى مدينة نيوجرسى قرب نيويورك ، وكان واضحا من الأسئلة أنها تحمل نغماً يدل على التعصب والمراره نتيجة المعاناة التى صادفها كل منهم فى مصر ، بعضها بسبب اضطهاد دينى مغلف وفى الظلام والآخر بسبب عدم وجود قدرات ذاتية للإنسان ذاته وكان من نتيجتها قرار الهجرة إلى أمريكا أو غيرها ، وعندما عرضت وجهة نظرى التى شرحتها فى هذا الكتاب حول الانتماءات السبعة للشخصية المصرية ورغبت أن أدلل على ذلك فقلت : إن داخل كل مصرى جانبا فرعونيا وآخر قبطيا وثالثا إسلاميا . . وإذا بأحد الحاضرين يستوقفنى مقاطعا : أنت مخطئ وأتيت إلينا لتقنعنا بالإسلام ، فأنا قبطى فرعونى ولا يوجد بى أى جزىء لا من الإسلام ولا من العروبة ! !

توقفت عن الحديث ، وفى غضب هممت بأن أترك القاعة وإذا بغالبية من الحاضرين يعتذرون ويصرون أن أتم حديثى وشرحوا لى الظروف التى ترك بها هذا «المصرى - الأمريكى» مصر ولكننى لم أقتنع ، وشرحت لهم الصعوبات التى واجهتها فى الجامعة للتعيين والترقى ولكن ذلك لم يمنعنى من حبى لبلدى مصر .

خلاصة القول ، هى أن لدى كلا منا تراكمات من ارتباطات أو انتماءات شخصية تكوّنت مع الزمن هى رصيد شخصى أهم وأبقى من رصيد البنوك ولنا جميعا كشعب خواص إنسانية تكوِّن الشخصية الوطنية متأثرين بتاريخنا وموقعنا .

إن فن الحياة هو فن التعامل مع هذه الباقة من الانتماءات ، فمنَ استخدمها بذكاء وبفهم وحذق سَعدَ فى حياته وأصبح مقبولا من المجتمع حوله ، ومن ركز على انتماء واحد سواء أكان انتماء عائليا أو مهنيا أو دينيا سيضيق أفقه ويضيق به الناس من حوله ويصاب بالإحباط وينتهى به الأمر إلى الوحدة والضيق والكفر بالحياة ذاتها .

والأمر - من قبل ومن بعد - هو اختيار شخصى ، فالسعادة - أيها القارئ - بين يديك .

الفصل السادس*

مخاطر ضمور الخصوصية الثقافية للأقباط

- قوانين المعايشة بين الأقباط والمسلمين ملامحها وأغوارها لم تستكمل بعد ، ولازال مجال الاجتهاد مفتوحاً .
- أحوال المنطقة زادت سوءاً فى السنوات العشر الماضية ، وفرضت اهتماماً أكبر بقضية الوحدة الوطنية .
- من صراعات الطبقات إلى صراع الحضارات ، والبديل هو «قبول الآخر» .
- بعض ملامح الخصوصية الثقافية للأقباط .
- الأقباط عصب الطبقة الوسطى المصرية وهذا هو سر الإحساس بأن عددهم أكبر من الحقيقة ، فتأثيرهم على المجتمع ككل أقوى من نسبتهم العددية .
- لدى الأقباط : الأمية أقل والتعليم ومتوسط الدخل أكبر كثيراً من المتوسط العام لمصر .
- انتماء وحماس الأقباط للعمود الفرعونى لجذور ثقافية ودينية .
- للأقباط معرفة وإستحسان بالخصوصية الثقافية الإسلامية ولكن العكس غير كاف .

---

* فصل جديد تماما ـ للطبعة الخامسة .

٦
مخاطر ضمور الخصوصية الثقافية للأقباط

فى حفل تسليم جائزة سيمون بوليفار الدولية فى القاعة الكبرى بمبنى منظمة «اليونسكو» فى باريس مساء يوم الاثنين ١٩ أكتوبر عام ١٩٩٨ ، وكان أن نوه مسيو فريديكو مايور المدير العام لليونسكو ، وهو يقدم الجائزة لى أشار إلى مجهوداتى وكتاباتى التى أسهمت ـ ولو بقدر ـ فى استمرار العلاقات الحميمة بين الأقباط والمسلمين فى مصر ، ثم أشار إلى لكتاب «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» تحديداً علاوة على كتب أخرى ، ولذلك شعرت من واجبى ـ عند اصدار هذه الطبعة الخامسة ـ أن أنوه ـ فى المقابل ـ وقد مضى نحو ١٠ سنوات على صدور هذا المؤلف لأول مرة فى يناير ١٩٨٩ ، أن أربط بين المفاهيم التى ذكرت فى هذا الكتاب وقتها وكان لها أثرها الثقافى ، وبين إلقاء الضوء على المتغيرات التى تمت ، بهدف دعم وتقوية أوصال هذه الصلة الحميمة التى اصطلحنا على تسميتها ـ تهذباً وعذوبه ـ بعبارة «الوحدة الوطنية» .

لقد عاش جدودنا ـ مسلمين وأقباط ـ فى كافة القرى والمدن المصرية فى مودة ومعايشة وتآخى نادر المثال ـ متجاوزين أزمنة وأحداثاً قاسية ومتخلفة مرت على مصر كلها ـ ولكن أحداً لم يناقش أو يتعمق لتحليل أسباب وآليات الخلفية الثقافية التى وفرت هذه العلاقات الحميمة الخاصة ، ولعل فكرة الانتماءات التاريخية والجغرافية ـ كما طرحت فى هذا الكتاب ـ منذ ١٠ سنوات ـ كانت بشكل أو بآخر ـ مجرد محاولة للتعرف على الأسباب الثقافية والتاريخية ـ فى عموميتها ـ والتى أدت إلى تواصل وعدم إنقطاع هذه الروابط .

أما وقد جرت مياه كثيرة فى ساحة ونهر الحياة السياسية والثقافية والمجتمعية على الصعيد المحلى والعربى والعالمى ، فقد صرنا فى حاجة إلى طرح إضافى ـ نحاول أن نسطره بسرعة وفى إيجاز ـ فى هذا الفصل الإضافى رقم ٦ ـ فالمناخ الثقافى قد تغير كثيراً : الحرب اللبنانية فى شمال مصر قد انتهت وتركت بصماتها على جميع الأطراف وكلها تحاول مراجعة توجهاتها ووضعت لبنان أولى خطواتها على مسيرة العمران مع المحافظة على كيانها الجغرافى والسياسى دون تمزق أو إعاقة

لمسيرة العمران ويشعرن اللبنانيون أن السلام والعمران هشا لأنه لم يمنع استمرار الحرب فى الجنوب بين حزب الله وإسرائيل . وفى جنوب مصر اشتعلت الحرب الأهلية فى السودان منذ عام ١٩٨٣ ، حتى تدمر اقتصاد السودان وتشرد ، وهاجر خيرة القيادات السياسية والفكرية والاقتصادية إلى خارج الوطن ويعيش حالياً عدة ملايين من خيرة البشر المهاجرين فى أربعة أركان الدنيا ، فقد أفرغ السودان من خيرة أهله ، وفى جهة الغرب تمتد وتتسع رقعة حوادث الارهاب حتى صارت أحداثاً يومية فى الجزائر تدمى قلب أى إنسان ولانجد لها تفسيراً يقبله العقل وفى قلب العالم العربى مفاوضات السلام بين إسرائيل وفلسطين لازالت متعثرة ولم يصل إلى استقرار وسلام بعد ، وعلى الصعيد العالمى ـ فيما يتعلق بعالمنا العربى ـ كانت حرب الخليج عام ١٩٩٠ والتى مزقت الأمة العربية ، إلى أن كانت مؤخراً الغارات الهمجية على مواقع كثيرة فى العراق (فى الأيام الأخيرة قبل شهر رمضان وفى اطار شهر ديسمبر ١٩٩٨) كل ذلك وغيره كثير فى تركيا والأكراد وداخل إسرائيل ، وهبوط سعر البترول . . إلخ ، مما جعل قضية وملف الدراسات الثقافية التى أفرزت هذه الوحدة الوطنية مازال مفتوحاً بهدف الوصول إلى توجه ثقافى نظرى يتفق مع معطيات الأحداث والتى تلقى الضوء على سؤالين هامين ، قد يبدو انهما استفساران نظريان ، ولكنهما تمثلان الركيزة الذهنية لحلول أكثر عمقاً ووضوحاً وهما :

- السؤال الأول : حول العوامل والسبل التى تشكل الوجدان أو «الذهنية» أى النهج للفكر الإنسانى عموماً وفى مصر خصوصاً .
- السؤال الثانى : استفسار جدلى مطروح منذ قرون حول اكتشاف أسباب وآلية حركة التاريخ ، حيث كانت هناك نظريات مختلفة فى هذا الشأن كان أهمها وأحدثها ما طرحه كارل ماركس فى القرن ١٩ لرؤيته أن صراع الطبقات هو محرك التاريخ وصولاً إلى عالم السياسة الأمريكى صموئيل هانتجتون ، والذى طرح بحثا نشره فى مجلة فورن افيرز فى صيف عام ١٩٩٣ بعنوان «صدام الحضارات» ، وهو ملخص لذات التوجه الذى نشره عام ١٩٩٦ تفصيلاً فى كتاب بذات العنوان مع اضافة عبارة «وإعادة صياغة ترتيب الأوضاع فى العالم» والذى يتنبأ فيه بأن الحقبة القادمة ستكون محكومة بالصراع بين الحضارات عند خطوط التماس بينها ، وقد اشعلت هذه النظرية النار فى مواقع كثيرة من العالم وبالذات أدت لزيادة حدة الصدام بين الإسلام والغرب .

هذه الأمور وغيرها قد تعرضت لها ـ فى شىء من التفصيل ـ فى كتابى الذى صدر مؤخراً فى أواخر عام ١٩٩٨ بعنوان «قبول الآخر» بهدف تقديم البديل الذى يطفى نار الحروب الأهلية مشتعلة فى مواقع كثيرة من العالم ، لعل الفكر البشرى قادر على صياغة «نظرية» توصل لتكوين حوار ومعايشة ثم «موزاييك» بين الحضارات . . . !!

على أن ما يهمنا ـ فى هذا الخصوص ـ هو هذا المناخ الثقافى المصاحب لعبارة العولمة Globalism ، فقد أفرز رياحاً وعواصف تهب على مصر ـ وعلى غير مصر ـ بين الحين والآخر ، مما جعل استمرار «الوحدة الوطنية» فى حاجة إلى جرعة اضافية جديدة ، تتجاوز ما جاء فى كتاب «الأعمدة السبعة» ، وما هذا الفصل الجديد إلا محاولة نظرية ثقافية تهدف إلى ما يؤكد التواصل الوطنى القديم بمعايير ومفاهيم وعبارات استجدت على الساحة العالمية ، فقد صارت الشعارات القديمة وحدها غير مقنعة أو كافية لأن العصر تجاوزها .

***

تقول أمثالنا الشعبية إن الخالق العظيم قد «فرّق» الأرزاق فى نور الصباح فرأى كل منا رزق الآخر ، فزمجر وتململ لأنه غير قانع برزقه ، فحتى الثرى والمليونير يطلب المزيد ، أما «تفريق» أى توزيع «العقول» فكان ليلاً ، لم ير أى منا إلا عقله ـ وارتاح إليه ـ حتى توهم ـ أى فرد ـ مهما كان ساذجاً أو بذكاء محدود ـ أن رؤيته ووجهة نظره هى الأصح وذلك عند طرح أى قضية أو أمر شخصى أو عام .

ولذا فالسؤال يفرض نفسه وهو ما هى العوامل التى يرسخ فى الوجدان هذا «النهج الذهنى» إذ هو الأساس لكل قناعة برأى أو وجهة نظر ، وهذا الأمر يسميه صديقى المفكر والزعيم السودانى المناضل الصادق المهدى بعبارة «الذهنية» ، ومن ثم نتساءل لماذا تشكلت هذه الذهنية بهذا الاختلاف والتباين بين البشر ، حتى يقال انه مثلما أن اشكال وجوهنا نادراً ما تتطابق ، فإن المنطق يدعونا لقبول ان «الذهنيات» ايضاً مختلفة متباينة توحى بأن لكل فرد ذهنيته الخاصة وهو أمر يوحى بأنها فى مجملها وكأنها فى حالة «فوضى» أو كما يقول علماء الطبيعة عند دراسة قوانين الحركة بأنها تمر بحالة «فوضى تخضع لقوانين . . .»!!

والحقيقة أن «الذهنية» لأى فرد هى نتاج عوامل كثيرة جداً ، بعضها طبيعى وراثى وهو أمر يشغل حالياً ـ ومنذ سنوات قليلة ـ علماء الهندسة الوراثية ، وهى

أمور مازالت تحت مطرقة الدراسات المعملية والنظرية حيث توجد مؤشرات وبوادر توحى بأن لبعض «الجينات» تأثير أو ارتباط بالقدرات الذهنية أو الشخصية ولكن المؤكد - والمتعارف عليه - إلى الآن - هو أن «الذهنية» تتأثر بالمناخ الثقافى للنشأة فى الأسرة من تعليم وخبرات مكتسبة فى مضمار الحياة فى مجملها من الانتماء إلى الدين أو الثقافة المعاصرة أو الوطن الذى يعيش فيه أى منا .

ومن هنا فإن التباين فى التركيبة الشخصية للبشر ليس بهذه الفوضى أو «العشوائية» ، ولذا ظهرت - فى الآونة الأخيرة - عبارة «الخصوصيات الثقافية» لعشرات الألوف من المجموعات البشرية فى كافة انحاء العالم ، وهكذا تظهر مقولات لها قبول عام مثل : ان الانجليزى كلمته «دوغرى» ومواعيده منضبطه أو ان الألمانى دقيق فى اتخاذ قراره إلى حد التزمت ، والفرنسى رومانسى رقيق المشاعر ، والمصرى طيب بشوش وصبور وغيرها كثير من عبارات اكتسبت قبولاً عاماً نتيجة المعاشرة أو السمعة العامة تكسب الشعوب والحضارات صفات «جماعية» .

وفى اطار الوطن الواحد ، توجد خصوصيات ثقافية مختلفة ، وإذ أخذنا مصر - كمثال - يقال ان لأهل الوجه البحرى أو الدلتا خصوصيات ثقافية فهم أكثر خبثا ومكراً «ويلبدون فى الذرة» بخلاف أهل الصعيد والذين يتسمون بالعند والمكابرة تصل إلى الصدام والثأر احياناً ، ويختلف أهل الريف عن أهل الحضر بل ويعتز أهالى منطقة «بولاق» بالقاهرة مثلا بأنهم أهل شهامة ونجوه وبالذات فيما يتعلق بقضايا شرف «العذراوات» وهم فى ذلك يختلفون عن أهل الزمالك حيث المفاهيم والقيم هى احترام خصوصية الأفراد دون التدخل فى شئونهم الشخصية . . . !!

ورغم مرور ما يزيد على خمسة آلاف سنة عندما قام الملك مينا بتوحيد الوجه القبلى بالوجه البحرى فإننا لازلنا نلمس اختلاف فى الزى واللغة واللهجة .

وبذات الفهم للخصوصية الثقافية الجغرافية ، عرِّفت اللغة القبطية - تاريخياً - باسماء مناطق مثل أخميم أو الفيوم أو غيرها مما يؤكد وجود خصوصيات ثقافية للمجموعات البشرية داخل الوطن الواحد منذ مئات السنين ، وإن كانت ثورة الاتصالات فى العصور الحديثة سوف تؤدى إلى تخفيف حدة الاختلافات بين الخصوصيات الثقافية .

***

سبق أن ذكرنا فى الفصل الخامس ، بأن لكل منا انتماءات تتراكم لديه عبر رحلة الحياة ، بعضها متوارث وبعضها مكتسب ، والمشاهد انه كلما كانت الدولة متقدمة متحضرة ، قل التزمت والتعصب للانتماءات القبلية أو الدينية أو الجغرافية المتوارثة ، لأن النسيج الوطنى يصير أكثر تماسكاً إذ يجمعه الاطار الثقافى الوطنى العام ، وفى تلك الدول المتحضرة يصبح الانتماء الوطنى أسبق من الانتماء الدينى ، وهو أمر غير متوافر فى دول وشعوب أقل نمواً فى سلم الحضارة الإنسانية .

***

ولما كنا فى مصر ـ وبشكل عام ـ شعب متدين ، وكل منا متسمك بعقيدته مع توافر الاحترام والمودة للأديان والعقائد الأخرى ، لذلك ، لازالت هناك ـ لكل من الأقباط والمسلمين ـ «خصوصية ثقافية» ، تجعل هناك فروقاً مهما كانت بسيطة وغير ملحوظة ، إلا أنها موجودة على أى حال ، وصار التوجه الأحدث ـ عند الحوار فى المجالات الدولية عن أهمية الثقافة فى حياتنا ـ هو المحافظة على الخصوصيات الثقافية للمجموعات البشرية المختلفة ، وقد تمت الإشارة إلى هذه القضية فى تقرير «اللجنة العالمية للثقافة والتنمية» والتى رأسها خافيير بيريز دى كويار الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة وعنوان التقرير هو «التنوع البشرى الخلاق» وقد قام المجلس الأعلى للثقافة بترجمته للعربية عام ١٩٩٧ .

إننى أدرك ان طرح هذا الأمر سوف يثير بعض الجدل خصوصاً لدى كثرة من المصريين حيث القناعة بأن المصريين جميعاً نسيج واحد وفكر واحد ولغة واحدة ومن ثم ثقافة واحدة ، ففى الحقبة الأخيرة ظللنا نردد هذه العبارة مراراً وتكراراً لكى نطرد احتمال التفكك ، ومن بين ذلك رفض كثيرين لعبارة «وحدة عنصرى الأمة» التى اطلقها فكر وحركة الشارع إبان ثورة عام ١٩١٩ ، فقد صارت مرفوضة الآن واطلقنا بدلاً منها عبارة اننا «عنصر واحد» ، وهى مقولة تتفق مع عبارة رددتها كثيراً عبر صفحات هذا الكتاب ـ هى أن مصر صارت بوتقة انصهار كافة السلالات والاعراق التى قدمت إليها غزوا أو فتحا أو لجوءاً ، فالواقع المصرى المعاش من تباين لون البشرة يؤكد أن مصر قد استوعبت بالفعل كافة الاعراق والسلالات : قديماً مثل الهكسوس والنوبيين والليبيين ، وحديثا مثل الاتراك والشركس والشيشان والأباظيه والشوام ولكن ذلك لا يمنع من أن هناك خصوصية ثقافية نتيجة التراث الدينى الذى يتكون فى السنوات الأولى من تكوين الطفل داخل الأسرة المتدينة ، فيرضع لبن الانتماء الدينى حتى تصبح النصوص الدينية والعقائدية من المرتكزات العقلية

الأساسية ، ومع السنوات تتراكم إلى أن تصبح منهجا يحدد سلوك الإنسان وتصرفاته أى تكون جزءً من «الذهنية الجماعية» .

فهناك على سبيل المثال التماسك الأسرى داخل العائلات القبطية بسبب القيود الشديدة على الطلاق ويبدو تأثير هذا العامل عند المقارنة المقابلة بامكانية الطلاق للرجل بالإرادة المنفردة فضلاً عن حق الرجل فى تعدد الزوجات ، ولسنا هنا فى مجال مفاضلة هذه على تلك ، فكل نظام - ولاشك - مميزاته وسلبياته وهو أمر نلمسه فى مشاهداتنا اليومية لحركة المجتمع ، ولكن مارغبت أن أوضحه بصراحة ، بأن نمط العلاقة الزوجية المختلف ، يؤهل لخصوصية ثقافية من سنوات التكوين الأولى للطفل .

وفى اطار العقيدة والنصوص الدينية نلمس كيف أن بعض النصوص التراثية فى المسيحية القبطية ، تولد لدى المتدين - إبن كنيسة الشهداء - الاستمتاع وقبول وتحمل بعض الضيق بسبب الانتماء الدينى لأن ذلك يعتبر سبيلاً أو جسراً يوصله إلى «الأبدية» أى ملكوت السموات فى الحياة الأخرى وربما يكون فى ذلك ما يفسر أن الأقباط - فى مجموعهم - يمكن وصفهم بأنهم جماعة «مريحة» بالنسبة لأى حاكم فيقبلون الشدائد بصبر وترحاب ، ولذا فإن النضال والاحتجاج والتزمر أو المقاومة بالسلاح ليست من صفاتهم ويؤثرون على كل ذلك «الصلاة والصوم» وهما أقوى الأسلحة لمقاومة الظلم ، ولذلك لم يتم قهرهم أو القضاء عليهم ، ومن الطبيعى أن يتبع ذلك نوع من السلبية وسياسة «المشى جانب الحيط» أى البعد عن الأضواء وأن «السلطان من لا يعرف السلطان» وفى ذات الاطار ، فإن العقيدة المرتبطة بالتثليث والتوحيد وتلك المتعلقة بأسرار الكنيسة السبعة ، وبوجود كهنوت «واعتراف» ومغفرة وتوبة وما إليها ، كلها تكون نهجاً ذهنياً مركباً Sofisticated or compound وبالتدريب يتعود استيعاب تركيبات وتوجهات ذهنية قد لا تكون واضحة أو صريحة أو متوافقة مع بعضها البعض ، وكلها تصب فى قنوات «الخصوصية الثقافية» .

ومن الناحية الاقتصادية ، فإن كثرة من الاقباط ينتمون إلى الطبقة الوسطى - وهذه الطبقة فى مصر - مسلمين وأقباط - هى الأكثر تمسكاً بالقيم بشكل عام ، وهو الأمرالذى كان أحد أهم أسباب تماسك المجتمع المصرى واستمراريته ، وهذه الطبقة أيضاً - مسلمين وأقباط - هى الأكثر تمسكاً بالانتماء والتماسك الأسرى ، والبعد عن المشاكل ولذلك فإن نسبة الأقباط بين المجرمين ونزلاء السجون قليلة وأحياناً نادرة .

وربما تكون نسبة الأقباط بين شعب مصر موضع خلاف واجتهادات تتراوح بين ٧٪ إلى ١٢٪ ، وهو أمر غير هام ولا يناقش بحده ، ولكن الملاحظ والمؤكد هو نسبتهم فى الطبقة الوسطى أعلى ، والمشاهد أيضا أن نسبتهم من الفقراء تقل كثيراً عن النسبة العددية العامة لتواجدهم فى المجتمع .

وملاحظ أيضاً ان العائلة القبطية تناضل أى تستغنى عن بعض الكماليات أو يعمل رب الأسرة وظيفة أخرى ، من أجل تعليم الأولاد والبنات ، ولذا فإن الأمية بين الأقباط أقل انتشاراً وإذا كان المتوسط العام لها نحو ٤٠٪ على مستوى مصر كلها ، فقد ينخفض هذا الرقم إلى نحو ٥٪ مثلاً ، وغالباً ما تجد الأسرة القبطية المتوسطة أو الفقيرة «مستورة» وتتبع مقولة «وعلى قدر لحافك مد رجليك» أى تكتفى بما قسم لها الله من رزق ، ومن هنا يتحقق بعض طموحها من خلال التركيز على التفوق فى التعليم بالنسبة للأولاد والبنات ولذا فإن نسبتهم بين طلاب الجامعة (وكان ذلك فى السابق بين أساتذة الجامعة ايضاً) أعلى كثيراً عما هو متداول ومعروف من النسبة العددية الفعلية للاقباط وهو أمر خلافى ، وإن كان هناك شبه اعتراف رسمى بأن الأقباط يصلون إلى نحو ١٠٪ من التعداد الكلى للسكان .

وربما يكون القارئ قد لاحظ خلال عرض «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» ان غالبية الأقباط أكثر حماساً وتمسكاً بالعمود الفرعونى ، ذلك لأن الكثير من الممارسات الدينية القبطية لها جذور أى إمتداد تاريخى يعود للعصر الفرعونى مثل فكرة وجود طبقة من رجال الدين بمسمى «الكهنة» ، ووجود أعياد تمتد إلى الحقبة الفرعونية مثل اعياد الغطاس وشم النسيم والنيروز وغيرها ولازال الفلاح المصرى يستخدم الأشهر القبطية والتى لها امتداد فرعونى ، ومعظم الموسيقى وألحان الكنيسة لها جذور وامتداد فرعونى . . وفى المقابل فإن غالبية المسلمون يشعرون أن انتماء مصر إلى العروبة هو جزء متمم للعقيدة الإسلامية لارتباط اللغة العربية بالنصوص الإسلامية .

وهذه وتلك جزء من الخصوصيات الثقافية للمجموعات البشرية وهى قضية فكرية ثقافية مثارة عالمياً فى الحقبة الحالية ولكننا فى مصر ومن فرط تمسكنا بأهداب الوحدة الوطنية ، فإننا نرفض طرح ومناقشة هذا الأمر ، ولكن النظرة المستقبلية تؤثر المناقشة العقلية والتى ستؤكد وستجعلنا نرسخ مفاهيم وقواسم الخصوصيات الثقافية المشتركة ومن ثم تزداد فاعلية «المواطنة» وتتفوق على الانتماء

الدينى فلازال الزواج فى مصر ـ وسيظل لمدة طويلة قادمة ـ على أساس وحدة الدين بين الزوجين ، وربما يضمر تأثير الدين على المجتمع تدريجياً ولعلنا نصل بعد احقاب طويلة لأن يكون أساس المعاملة هو الخواص الشخصية للإنسان وقدراته ومهاراته وإبداعاته دون اعتبار للانتماء الدينى ، فأمامنا شوط طويل حتى تصل إلى اوضاع الأمم المتحضرة خصوصاً مع ازدياد نفوذ الأصوليات الدينية فى مجملها ، ليس فى الوطن العربى فحسب وإنما فى الشرق الأقصى حيث البوذية والكنفوشية ، وصولاً إلى أفريقيا حتى الديانات القديمة الموروثة .

***

وفى مجال خصوصية الواقع المصرى ، لاحظت ـ كما لابد أن لاحظ كثيرون ـ أن اقباط مصر مدروكون ومتفاعلون بالخصوصية الثقافية الإسلامية ـ كما هى ممارسة فى مصر ـ فما من قبطى إلا ويعرف آيات من القرآن والعديد من الأحاديث ، ويصل الأمر لأن يستخدمها القبطى البسيط فى أحاديثه اليومية مثل «إن الدين المعاملة» و«أن النظافة من الإيمان» وأن «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» و«أن لا اكراه فى الدين» وما إليها ، وهذا الأمر من الأسباب التى أوجدت تفهماً عاماً بين الأقباط للإسلام عموماً ، لخصوصية الإسلام فى مصر ، فهم يلمسون الود والتعاون والحب من جيرانهم فى السكن وزملائهم فى العمل ولكن ما توارثه الأجيال التى تأثرت بمفاهيم ثورة عام ١٩١٩ ، يختفى تدريجياً بحكم التقدم فى السن ورحيل هذا الجيل ، ونشأت أجيال جديدة غير مقنعة بهذه المفاهيم أصلاً .

وتلاحظ ايضاً ـ وفى السنوات الأخيرة بالذات منذ أوائل السبعينيات ـ أن الخصوصية الثقافية القبطية لم يعد لها وجود لا فى التعليم أو فى الإعلام أو داخل الأسرة ، وأوجد ذلك «عزلة» ثقافية لدى الأقباط ، وكان رد الفعل الطبيعى والمسالم ، هو أن تحولت «الكنيسة القبطية» من أن تكون مكان للعبادة فحسب لأن تكون «مجتمع» ، يحتوى الإنسان فى كافة أمور الحياة ، خصوصاً الشباب ، ففى الكنيسة ومعها تكون الصلاة والثقافة والمفاهيم والتعليم والاجتماعات والأخوة والأصدقاء والرحلات المشتركة بل صارت هى السبيل العملى لإختيار شريك الحياة وصولاً إلى الزواج .

وتحول كاهن الكنيسة من أن يكون راعياً فى الجوانب الروحية والدينية ، لأن يكون هو المستشار للأسرة والشاب (وأحياناً الاطفال) فى كافة ما يتعرض له المرء من مشاكل فى الحياة ، وقد أدى كل ذلك إلى أن صار رجال الأكليروس هم قادة

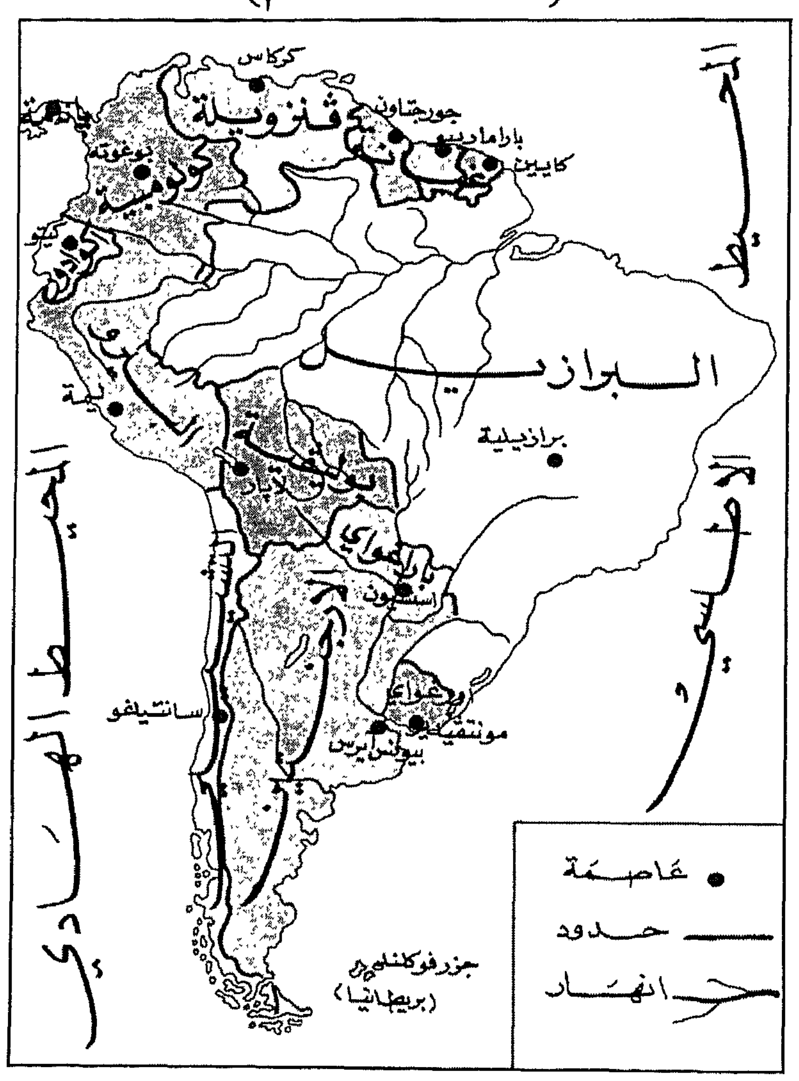
الأقباط بالفعل وتدريجياً ضمر دور «الأراخة» (أراخة جمع أرخن أو أرخى أو أرشى وتعنى الرئيس أو كبير القوم) أو ما كانوا يحملون لقب البكوات والباشوات بلغة ما قبل عام ١٩٥٢ أو دور المهنيون والمثقفون والأثرياء فى مرحلة ما بعد عام ١٩٥٢ حتى الآن .

مجمل ما رغبت فى أن اطرحه سريعاً ، هو أن الواقع الثقافى فى المجتمع المصرى قد تغير كثيراً فى العشرين سنة الأخيرة كما تغير الواقع السياسى فى المنطقة كثيراً ، وكذلك على مستوى العالم وصرنا فى حاجة إلى فحص متعمق لنصل إلى قرارات وتوجهات أكثر فاعلية لأن الارتكاز على التراث الماضى الرائع لم يعد وحده كافياً ، وربما تجئ فرصة لطرح فكرى آخر فى مؤلف آخر .



الفصل السابع

سيمون بوليفار محرر أمريكا اللاتينية
(١٧٨٣ - ١٨٣٠م)





من هو سيمون بوليفار وصفاته الشخصية

ربما كان سيمون بوليفار من أقدم - إن لم يكن أقدم - قيادات حركات «التحرر الوطنى» فى العالم ، قد بدأ نضاله فى أوائل القرن التاسع عشر فى أعقاب المناخ الثقافى العام الذى إفرزته الثورة الفرنسية ، وصارت مفاهيم : الحرية - المساواة - الآخاء - وهى شعارات الثورة - وقودا اشعل النار والنور معا ، وأمتدت المشاعر الثورة إلى الولايات المتحدة شمالاً وإلى أمريكا اللاتينية جنوباً .

ينتمى سيمون بوليفار إلى أسرة عريقة فى دولة فينزويلا فقد ولد فى ٢٤ يولية عام ١٧٨٣ بمدينة كاراكاس لأسره تعود جذورها إلى منطقة الباسك فى أسبانيا ، ولكنه - وفى سن مبكر - توفى والده وكان عمره سنتان ونصف السنة ، ولذا كان تعليمه فى السنوات الأولى من خلال مدرسين خصوصيين ، أثروا على تكوينه ووجدانه الثقافى وقد رافقه «سيمون رودريجز» أستاذه القريب إلى نفسه ، فى رحلته التعليمية إلى أوروبا فى سن المراهقة فهكذا كان نمط الحياة وقتها للأثرياء والتحق باكاديمية سان فرناندو فى مدريد ثم المدرسة العسكرية فى سوريز بجنوب فرنسا ، ومارس هوايات ؛ المبارزة وركوب الخيل والرقص ، وخلال هذه الرحلة ، ارتبط عاطفياً وتزوج فى مدريد فى ٢٦ مايو ١٨٠٢ (أى فى سن ١٩ عاماً) فعائد إلى موطن رأسه بمدينة كراكاس (عاصمة فينزويلا) ولكنه صدم فقد ماتت زوجته سريعاً بعد ثمانية أشهر من الزواج فاضطر للقيام برحلة ترفيهية ثانية ، وغادر أمريكا اللاتينية فى أكتوبر عام ١٨٠٣ لكى يبحث عن السلوى والعزاء ، غير أن الصدمة العاطفية بفقد زوجته فى سن مبكر وبارشاد معلمه الذى رافقه طوال سنوات الطفولة والشباب سيمون رودريجز كما سبق وذكرناه ، جعلت عواطفه تنضج فى سن مبكر وسافر كنوع من الحج إلى التل المقدس المسمى جبل مونتى ساكرو فى روما حيث تعهد وأقسم على أن يسخر جهده وماله وعلمه من أجل تحرير بلاده من كل من الاستعمار الأسبانى والرق .

واستمرت اقامته فى بلدان أوروبية مختلفة ثم رغب فى التعرف على الحياة والثقافة فى الولايات المتحدة الأمريكية إلى أن عاد إلى كراكاس مملوء حماساً وفكراً ورغبة فى النضال فى يونيو عام ١٨٠٧ وهو ابن ٢٤ ربيعاً ، متأثراً بما رآه فى أوروبا وأمريكا ، ولكنه كان ايضاً مدركاً للفارق الثقافى والحضارى بين أوروبا والتى كانت قد خرجت بالفعل من حقبة العصور الوسطى إلى عصر النهضة ثم الثورة الصناعية ، وبين بلاده فى أمريكا اللاتينية وهى بعد مزيج من حضارات مختلفة لم تنصهر بعد ولم يمض أكثر من ٣٠٠ سنة على بداية اكتشافها بواسطة الأمبراطورية الأسبانية التى عاملتها كمستعمرات يملكها الملك ومكونه من مزيج طبقى معقد ، يتربع على القمة الأسبانيون المستعمرون ثم الأسبان الذى ولدوا على أرض المستعمرات ويسمونهم الكرويل Creoles ثم الملونون Mulatres وهم خليط من أجناس بدرجات مختلفة ، ويليهم الهنود الأحرار فالهنود العبيد وفى أدنى القاعدة الزنوج الأحرار فالزنوج العبيد .

وفى عام ١٨١٠ سافر بوليفار كمبعوث دبلوماسى إلى بريطانيا العظمى على رأس وفد فينزويلى ، فاحتك بالثقافة البريطانية وتعرف - عن قرب - على أساليب الحياة السياسية البريطانية فى تلك الحقبة ، ومن وقتها عكف على القراءة فى كافة ألوان الفكر وظلت القراءة أهم متعة له حتى خلال سنوات النضال فى المعارك العسكرية فأخذت صفاته الشخصية تتغير من الرفاهية وحياة الأثرياء إلى التقشف وتحمل المشقة ، إلى أن كانت أهم مصادر سعادته فى أن يساهم بثروته الكبيرة التى ورثها من أجل إسعاد الفقراء والمحرومين ، فتوافرت له أفكار «الاشتراكية» ذات نكهة إنسانية فى بدارى الوقت .

ورغم هذه المشاعر الرقيقة - وعندما دخل فى معمعات الصراع المسلح - صارت قراراته أكثر صرامة وحدة ، ففى بعض خطاباته - مثلاً - جاءت عبارة : «ينبغى اتخاذ أشد الاجراءات الصارمة فى مواجهة الأعداء ، يستوى فى ذلك أفراد العدو الأسبانى ، أو المواطن الخائن ، ذلك أن جمهوريتنا لن يضيرها تدمير أسبانى مخلص للتاج أو فيزويلى عدو لبلده» .

وكان بوليفار شديد الاقتناع بأن قيام الجمهورية يعتمد أول ما يعتمد على قادة ذوى مبادئ وقيم إنسانية وفى مقدمتها العدالة والانصاف باعتبارهما الضمان المقنع لكل المواطنين .

النضال والحروب والرحيل المبكر:

وأود ـ في إيجاز ـ أن ألقى بعض الأضواء على كفاحه من أجل الاستقلال ، والذى بدأ عام ١٨١٠ عندما تعرضت أسبانيا إلى الغزو الفرنسى بقيادة «نابليون بونابرت» وانتهزت فينزويلا الفرصة ، وثار الشعب ضد الحاكم الأسبانى لبلادهم ، واشترك بوليفار مع آخرين فى تأليف «الجمعية الوطنية» واتفقوا على اعلان استقلال فينزويلا فى ٥ يوليو ١٨١١ .

وكان قد احتاج كاركاس زلزال شرس فى يوليو عام ١٨١٢ ، ذهب ضحيته نحو عشرة آلاف نسمة ، وكان رد فعل بوليفار مدهشاً ومثيراً ، ويدل على قدراته القيادية فى سن مبكر ، إذ لم يكن قد تجاوز ٢٩ ربيعاً ، فقد اعتلى حكام البيوت المتهدمة وصاح «إذا كانت الطبيعة تعترض طريقتنا ، فإننا سنكافحها حتى نحملها على طاعتنا والانقياد إلينا» .!!

وتنتهى هذه الثورة أو «الفوره» الأولى بالفشل ويتمكن القائد الأسبانى مونتفيردى من استعادة السلطة ، وكان أول قرار له هو مصادرة أملاك بوليفار ، مما دفعه إلى الرحيل بالبحر إلى «قرطاجة» فى كولومبيا الدولة المجاورة ، واستطاع أن يجمع حوله نحو ٥٠٠ شخص . واستطاع ـ من خلال حماسه وتعبئته للجماهير ـ وبهذه القوة الصغيرة ـ أن يحرز انتصارات عسكرية متتالية ودخل كاركاس قائداً منتصراً مظفراً وحمله الناس على أكتافهم وهتفوا له «بطل التحرير» ومن وقتها إلى رجل وحتى الآن ، ظل هذا اللقب «محرر أمريكا اللاتينية» ملازما له ، ولم يستطع إنسان آخر أن ينتزعه منه .

غير أن ظروف المجتمع لم تكن ناضجة بعد لاستكمال الثورة وتثبيت أقدامها ، ولا لتكوين مجتمع مؤسسات ، كما كان الحال فى دول أوروبا التى كانت فى سبيلها إلى التشكيل ديموقراطياً ، وكما تقول فى أمثالنا الشعبية فى مصر «فرحة ما تمت» فقد اختلف اهالى فينزويلا ، حتى وصل بهم الأمر إلى صراعات أهلية مسلحة أدت إلى تمزق جيش سيمون بوليفار ذاته وإضطر لأن ينسحب مرة أخرى إلى قرطاجة ، وجاءت أنباء بأن جيشاً أسبانياً كبيراً تحت قيادة الجنرال موريو فى طريقها إلى بوليفار حيثما وجد ـ فى أى من دول أمريكا اللاتينية ـ والتى صارت سمعة قد شملتها كلها ، ولم يكن من سبيل أمام «المحرر» إلا أن يغادر أمريكا اللاتينية بأكملها وتوجه إلى «جامايكا» ، حيث كتب رسالته الشهيرة التى يحلل

فيها الأوضاع السياسية والصعوبات المجتمعة فى أمريكا اللاتينية ، واعتبرت هذه الرسالة وثيقة تاريخية من أدبيات بوليفار وتعرف باسم «رسالة جامايكا» .

وميزة بوليفار الكبرى والتى اكسبته هذه الشهرة التى جعلت منه «مناضلا» هى عدم اليأس فمن جامايكا قرر العودة إلى قرية صغيرة تسمى «انجوستورا» ، وأعلن عن رغبته فى تكوين جيش يقاوم وينازل الجنرال موريو الأسبانى ، وبالفعل - ونتيجة لأن سمعة بوليفار كمحرر لأمريكا اللاتينية قد عبرت الأطلنطى - فقد تقدم إليه مئات من العسكريين المحترفين الأوروبيين يقدمون خدماتهم ، وتكون جيش هائل من أهالى فينزويلا وأمريكا وأوروبا ، مما حفز زعيم فرسان سهول فينزويلا المدعو بايث Paez أن ينضم إلى بوليفار بل ونادى ببوليفار قائداً وزعيماً لهذا الجيش «الغريب» لأنه مكون من أجناس متعددة لا يجمعها إلا الحب والاعجاب والثقة والإلتفاف حول شخصية سيمون بوليفار والذى أصبح من وقتها «أسطورة» .

وفى المواجهة العسكرية بين بوليفار وجيشه المتعدد الأجناس عام ١٨١٨ مع الجنرال موريو فى معركة لابورتا La Puerta ، ولم يكن عجيباً - رغم حماس رجال بوليفار - ان يخسر المعركة عسكرياً ، ومرة أخرى لا ييأس القائد العظيم ويفكر فى مشروع أكبر وهو إنشاء «جمهورية كولومبيا الكبرى» من فينزويلا وكولومبيا .

وهكذا يجمع رجاله وماله وعتاده ويجهز للزحف الكبير على كولومبيا فى شتاء عام ١٨١٩ ، وكانت الشتاء قاسياً والعتاد والمؤن قليلة ، ولكنه ورجاله تحملوا ما تحملوا ، فقد كان - وهو القائد والزعيم - مثلهم تماماً يتحمل الجوع والبرد لا يميزه عنهم أى شىء ، حتى وصل إلى جبال الأنديز فى غرب كولومبيا ، وقاد مسيرة طويلة Long March (لا تقارن بالمسيرة الطويلة التى قطعها ماوتسى تونج عندما قام بتحرير الصين فى الأربعينات من هذا القرن) ، وفى ٧ أغسطس عام ١٨١٩ ، دخل بوليفار مدينة «بوجوتا» دخول المنتصرين ، وبعد أن هرب نائب الملك الأسبانى ، يعلن بوليفار تأسيس «جمهورية كولومبيا الكبرى» ، ومنها حاول تنظيم صفوفه وجيشه ليحرر موطنه الأصلى «فينزويلا» بالزحف إلى كراكاس ، وطلب الجنرال الأسبانى موريو معونة ودعما من ملك أسبانيا ، والذى أرسل له قوات اضافية ، ولكن قائد هذه القوة الاضافية يعجب بشخصية بوليفار ، ويرفض الانضمام إلى الجيش الأسبانى ، فاختل التوازن العسكرى واضطر موريو إلى عقد تفاوض مع بوليفار .

وفى قرية سانتا آنا Santa Anna ، كان اللقاء بين القائدين على نمط فرنسان العصور الوسطى ، إذ بهما يتعانقان كما لو كانا صديقين حميميين ، وتنتهى الأحداث مثل الأساطير ، وفى ٢٤ يونيو ١٨٢١ يدخل بوليفار عاصمة فينزويلا من جديد وسط مظاهر فرح الشعب وتهليله للزعيم .

ولا يكتفى بوليفار بهذا الانتصار ، إذ لا تمر عدة أشهر حتى يفكر فى حرب تحريرية جديدة ، وفى مارس ١٨٢٢ يجهز مع مساعده القائد العسكرى العظيم سوكرى Sucre حملة لتحرير مدينة «كيتو» عاصمة «أكوادور» وفى ٢٤ مايو ١٨٢٢ ، تدخل جيوش بوليفار إلى هذه المدينة كيتو ويعلن انضمام أكوادور إلى جمهورية كولومبيا الكبرى .

وتستمر انتصارات بوليفار وتستقبله مستعمرة بيرو (والتى صارت دولة مستقلة بعد ذلك) وفى ٩ ديسمبر عام ١٨٢٤ ، يحقق مساعدة سوكرى أعظم انتصاراته على جيوش اسبانيا فى معركة «أيا كوتشر» ، وعندما تصل اخبارها إلى بوليفار يصيح فى حماس «النصر . . النصر . .» .

ولأن ظروف المجتمع لم تكن قد نضجت بعد ـ كما سبق أن ذكرنا ـ فإن الانتصارات العظيمة والملاحقة التى حققها بوليفار لم يكتب لها النجاح ، فقد عمت الفوضى ـ ربما نتيجة التخلف ـ بعض المناطق المحررة فى الشمال ، ومن عجب أن تلك المناطق طالبت بالاستقلال عن «جمهورة كولومبيا الكبرى ، فتحول الحماس والزهو بالانتصار عند بوليفار إلى قنوط وإحباط ، ويقول قوله المشهور : «يبدو أننى كنت أحرث فى البحر . .!» .

وتبدأ سنوات النهاية المريرة ، ويعود بوليفار إلى «بوجوتا» وهو مريض منهك القوى مهيض الجناح ، وتمت محاولة اغتياله عام ١٨٢٨ ، ولكنه يهرب من النافذة ويهيم فى الفيافى ، فيفاجأ بخبر اغتيال الجنرال سوكرى مساعده الأيمن وبطل معاركه العسكرية الكبرى ويشعر بوليفار باقتراب نهايته ويكتب وصيته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة فى ١٧ ديسمبر عام ١٨٣٠ .

وبهذه الفقرات القصيرة ، أنهى ملحمة نضال مواطن ولد ثريا ، ومات فقيرا ، عاش سنوات قليلة كلها متاعب ومحاولات لا تعرف اليأس من أجل استقلال ست دول فى شمال أمريكا اللاتينية ، ولو نجحت محاولاته وتكونت كولومبيا الكبرى لكان تاريخ العالم قد تغير .

□ □ □

الفصل الثامن

جائزة سيمون بوليفار الدولية (١٩٨٣ - ١٩٩٨)



جائزة سيمون بوليفار الدولية

عقب عودتى من رحلة باريس واستلام الجائزة تفضل السفير فتحى صالح - وهو أستاذ الالكترونيات بهندسة القاهرة وسفير مصر فى اليونسكو - بدعوتى إلى حفل عشاء بمنزله تحية لى وأسرتى التى كانت مرافقة لى فى هذه الرحلة ، ايفلين رياض الكاتبة الصحفية زوجتى وإبنى المهندس هانى ، وإبنتى مارى وقد حضرت من تورنتو بكندا خصيصاً ، بينما إبنتى الكبرى مشيرة - وهى مقيمه منذ ١٧ عاماً فى مدينة وندسور بولاية أونتاريو بكندا ، لم تستطع الحضور لالتزاماتها العائلية لدراسة بناتها سارة ومونيكا ، وكان هذا الحفل فى الشقة الفاخرة للدكتور فتحى صالح المطلة على نهر السين فى باريس ، وقد قامت بالترحيب بنا زوجته الفاضلة د . نبيلة ابنة استاذنا المرحوم د . حسن اسماعيل رئيس جامعة القاهرة ووزير الثقافة فى مرحلة السبعينات وكان حاضرا الحفلة الأخ العزيز د . مفيد شهاب وزير التعليم العالى والسفير على ماهر سفير مصر فى فرنسا .

وعندما عدت إلى القاهرة غمرنى شعب مصر بمسلسل من حفلات التكريم ممثلاً فى عشرات الجمعيات الأهلية على أنواعها - ولولا الاحساس بأن فى ذلك لذعا من التباهى والتفاخر - لذكرتها كلها ، فقد طوقت هذه الجماعات عنقى بمشاعر فياضة ، جاءت فى وقتها - أى فى هذه المرحلة من العمر - والتى أسميتها «سنوات جنى الثمار» وكان من أهمها حفلة اقامتها أسرة وادى النيل لتعبر عن ارتباطى التاريخى بشعب السودان الشقيق ثم احتفال جمعية المراسلين الأجانب بمصر ، والذين تفضلوا بإضافة فضل على فضلهم بتكريمى ، فقد منحونى درعا يحمل اسمى وتحته عبارة هزت مشاعرتى : «فخر مصر» "The Pride of Egypt-1998" وفى الجانب الآخر لم يصلنى - ولو برقية - من المسئولين الكبار فى مصر ، وكأنهم لا يقرأون الصحف ، فشعرت أننى بالفعل مناضل وعلى الخط الصحيح . !!

أيا ما يكن من امر - وفى اطار الحديث عن جائزة سيمون بوليفار - كان السؤال الرئيسى الذى يُطرح علىّ باستمرار هو أيهما أهم : جائزة سيمون بوليفار أم جائزة : نوبل ، فكلاهما جوائز دولية وربما كان أشهر الجوائز الدولية حالياً ، ومن ثم كانت المقارنة .

وفى هذا الاطار ـ رغبت فى أن أسجل فى سطور ـ وفى ايجاز ، أوجه المناظرة وأوجه المفارقة :

١ ـ ولد الفريد نوبل فى الطرف الشمالى الفقير لمدينة استكهولم ـ عاصمة السويد ـ عام ١٨٣٣ أى بعد ٣ سنوات من رحيل سيمون بوليفار والذى ولد ثرياً عام ١٧٨٣ ومات فقيراً عام ١٨٣٠ ، وفى دولة فينزويلا الفقيرة والمستعمرة الأسبانية ، وتأثر كل منهما بأوضاع المجتمع والمشاكل التى ولد وعاش فيها .

٢ ـ عبر مسيرة الفريد نوبل والتى أمتدت إلى ٦٣ عاماً (مات فى ١٠ ديسمبر عام ١٨٩٦) اشتغل بابتكار المواد المفرقعة وفى مقدمتها الديناميت من النتروجلسرين وكون من ذلك ثروة هائلة ، وصدم عاطفياً فى حياته ، فلم يتزوج وينجب ، فترك وصية بأن تخصص معظم ثروته لخمس لجوائز سنوية تخلد اسمه فى مجالات : الطبيعة ـ الكيميا ـ الطب ـ الأدب ـ السلام ـ وقد منحت الجائزة أو الجوائز لأول مرة يوم ١٠ ديسمبر عام ١٩٠١ أى بعد خمس سنوات على رحيله ، ولذا فإن جائزة الفريد نوبل ـ من أقدم ـ إن لم تكن أقدم جوائز فى العالم وهذا هو سر شهرتها العالمية ، خصوصاً وقد تبنت الدولة الجائزة والتى يسلمها ملك السويد بنفسه فى حفل يعتبر ـ وكأنه ألف ليلة وليلة ـ طوال القرن العشرين ، وقيمة الجائزة هائلة تقارب المليون دولار أمريكى .

٣ ـ وعلى النقيض ، فإن سيمون بوليفار ولد ثرياً وانفق ثروته على حركة التحرير لدول كثيرة فى أمريكا اللاتينية ، وحاول إنشاء دولة «كولومبيا الكبرى» ولكن ظروف المجتمع لم تكن قد نضجت بعد لتكوين دولة عظمى ، فتمزقت ـ فى حياته ـ من خلال حروب أهلية ، وأخذت دول أمريكا اللاتينية سنوات طويلة ، إلى أن نضجت ظروفها ، واستقرت على هذا الوضع الحالى حيث تتكون القارة من عدة دول كثيرة ، كل منها مستقل عن الآخر ، وإن كانت الأسبانية هى لغتها كلها بسبب وحدة وحدة مستعمرها وتبعيتها اللتاج الأسبانى ، ولو كانت قد سارت فى مسار الولايات المتحدة الأمريكية ـ وكانت لها ظروف مشابهة ـ فيما عدا أن أمريكا الشمالية كانت مستعمرات بريطانية وفرنسية ، تقول ، ربما لكان قد استطاع سيمون بوليفار ـ لو أمتد به العمر ـ أو أى زعيم جاء بعده ـ أن يكوّن «كولومبيا الكبرى» أو ولايات متحدة فى أمريكا اللاتينية ، وربما لكان تاريخ العالم قد تغير ـ هذا مجرد تصور شخصى افتراى ينقصه الدليل المادى .

٤ ـ لم يحمل اسم سيمون بوليفار ـ على الرغم من قصص نضاله حتى صار أسطورة فى أمريكا الوسطى ـ أى أهمية دولية ، ولا صارت جائزته حقيقة ، إلا بعد مائتى سنة على مولده ، فقد منحت جائزة سيمون بوليفار لأول مرة فى ٢٤ يوليو ١٩٨٣ بمدينة كاركاس عاصمة فينزويلا ـ وحيث ولد وترعرع وناضل ثم نقلت رفاته لتدفن بها عام ١٨٤٢ . أى أن جائزة نوبل منحت بعد خمس سنوات من رحيله لتوافر التمويل بثروة نوبل الهائلة بينما منحت جائزة سيمون بوليقار بعد نحو قرن ونصف القرن من رحيله ، ولذلك أثره على سمعه الجائزة وانتشار صيت جائزة الفريد نوبل .

٥ ـ عندما أصبحت دولة فينزويلا واسعة الثراء بسبب البترول ، رغبوا فى أن يخلدوا اسم محررها ، وان يجعلوا لأسمه سمعه عالمية ، ولم يشاءوا ـ مثل دول كثيرة ـ بأن تصدر الجائزة من فينزويلا ذاتها ـ حتى وإن كان الترشيح لها عالمياً مثل جائزة نوبل ، فهى فى الحقيقة جائزة محلية سويدية ، ولكنها صارت عالمية بسبب ان وصية الفريد نوبل قد حددت أن الحصول على الجائزة يكون لأى إنسان فى العالم (دون التقيد بأن يكون سويديا أو من مجموعه دول اسكندنيفيا) طالما ان له انتاجاً راقياً فى مجال تخصصه يؤهله لهذه الجائزة كبيرة القيمة ورفيعة المستوى التخصصى .

٦ ـ تقدمت فينزويلا إلى اليونسكو عام ١٩٧٨ ، تطلب أن يقوم اليونسكو بكل اجراءات منح الجائزة من كيفية الدعوة للترشيح ـ وتشكيل لجنة التحكيم ـ ولمن تعطى الجائزة وما هى معايير الفحص لمنح الجائزة وقياس الإنتاج وما أشبه ، وقد ارفقت حكومة فينزويلا بطلبها مبلغاً من المال (احسب انه غير كبير بدليل ان قيمة الجائزة المادية غير كبيرة) .

وقد فحص المجلس التنفيذى فى دورة انعقاده رقم ١٠٥ عام ١٩٧٨ طلب فينزويلا ، ووافق على أن حياة ونضال سيمون بوليفار ـ وقد صار تاريخه معروفاً فى كل من أمريكا اللاتينية وأوروبا ـ جديرة بمنح جائزة دولية ، ثم تصدر من اليونسكو (أى من هيئة عالمية وليس من دولة) وجعلوا منحها كل سنتين تقدم لفرد واحد وبحد أقصى لفردين كل مرة ، أو لهيئة أو منظمة ، ربطوا بين تاريخ سيمون بوليفار وأفكاره ومقولاته ونضاله ، وبين أحوال العالم الحالى ، ووضوا لذلك لوائح وعبارات ومعايير ، بأن هدف اليونسكو من منح الجائزة ـ كما جاء فى النشرة التى جهزتها

اليونسكو لهذا الغرض ـ هو أن هدفها من منح هذه الجائزة العالمية إلى «أفراد بارزين والذين يرسمون طريق المستقبل بذات الروح الذى ناضل بها «المحرر» والذى تحمل الجائزة اسمه ، «لتنمية وزيادة الوعى بين الشعوب بالتبادل والتعاون بين جميع أجناس الأرض والنضال المستمر الدؤوب من أجل الحرية والعدالة فى عالم يكون فيه السلام هو حجر الزاوية لكرامة الإنسان» .

من حصلوا على جائزة سيمون بوليفار (١٩٨٣ - ١٩٩٨)

تشكل اليونسكو منظمة الأمم المتحدة للتعليم والعلوم والثقافة "UNESCO" UNITED NATIONS EDUATINAL, SCIENTIFIC & CULTURAL ORGANISATION والتى اتخذت مقرها فى باريس ويرأسها مدير عام ينتخب لمدة فترتين فقط من المجلس التنفييذى والذى يبلغ عدد اعضائه ٥٨ عضواً ينتخبون من بين نحو ١٨٠ مندوبى الدول الأعضاء ، نقول ، تشكل هذه المنظمة لجنة تحكيم من سبعة أعضاء متميزين عالمياً وحيث يمثل خمسة منهم على الأقل جميع مناطق وقارات وثقافات العالم .

وقد منحت الجائزة لأول مرة يوم ٢٤ يوليو عام ١٩٨٣ لمناسبة مرور مائتى عام على مولد سيمون بوليفار ، وكان هذا الاحتفال الأول هو الوحيد الذى انعقد فى مدينة كاراكاس عاصمة فينزويلا ، وبعدها ـ وحتى الآن ـ يتم الاحتفال ـ فى يوم يتفق مع مواعيد لجنة التحكيم واستكمال الاجراءات ، وذلك بمقر اليونسكو بمدينة باريس ، ليكون للاحتفال صيغة عالمية بالفعل وهو أمر سيلمسه القارئ ـ من مجموعة الصور المنتقاه ـ والتى تنشر فى هذا الكتاب لأول مرة .

وخلال الخمسة عشر سنة الماضية (١٩٨٣ ـ ١٩٩٨) تم منح جائزة سيمون بوليفار الدولية ٧ مرات على النحو الآتى :

□ **المرة الأولى : فى ٢٤ يوليو ١٩٨٣ لكل من :**

(١) نيلسون مانديلا (جنوب أفريقيا) ومثله فى الاحتفال (لأنه كان بالسجن) رئيس المؤتمر الوطنى الأفريقى .

(٢) الملك خوان كارلوس الأول (أسبانيا) .

وقد عبرت الجائزة لهما معا عن مزج معايير محاربة التمييز العنصرى مع ملكية ديمقراطية وكانت حكمة لجنة التحكيم فى أن تمزج هدفين للمحرر «سيمون بوليفار» وهما الحرية والديمقراطية .

□ المرة الثانية : ٢٠ يونيو ١٩٨٥ :

منحت الجائزة إلى مجموعة الكونتادورا The Contadore Group وقد مثلها وزراء خارجية كل من كوملومبيا - المكسيك - بنما - فينزويلا - اعترافا من لجنة التحكيم بالدور الحاكم الذى لعتبه هذه المجموعة فى ايجاد حلول سليمة فى الصراع الذى كان يدور فى منطقة أمريكا الوسطى .

□ المرة الثالثة : ٢١ يوليو ١٩٨٨ :

وقد منحت الجائزة إلى جماعة التضامن فى شيلى - The Vicaria de la Solid aridad وقد مثلها مونسنير فاليخا الدونانى Monsignor Sergio Valech Aldu-nate وقد رغبت لجنة التحكيم - وقتها - أن تلقى الضوء على هذه المنظمة الوطنية الدينية فى المحافظة على التراث الوطنى للثقافة فى جمهورية شيلى وفى اطار مبادئ العدل والحرية والسلام .

□ المرة الرابعة : ٢١ نوفمبر ١٩٩٠ :

منحت الجائزة هذه المرة لشخص واحد هو فاكلاف هافيل Vaclav Havel وكان وقتها رئيساً لجمهورية تشيكوسلوفاكيا لتؤكد لجنة التحكيم تقديراً لقراراته وحكمته التى أدت إلى تحقيق الدفاع عن الحرية وحقوق الإنسان فى بلاده فى مرحلة دقيقة .

□ المرة الخامسة : ٢١ أكتوبر عام ١٩٩٢ :

ومنحت الجائزة هذه المرة لشخصين ، وكانت أولهما - ولأول مرة - امرأة قد لا تكون معروفة فى عالمنا العربى ولكن لها سمعتها العالمية التى أهلتها للحصول على جائزة سيمون بوليفار العالية عام ١٩٩٢ وعلى جائزة نوبل للسلام عام ١٩٩١ وهى السيدة أونج سان سوكوى Oung San Sun Kyi وهى تنتمي إلى دولة مايامنار Myanmar فى جنوب شرق آسيا .

ولهذه السيدة قصة نضال هائلة (معروفة جيداً فى أوروبا وأمريكا) وهى أبنة أحد زعماء الحركة الوطنية فى بلادها فى جنوب شرق آسيا وقد تم اغتياله عقب أن وقع وثيقة الاستقلال عن بريطانيا عام ١٩٤٧ ، استمرت الأبنة فى مسار والدها ، وقد عذبت ووضعت فى السجون وتحددت اقامتها ، وصارت حياتها ونضالا مثلا يحتذى .

وقد رغبت لجنة التحكيم فى منحها الجائزة ان ترسل رسائل إلى كل حكومات العالم فى حق المناضلين فى التعبير عن وجه نظرهم دون قهر .

أما الشخص الثانى الذى منح الجائزة عام ١٩٩٢ فكان جوليوس نيريرى فهو المعلم والفيلسوف ورجل دولة وناضل من أجل استقلال شعبه ووجد تنجانيشقا مع زنزبار ، ليصير أول رئيس جمهورية لشعب تانزانيا والذى صاغ اسمه ووحدته .

□ **المرة السادسة : ١٦ نوفمبر ١٩٩٦ :**

وقد منحت هذه المرة لشخص واحد هو محمد يونس من بنجلاديش وقد رغبت لجنة التحكيم فى أن تثمن اسهاماته المتميزة والمبدعة فى مقاومة الفقر بإنشاء بنك جارامين (بنك الفقراء) والذى ساعد المرأة الريفية بالذات .

□ **المرة السابعة : ١٩ أكتوبر ١٩٩٨ :**

وقد منحت الجائزة مناصفة بين كل من :

١ ـ ماريو سوارش رئيس جمهورية البرتغال (١٩٨٦ ـ ١٩٩١) لدوره البارز فى مكافحة نظام سانلازار الفاشى ودعم الديمقراطية وحقوق الإنسان .

٢ ـ ميلاد حنا من أجل انجازه ومواقفه فى مجال إسكان الفقراء ولنضاله من أجل دعم العلاقات الحميمة بين الأديان فى مصر ولمواقفه فى دعم المجتمع المدنى والجمعيات الأهلية وحقوق الإنسان .

نلخص فنقول ، إن جائزة سيمون بوليفار الدولية هى جائزة «المناضلين» من أجل حرية واستقلال الشعوب ، وقد منحت حتى الآن إلى هيئين من أمريكا اللاتينية ذاتها ثم إلى ملك وأربعة رؤساء دول بسبب نضالهم من أجل شعوبهم ولامرأة واحدة مناضلة وصار نضالها محركا لشعبها ، لاقتصادى قد انحاز إلى الفقراء ثم لمواطن مصرى بسيط ناصر حق الفقراء فى السكن وعمل من أجل تماسك شعبه فى وحدة وطنية لها تاريخها النادر .

علاقة سيمون بوليفار بمصر:

لا يعرف الشعب المصرى إلا أقل القليل عن سيمون بوليفار ، فمنذ مائتى سنة كانت الصلات بين مصر وأمريكا اللاتينية محدودة للغاية ، ناهيك على معرفتنا بتاريخ نضالهم .

وقد ذكر لى داريو باودر Dario Bauder سفير فينزويلا بالقاهرة ، عندما أقام لى حفل تكريم بمنزله فى المعادى ، بحضور جميع سفراء أمريكا اللاتينية فى القاهرة ، قال مداعباً : ما من طفل فى أى مدرسة فى قارة أمريكا اللاتينية ، إلا ويعرف مصر والأهرامات وتوت عنخ آمون وعبدالناصر ، وأتمنى من خلال حصولك على الجائزة ، أن يتعرف المصريون والعالم العربى على معالم ورموز بلادنا .

ولعل فى نشر هذا الجزء من الكتاب ما يهدف ـ كنقطة بداية ـ لتحقيق هذا الهدف النيل ، وواقع الأمر هو أن أول من اهتم بايجاد صلة بين مصر وأمريكا اللاتينية كان الرئيس جمال عبدالناصر ، عندما تأسست مجموعة دول عدم الانحياز لشعوب ودول افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية فى الستينات ، وكان أن أصدرت محافظة القاهرة قراراً بتغيير اسم ميدان قصر الدوبارة بحى جاردن سيتى فى القاهرة ليكون اسمه ميدان سيمون بوليفار ، وفى يناير ١٩٧٩ ، ولمناسبة زيارة حرم رئيس جمهورية فينزويلا لمصر ، ثم وضع تمثال سيمون بوليفار فى ذاك الميدان الذى اطلق اسمه عليه ، وفى موقع متميز بوسط القاهرة أمام جامع عمر مكرم قرب ميدان التحرير .

وقد ذكر لى د . بطرس بطرس غالى ، كيف كان من المتحمسين لوضع هذا التمثال فى وسط القاهرة ـ عندما كان وزير خارجية مصر ـ وقد سهل اجراءات نقل التمثال من كراكاس إلى القاهرة ، علاوة على أنه ـ أى د . بطرس غالى ـ وبصفته رئيساً لمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ـ فقد كلف احد خبراء المركز «السيدة نبيه الاصفهانى» بتأليف كراسة عن سيمون بوليفار لمناسبة مضى مائتى سنة على مولد سيمون بوليفار ومنح الجائزة الدولية من اليونسكو لأول مرة كما سبق الذكر ، وكتب د . بطرس بطرس غالى مقدمه هذه الكراسة ، واقتبس منها هذه العبارة :

«لقد اكتشفت شعوب امريكا اللاتينية ـ بعد أن خاضت تجارب مريرة ـ من التشتت والنظم الديكتاتورية ان بوليفار لم يكن مجرد قائد ثورة كتب لها النصر على يديه بعد كفاح دام خمسة عشر عاماً ، انهكت الاستعمار الأسبانى ، وإنما كانت نقطة تحول فى التاريخ» .

«كان لدى بوليفار رؤية مستقبلية لأمريكا اللاتينية تتجاوز أبعاد فهم رجال عصره بل ورفاقه فى القتال ، ففى كل ما أتى من أقوال وأفعال طوال حياته ـ والتى

كان يفاجئ بها كل من عاصروه - كان يرنو ببصره إلى المستقبل ويتطلع إلى أحداث تغيير ثورى فى المجتمع الأمريكى الذى تحرر على يديه . فقد كان على مجتمع أمريكا اللاتينية أن يمر أولاً بالمرحلة القومية والتى امتدت حتى منتصف القرن العشرين ليبرز اسم بوليفار من جديد ، فإنه اليوم قد اصبح يمثل التيار الوحدوى الذى عقدت عليه شعوب القارة اللاتينية أمالها فى مستقبل أفضل» .

«كان بوليفار رجلاً عظيماً بفضل ما حققه من تحرير شعوب القارة من نير الاستعمار الأسبانى ، قد أصبح اليوم أعظم بفضل ما لم يحققه فى عصره» .

□ □ □

إننى اتطلع إلى حقبة جديدة من العلاقات الأقوى بين العالم العربى من جهة ومجمل دول أمريكا اللاتينية وبالذات مجموعة الدولة المسماه «البوليفارية» وهى الدول الست السابق الإشارة إليها فى المجالات الثقافية والاقتصادية والسياسية والإنسانية .

وسيجد القارئ فى الصفحات التالية صور منتقاه لحفل تسليم الجائزة فى الاحتفال التى تم فى مساء يوم الاثنين ١٩ أكتوبر ١٩٩٨ بالقاعة الرئيسية رقم ١١ بمبنى اليونسكو بباريس .







The United Nations Educational,
Scientific and Cultural Organization

hereby attests that the

1998 International Simón Bolívar Prize

has been awarded to

Milad Hanna

in recognition of his outstanding contribution
to the promotion of tolerance
within a pluralistic society and to strengthening
the bonds of good citizenship in keeping
with the ideals and message of Simón Bolívar

Federico Mayor
Director-General

Paris, 19 October 1998



ملحق صور لتسليم
جائزة سيمون بوليفار للدكتور ميلاد حنا

يوم الإثنين ١٩ / ١٠ / ١٩٩٨ - مدينة باريس



المؤلف مع تمثال سيمون بوليفار بالقاهرة



ميلاد حنا لقطة مميزة طريفة للحظة اللقاء الأولى بين فريديكو مايور المدير العام لليونسكو مع د . ميلاد حنا وذلك بمكتب المدير العام بباريس ، والفائز الثانى ماريو سوارش رئيس وزراء البرتغال يراقب مبتسما .

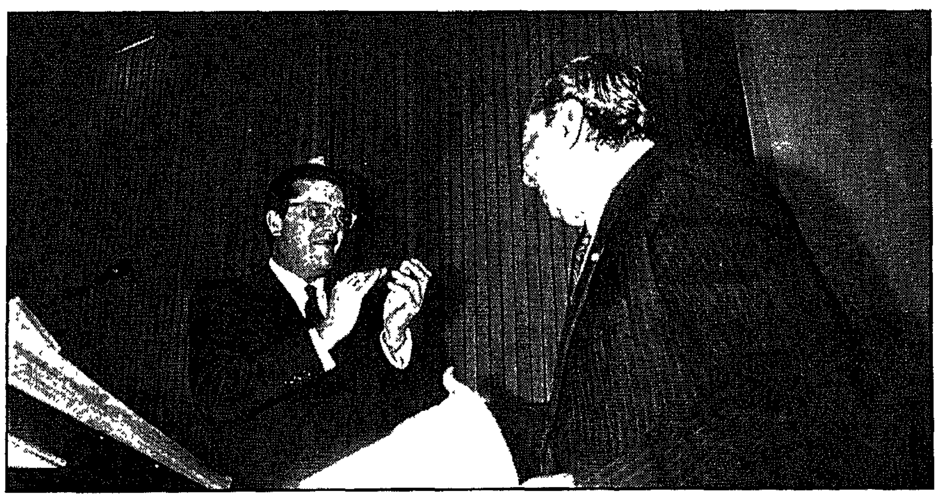
لحظة مودة عقب إحتفال تسليم جوائز سيمون بوليفار الدولية بباريس بين فريديكو مايور المدير العام لليونسكو مع د . ميلاد حنا الفائز المصرى والعربى الأول بالجائزة .





عقب تسلم الجائزة ألقى د . ميلاد حنا كلمة باللغة العربية معلنا أن المستحق للجائزة هو شعب مصر .

د . ميلاد حنا وقد إستلم جائزة سيمون بوليفار الدولية بباريس وفريديكو مايور المدير العام لليونسكو تصفق .





الفائزين بجائزة سيمون بوليفار الدولية العام ١٩٩٨ ماريو سوارش رئيس جمهورية البرتغال السابق يصفق للدكتور ميلاد حنا .

ماريو سوارش رئيس جمهورية البرتغال السابق ١٩٨٦ - ١٩٩١م) الفائز بجائزة سيمون بوليفار الدولية يلقى كلمة عقب تسلم الجائزة .





الدكتور بطرس غالى يهنئ الدكتور ميلاد حنا ويظهر فى الصورة الدكتور على ماهر سفير مصر فى فرنسا .
فى إحتفال اليونسكو بتسليم جائزة سيمون بوليفار الدولية فى ١٩/١٠/١٩٩٨ .

جائزة سيمون بوليفار الدولية ميلاد بباريس ١٩/١٠/١٩٩٨ .
فريديكو مايور المدير العام لليونسكو يسلم الجائزة للفائز ماريو سوارش الرئيس السابق لجمهورية البرتغال والفائز د . ميلاد حنا يصفق ويراقب وينتظر دوره فى إستلام الجائزة .





أثناء إحتفال تسليم جوائز سيمون بوليفار وخلال إلقاء د . ميلاد حنا يلقى كلمة ، دخل د . مفيد شهاب وزير التعليم العالى ومندوب مصر فى المجلس التنفيذى لليونسكو وقد قدم لتوه من المطار . ما كان من د . ميلاد حنا إلا أن ترك المنصة وخالف البروتوكول ، ونزل مرحبا بمقدم الوزير مفيد شهاب ، فكانت اللقطة المميزة وفى الأمام إيفلين رياض زوجة ميلاد حنا تراقب وفى الخلف السيدة نبيلة حسن إسماعيل زوجة السفير فتحى صالح سفير مصر فى اليونسكو .

فى إحتفال تسليم جوائز سيمون بوليفار الدولية جلس فى الصف الأولى كبار الزوار ومن بينهم د . بطرس غالى ، د . خامير بيريز دى كويار الأمنين السابقين للأمم المتحدة مثل هذا الإحتفال غالبا لأن سيمون بوليفار هو محرر أمريكا اللاتينية حيث إنتمائ دى كويار ، ولأن أحد الفائزين عام ١٩٩٨ . (د . ميلاد حنا) مصرى ، وكان البروتوكول يقتضى الإحتفال بتسليمه الجائزة د . بطرس غالى الحضور أيضا . .اوفى الصورة إيزبيلا إبنة ماريو سوارش رئيس البرتغال السابق .





لفيف من المصريين الحاضرين بالإحتفال من اليمين الأستاذ أحمد يوسف من مكتب الأهرام بباريس ثم أحد الدبلوماسيين مع السفيرة نيفين سميكة القنصل العام فى فرنسا والسفير على ماهر سفير مصر بفرنسا ثم سفراء مصر السابقين فى اليونسكو د . على لطفى ، د . محسن توفيق ، د . ميلاد حنا وزوجة الكاتب الصحفية إيفلين رياض .

ميلاد حنا السفير على ماهر سفير مصر فى فرنسا يهنىء د . ميلاد حنا بحصوله على الجائزة ، وفى الخلفية رى اليسار د . محسن توفيق سفير مصر فى اليونسكو الأسبق وفى الوسط د . عثمان لطفى السفير السابق لمصر فى اليونسكو .





. . ميلاد حنا بعد تكريمه بين د . بطرس غالى الوزير د . مفيد شهاب وفى اللقطة سفير مصر على ماهر
د . فتحى صالح مندوب مصر فى اليونسكو .



الفائز الأولى بالجائزة ماريو سوارش
رئيس جمهورية البرتغال السابق ،
يوجه التحية والتقدير - فى خطابه -
إلى د . ميلاد حنا الفائز الثانى بجائزة
سيمون بوليفار الدولية لعام ١٩٩٨ .

محتويات الكتاب









الكاتب

* ولد فى حى شبرا بالقاهرة عام ١٩٢٤.
* أستاذ الإنشاءات بهندسة عين شمس.
* رئيس لجنة الإسكان بمجلس الشعب ١٩٨٤ - ١٩٨٧.
* عضو المجلس الأعلى للثقافة من ١٩٩٢.
ورئيس لجنة الثقافة العلمية فى المجلس.
* كاتب متفرغ بجريدة الأهرام.
* عضو مؤسس لحركة حقوق الإنسان عربياً ومصرياً.
* خبير فى قضايا الإسكان فى العالم الثالث.
* حامل لوسام النجم القطبى من ملك السويد مارس ١٩٩٨.
* حصل على جائزة سيمون بوليفار العالمية من اليونسكو أكتوبر ١٩٩٨.
* شهادة «فخر مصر لعام ١٩٩٨» من جمعية المراسلين الأجانب بمصر.

هذه الطبعة

ظهر هذا الكتاب لأول مرة فى يناير ١٩٨٩، ثم نقح وطبع أربعة مرات، وأخذ شهرة داخل مصر وفى العالم العربى، كما حازت طبعة اللغة الإنجليزية قبولاً عاماً خارج مصر، فكان أحد أسباب منح المؤلف جائزة سيمون بوليفار الدولية من اليونسكو فى ١٩ أكتوبر عام ١٩٩٨.

وفى ضوء ذلك أعدت هذه الطبعة الخامسة بإخراج مختلف، ومقدمة مناسبة وأضيفت ثلاثة فصول جديدة جعلت الكتاب فى مجمله يقدم رؤية جديدة للشخصية أو الهوية المصرية، والتى تأثرت عبر الزمان برقائق حضارية أربعة هى: الفرعونية. اليونانية الرومانية. القبطية. الإسلام ثم كانت الأعمدة الثلاث الباقية المرتبطة بالمكان أى الانتماء العربى والإطلالة على البحر المتوسط وأخيراً مصر جزء هام فى أفريقيا.

كما خصص ملحق يقدم صور الاحتفال بتسليم جائزة سيمون بوليفار فى باريس لتكون متاحة للقارئ وتنشر لأول مرة.

هذا الكتاب حاصل على جائزة سيمون بوليفار الدولية من منظمة اليونسكو العالمية



UNESCO



INTERNATIONAL SIMÓN BOLÍVAR PRIZE

